
رواية
دُنى غالي
جَنوب
مكتبة ياسمين

كما لو أنك ترى فيلماً معكوساً! تفتح المفكرة لا على التعيين، وتشرع بقراءة صفحتين. تقلب صفحتين أخريين وتغلق المفكرة. أنت تقرأ من اليمين إلى اليسار؛ لأن المكتوب جاء باللغة العربية. ولسوف تُفاجأ بأن النص لا يذهب بكَ إلى حركة السطور العربية نفسها، بل عليك لكي تقرأ المزيد أن تقلّب الصفحات إلى اليسار، كما لو أنك تعود بالزمن إلى الخلف. يبدو أن صاحب المفكرة، التزم بتنظيم المفكرة الغربية التي قدّمتها شركة نور للمقاولات إلى زبائنها كهدايا للدعاية والإعلان. تفكر في البدء أن لا ضير في ذلك، أي أن تقرأ بتسلسل زمني راجع، تقنع نفسك أن لا أثر واضحاً لهذه الحركة، لا حوادث مهمة، لا أمكنة ضائعة. تفكر بوجود رغبة ما حقيقية لدى صاحب المفكرة في العودة عكس التاريخ، إلى ما قبل السنين الهرِمة، إلى ما قبل جفاف الفم، وتقحّل حياته! أنت لا تعرف المكتوب بعد، وصاحب المفكرة قد توفي. لن تفهم أيضاً دوافعه أو حالته. هل كان هذا الفعل يشبهه أو لا يشبهه؟ هل هذا نهجه في حياته، هل يعود إلى تأثّره بنشأته المختلطة، بين ثقافتين، غربية وشرقية، ودينين مسيحي وإسلامي، أم إنها حالته الصحية؟ لذا سيكون بين يديك زمنٌ يصعب قياسه أو تقييمه. ستجده ثريّاً وأجوفَ، حيّاً وميتاً، ساذجاً ومعقداً.



ثمة تنبيه لا بدَّ منه، إذ عليك أن تتذكر أن ما بينك وبين المفكرة أياديَ خفية، لربما حاولتْ أن تحرّف المكتوب. تحديداً الثلاثة هؤلاء الذين تشابكتْ حياتهم، من دون أن يعي أحدهم أنه لم يعد بالإمكان العيش بمنأى عن الآخر.

لوحة الغلاف: الفنان احمد نصيف

دُنى غالي



خطوات – رواية في جزأين

مانفيستو الحجرة – رواية في مقاطع سردية





اسم المؤلف: دُنى غالي | Author: **Duna Ghali**

عنوان الكتاب: جَنوب | Title: **Janub**

الناشر: دار المدى | P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2023** | First Edition: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

إلى نون

«سوف تتعلّم في هذا النُّزل قسوةَ أن يكون المرء غريباً. كذلك ستتعلّم أيضاً أن تحمّل هذا الأمر ليس بالهين. إذا ما كنتَ نادماً على بلدكَ، فلسوف تعثر هنا في كل يوم على المزيد من أسباب ذلك الندم؛ لكن إذا ما توصلتَ إلى نسيانه، ومن ثم حبّ محل إقامتك الجديد، آنذاك سوف يعيدونك إلى بلدكَ، حيث ستكتشف، بعد غربتكَ تلك، منفاك الجديد».[1]

1- غزلية. مريس بلانشو.
ت. حسين عجة.

خطوات

رواية في جزأين

«لا جديـد علـى واقع الحيـاة. الجو بارد. سـقيتُ الحديقـة وأبدلتُ فتيل الصوبة النفطية سايفو»

شتاء 2008

كما لو أنك ترى فيلماً معكوساً ! تفتح المفكرة لا على التعيين، وتشرع بقراءة صفحتين. تقلب صفحتين أخريين وتغلق المفكرة. أنت تقرأ من اليمين إلى اليسار؛ لأن المكتوب جاء باللغة العربية. ولسوف تُفاجَأ بأن النص لا يذهب بكَ إلى نفس حركة السطور العربية، بل عليك لكي تقرأ المزيد أن تقلّب الصفحات إلى اليسار، كما لو أنك تعود في الزمن إلى الخلف.

يبدو أن صاحب المفكرة، التزم بتنظيم المفكرة الغربية التي قدّمتها شركة نور للمقاولات إلى زبائنها كهدايا للدعاية والإعلان. تفكر في البدء أن لا ضير في ذلك، أي أن تقرأ بتسلسل زمني راجع، تقنع نفسك أنّ لا أثر واضحاً لهذه الحركة، لا حوادث مهمة، لا أمكنة ضائعة.

تفكر بوجود رغبة ما حقيقية لدى صاحب المفكرة في العودة عكس التاريخ، إلى ما قبل السنين الهرِمة، إلى ما قبل جفاف الفم، وتقحّل حياته!

أنت لا تعرف المكتوب بعد، وصاحب المفكرة قد توفي. لن تفهم أيضاً دوافعه أو حالته. هل كان هذا الفعل يشبهه أو لا يشبهه. هل هذا نهجه في حياته، هل يعود إلى تأثّره بنشأته المختلطة، بين ثقافتين، غربية وشرقية، ودينين مسيحي وإسلامي، أم أنها حالته الصحية.

لذا سيكون بين يديك زمنٌ يصعب قياسه أو تقييمه. ستجده ثريّاً وأجوفَ، حيّاً وميتاً، ساذجاً ومعقداً.

ثمـة تنبيـه لابد منه، إذ عليـك أن تتذكر أن مـا بينك وبين المفكـرة أياديَ خفيـة، لربمـا حاولـتْ أن تحـرّف المكتـوب. تحديـداً الثلاثة هـؤلاء الذين تشـابكتْ حياتهـم، مـن دون أن يعـي أحدهـم أنـه لم يعـد بالإمـكان العيش بمنأى عن الآخر.

الجزء الأول

1

حسام وفاضل قد خطّطا لهذه السفرة طويلاً. وأخيراً سيستقران على متن طائرة تطير بهما الى أوروبا في جولة سياحية يلتقيان خلالها مجموعة من الأصدقاء. جميعهم دخل عقده الخامس. لا يملك أحد سوى أن يبتسم لسماع خبر صديقين عراقيين كانا لاجئَيْن قبل سنوات يعودان إلى أوروبا كسائحَين موسرين.

لم تكن خطة استقرارهما ثانية في دولة عربية في حسابهما. ذلك قد حدث، ولكل منهما أسبابه. أما وائل، الصديق الثالث، فقد تعثّرت فترة تواصله معهما. الحق أنه ابتعد شيئاً فشيئاً، بعد هوس اللقاءات اليومية أيام المراهقة. زادتها أيام الدراسة الجامعية، بقبوله في جامعة في بغداد. كانت البصرة هي المدينة التي ربطتهم بأكثر من وشيجة، لكن رحلة اللجوء هي التي توّجت التجربة الحياتية الحقة التي خاضها الثلاثة. الرحلة بما انطوت عليه ظلّت نبعاً لا ينضب لنوادر فاضل تحديداً. الحظّ وحده هو الذي فرّق ما بين الثلاثة، حين قذفت الأمواج وائل إلى الدنمارك، بينما سبقه الاثنان إلى السويد.

هذه المرة سفرتهما الطويلة سياجية بامتياز، والخطة عموماً هي اللاتقتير في خلق أجواء لقاءات مُرفَّهة ممتعة. فاضل المقيم في الكويت ينطلق من الحلم بتحقيق رقم قياسي في لمّ شمل أصدقاء لم ير أو يسمع عنهم لسنوات طويلة. بتحقيق فرحة اللقاء ببعضهم سيكون قد شطَبَ على أولى الأمنيات الكبرى في حياته. رأى أن هؤلاء الأوفياء وإنصافاً لما لحقهم من ضيم

ووحشة وتغرّب يستحقون منه كل هذا الاهتمام. لم يكن لدى أحدهم أدنى شك فيما يتحرّق لتحقيقه، رغم ما سيكلّفه ذلك من وقت وجهد.

أما حسام الذي استقر في دبي، فلا يعرف تحديداً ماذا يريد من هذه الرحلة. وبما أن مجاله وهواه محصوران بالتكنولوجيا، اعتبر تلك الرحلة محض خلل تقني فني أصاب العالم. لا يمكن فعل شيء إلا الانتظار حتى يتم تجاوزه. في حالات كهذه يقتضي ترك كل شيء. ربما هذا هو هدفه الوحيد، ألا يكون هناك من هدف. ومن دون حماسة بدا ذلك فجأة مناسباً له.

يجلسان قبل إقلاع الطائرة متجاورين في صالة الانتظار، تكاد تتشابه سيقانهم الممدودة بلون الجينز وموديل السنيكر. تسنى لهما القيام برحلة التسوّق معاً، استعداداً للسفرة. وقد عاد فاضل لاحقاً، من دون علم حسام إلى محال الألبسة ذاتها ليشتري ذات الملابس التي اشتراها حسام. كان متشوّقاً مثل طفل ليرى وقع ذلك على حسام. إذا ما كان حسام سيظن أن الصدفة تلعب دورها كالعادة. ظَهَرا في المطار، كُلٌّ من جهة، كأنهما لاعبان من فريق رياضي. لفرط ضحكه انحنى فاضل ومَسكَ بطنه بِكَفِّه العريضة، ما إن لمح حسام في آخر الرواق. لم ينطق حسام بكلمة. لم يظهر أيما انفعال على وجهه. فَهِمَ الموقف حالاً. كظمَ غيظه، حَمَل يده اليمنى ليضعها في جيب بنطلونه، وهو يرى فاضل غارقاً في الضحك. إنه أحد مقالبه. تطابقا في كل شيء، لون التيشيرت البولو وبنطلون الجينز، الكاسكيت ذاته لكل منهما، وحتى حقيبة الظهر. لكنهما مختلفان من حيث القامة والشَّعر والبشرة. فاضل ضخم وطويل، مشدود العضلات مستقيم الظهر، ذو شعر أسود داكن كثّ، كذلك الحاجبان والشارب، وإن غزاها الشيب. له عينان غامقتان واسعتان، وإن كاد جفناه الثخينان يغلقان. بشرة ذات سُمرة خفيفة وشفتان وأسنان ولثّة لم يؤذها التدخين. حسام بالمقابل قصير القامة تقريباً، رخو، له بطن يتقدَّمه بسبب ملذّاته، كما اعتاد فاضل أن يقول، ذو بشرة خصيباوية شاحبة، شفتان غليظتان متهدلتان وشَعْرٌ في تساقط منذ منتصف ثلاثينيّته، واليوم وقد أتمّ الخمسين راح يحلقه تماماً لضجره، مُعوّضاً عن ذلك بإدمانه جمع الكاسكيتات، بأغلى الماركات المختلفة في الألوان والتصميمات.

عنـد انتهائهمـا مـن فحـص الجـوازات وشـحن الحقائب التي سـتصل كوبنهاجن عبر الترانزيت، انفصل حسـام عما حوله في بهو الانتظار باختياره مكاناً في أقصى الطرف من صفّ الكراسـي في صالة المغادرة. انصرف إلى هاتفـه النقّال واضعاً السـمّاعات فـي أذنيه. كان ينوي ألا يسـتخدم النقّال إلا للضرورة خلال هذه السفرة، لتفادي رسائل تعكّر عليه مزاجه. تطارده العائلة والعمل لا مفر منه. رغم ذلك فهاجس أن يفوته إعلان عن أحدث بضاعة في عالـم التكنولوجيا شـيء لا يمكنه احتماله. كان يقـرأ بهوس كل المراجعات التي تخص المبتكرات الجديدة بتفاصيلها. يتابع الأجهزة التي حصلت على تقييمات عالية. ولا يهمل إشعاراً عن آخر فيديو يخصّ أحدث الأجهزة.

فاضل كان أيضاً منشغلاً بهاتفه، ولكن من دون سمّاعات، يجري مكالمات لم تنقطع مذ دخل المطار. يتمشـى جيئة وذهاباً، وهو يلقم هاتفه الذي قرّبه من فمـه كلماته. اعتاد أن يفتحَ السـمّاعة غير آبهٍ بأدنـى خصوصية قد تنطوي عليها مكالماتـه. كان يتابـع حديثه بصوتـه العالي، وهـو يلاحق المـارّة العابرين إلى اليسـار وإلى اليمين بعينيه الواسـعتين. لم يكن من الفئة التي تثق بالتكنولوجيا، وهو لا يجيد استخدامها. اعتماده كان كليّاً على حسام في هذا الجانب. لذا في كل مرة يجدّد حسام هاتفه، كان فاضل يقتني النسخة ذاتها. لضمان سير الخطط كما يريد لها، قام بإدراج قائمة بأسماء الأصدقاء للسفرة في لائحة خاصة بخطّ يده في دفتره الصغير، ممتناً مع ذلك للفيسبوك وغيره في تقفّي أثرهم تدريجيّاً. شيء ما زال يعتبره رغم ذلك إنجازاً شيطانيّاً. لكنه يرى هؤلاء الذين سيجمعهم مثل طيور واجهت مشاقَّ في رحلة الحياة، حتى نسيت هدفها. تساقطوا عبرها، ولكن العلائق لم تحل دون وصول البعض منهم إلى مستقرّ.

المجموعة التي سيلتقيان بها هي خليط من منبوذين حقيقيين من بلدهم، باختلاف التهم، أو الأسـباب التي دعت إلـى مغادرتهم. جمع أغلبهم حينها فنـدق «الدومتوريسـتوف» في موسـكو قبـل انطلاقهـم إلى الـدول المانحة للجـوء. كان فاضل وحسـام مـن بين المجموعـة، يحملان الآن بتميّز سـمة المقيميـن في دول الخليـج المترَفين في حياتيهما. وقـد يزيد البعض فيخلع عليهمـا صفـة المسـتثمرين. يدعّـم مظهرهمـا ذلـك الظـن، عبـر الملابس، الإكسسوارات، وترف البشرة.

عـرَج فاضـل بينمـا كان يتابع حديثـه ليشـتري قنينتي مـاء. لا يحبّ بطء حسـام، وعلى الأخـص حين يتعلق الأمر بالطوابير. كان يبغض شـيئاً اسـمه طابور. لم يكن يقوى على الانتظار. توجّه مسـرعاً إلى حسام، ناوله قنينة ماء وحثّه على النهوض، ما إن لمح إشعار ركوب الطائرة على الشاشة.

كان فاضـل قـد خطّـط لهـذا الـ Reunion منـذ مـدة. للبعـض سـتكون مفاجـأة، مـع البعـض الآخر كان قد اتفق مسبّقاً. سـينطلقان مـن الإمارات، عبر فرانكفورت، إلى كوبنهاجن جوّاً؛ حيث سـينضم وائل إليهما ويسـتقلّون القطـار فـي المرحلة الثانية عبوراً إلى مالمو، ومن ثم إلى اسـتوكهولم، هناك سـيكون في اسـتقبالهم أصدقـاء، ينطلقـون بسـياراتهم إلى أوبسـالا؛ حيث يمكثون باقي أيام سـفرتهم. وسـيلتحق بهم صديقان من أوسـلو أيضاً. ذلك هو المسار الذي خطّط له فاضل على الورق بالأزرق والأحمر.

هنـاك من أطلق عليـه دينامو الشـلّة. الصفة التي تبعث فيه زهـواً، وتزيده هِمَّة وتشـعل حماسـه. هـو الوحيد المولّـه بمتابعة الأحداث والبشـر، الذي يجمـع القصص، يتقفى الآثار ويسـأل عـن المصائر. بين الطيبـة والفضول، هـو لا يكـفّ عن إبـداء إعجابه بقـدر العراقيين السـاحر والمرعـب معاً - يا أخي قد تفرّق أهله وناسـه بطريقة أشـبه بصعود صـاروخ من الألعاب النارية عالياً، سـنوات وأعناقهم مشـرئبة تراقب نوافير انفلاقاته المتتالية وانطفاءاتها التدريجية.

تـزوّج فاضل بثينة، بعد رفض عتيد من قبل عائلتها. لا زواجه ولا موافقة أهلهـا كانا متوقعين. الناس تقصد السـويد للجوء، ذلك ما كان يعرفه. لاحقاً تعـرّف نوعـاً ما علـى الوجه السـياحي للبلـد، الـذي لا يظن أنـه الجهة التي يقصدهـا الخليجيون للسـياحة. رحلة العلاج هي وحدهـا الحظ الذي رتّب لـه حياتـه على نحو لم يتوقعـه. لم يكن الوقت قد حان لفاضـل بعد للزواج، علـى الأقـل ليس في تلـك المرحلة من حياته. لـو قيل إن اللاجـئ يبدأ ببناء حياتـه من الصفر فلا شـيء مـن المبالغة في القـول. لا يمكن لأحدهم تخيل

ذلـك إن لـم يجرّبه. ربمـا كان ذلك أكثـر وضوحاً في الموجـات الأولى من اللاجئيـن، ثم اختلف الأمر كثيراً لاحقاً. السياسـة لابد من أن تتغير، يلحقها تغير السـلوكيات من قبل البشـر. سـواء ما يخصّ الضيـف أو المضيّف. عدا ذلـك فالمانـع الأكبر خصّ أهل بثينة الذين كان لهـم موقف تراكمي معروف ضد العراقيين.

لكن بثينة ذاتها كانت أمه ستختارها عروسـاً له. المنـام الذي رآه أخرجه مـن أزمته. كان قد مضـى زمن طويل مذ رأى أمه. زارتـه في المنام. وضعت يدها على كتفه ثم مسّـدت رأسه برقة وحنان. الابتسامة التي خلّفت وجودَها في الغرفة هي البركة التي منحته إياها.

تعرّف فاضل على بثينة حين كان نزيلاً في مستشـفى في أوبسـالا. كانت مرافِقـة لأمهـا في رحلـة العلاج. اسـتمرّت إقامتها لثلاثة أشـهر في السـويد توطدت خلالها علاقتهما. أحبّ شَعرها الأسود اللامع، أنفها الأفطَس، قصر قامتها، امتلاءها، ومؤخرتها العريضة. كانت رائحتها كالنسمة كلما هفّت به، يتوق لتشـمّمها. الفارق العمري كبير جدّاً بينهما، ولكنها تولّهت به، كما ظلّ ويظل يكرّر. والعلاقة التي لم تمهله كثيراً ليفكر، سـرعان ما اقتضت التزامه، ومن ثم ارتباطه الرسمي بها. رحلته اليوم إلى أوبسالا ستكون نزولاً عند رغبة زوجته لحجّ المدينة السَّعد التي جمعتها به، وخزنت أجمل ذكريات ربيعها.

يسـتقر حسـام وفاضل في مقعديهما في الطائرة أخيراً. تتبدّد أزمة اجتياز مراحل التفتيش وشحن الحقائب وفحص الأوراق. لا يرى فاضل من بد في تحمّل حصته وحصة حسـام معاً من مشاقّ ذلك. يفضّل حسام الجلوس عند النافذة، بينما من شأن الجلوس على الطرف من صفّ المقاعد أن يمنح فاضل حرية الذهاب إلى التواليت، والتحرّك في الممر والحديث مع الركّاب. لكنه رغم حرصه على تثبيت الأمكنة مسبّقاً، لم يفلح هذه المرة. صادف أن يكون المقعد الثالث جهة ممرّ الطائرة مشـغولاً من قبل رجل دنماركي، كبير السـنّ عائـد من رحلة سـياحية في دبي. لم يشـأ الاعتراض، وأخـذَ بصفّ حقائبهم الثلاث عالياً في كابينة الطائرة.

الرجل إلى جانبهما صادف فاضل في البهو قبل الإقلاع. قد لا يكون لمصادفته في هذه السفرة سوى قصد التذكير بوالد صديقهما وائل. كان هو بقامته الطويلة وانحناءة ظهره ومعطفه الأجنبي الطويل. يلكز ذراع حسام، ويهمس في أذنه. هو أبو وائل بعينه. سبحان الخالق. الفارق الوحيد هو لون بشرة أبي وائل الجافة التي كانت تميل إلى الصفرة المدخّنة. بها تركزت كل قوة شمس البصرة القاهِرة وإنهاك السنوات.

مالَ الرجل في مقعده نحوه، سأله إن كان يتحدث الإنجليزية. نص ونص، قالها وهو يتحاشاه، ثم أشار إلى حسام الذي يتقنها. زاد اقتراب كتف الرجل من كتف فاضل، ولم يكفّ عن الإدلاء بتعليقات قصيرة. تنبّه فاضل إلى شدّة الاحمرار التي اختلفت في أجزاء وجهه المدوّر العريض. كاد أنفه الكبير أن يكون قطعة كبيرة قانية اللون، بينما تبقّع الخدّان. هذا الإسكندنافي قد تشرّبت بشرته البيضاء الممتلئة بحمرة فراولة المزرعة التي يمتلكها من دون شك! ضحك فاضل لما جال بباله. سأل ثانية إن كان فاضل يجيد الألمانية، ولم يتردد هنا فاضل عن الدردمة عالياً بلهجته لاعناً الصدفة هذه، ولاعناً حسام الذي رفض أن يتبادلا المكان رفضاً قاطعاً.

أخبرهما الرجل بأنه يسكن في أقصى القطب المتناحر عليه الآن، أمريكا وروسيا، كندا والنرويج بالإضافة إلى الدنمارك التي تضم غرينلاند والفارو إلى مملكتها، تلك الدول الخمس لها سواحل على القطب. يضطر حسام ليتواصل معه ويدير الحوار خجلاً من تبرّم فاضل. العالم يخشى أن يذوب تماماً قبل أن تهتدي الهيئة إلى تسوية. خلاف حول حقيقة وحجم عائدية كل منها، والتسوية في أحقية مَن بامتلاكه أو التصرف في مياهه واللعب بأجوائه. كان فاضل يتململ في مكانه طوال الوقت. في كوارث من هذا النوع تجتاحنا الرهبة لجبروت تلك القوة الخارجية التي بالإمكان أن تنهكنا أو تنهينا. يترجم حسام لفاضل آخر ما قاله السيد. يلعن فاضل بالعربية الحظ الذي أجلسه وسط الاثنين بصوت مسموع:

– والمنطقة هناك قد اشتعلتْ تماماً وأجدادنا احترقوا.

يتجاهل حسام ما قاله فاضل ويواصل مجاملاً إنصاته للرجل الذي بدا

له موضوع القطب الشمالي بمنتهى الخطورة وهو يتوسع بالشرح من أجل توضيح ملابساته. حسام كان الوحيد من بين الشلّة الذي يخالط أناساً لا يتحدثون العربية أو العراقية. عَقَدَ صداقات مع الجنسين. لا تضايقه الأصول الأوروبية أو الأجنبية الأخرى، ولا التحدث بلغة أجنبية في سهراته أو محيط عمله. كما أن فضوله إزاء العالم لم يكن منصبّاً على حيز محدود منه. ظلّ فاضل يتندّر بخبر كان قد انتشر حول رفع الأميرة، ابنة ملك السويد لبُرازِ كلبها من على الرصيف في أثناء تنزهها معه ووضعه في الكيس البلاستيكي المخصص له، وهو ما يحرص عليه كل مالكي الكلاب. وقد عاد فاضل وتذكّرَه. -اسألْه بربّك، هل يجمع براز كلبه في جولاته؟ كان تصرّف فاضل، على شاكلة هذا المثال، غالباً ما يسبّب حرجاً لحسام. عدم مبالاته للأجنبي الذي يبدي فضولاً ووداً ورغبة بالحديث معه يجدها حسام خارج الذوق والأدب. لطالما اتهمه فاضل برغبته في أن يصير أوروبيّاً ويحذّره من الخيبة التي ستصيبه في النهاية. يرفض حسام ذلك ليس دفاعاً عن الأوروبيين، وإنما رفضاً للتعميم وتهويل القصص، ولأن فاضل لم تتوفر له إلا مداخل قليلة جدّاً للتعرّف على المجتمع الذي يتحدث عنه. تدور حوارات بينهما بهذا الشأن، تنتهي بانفعالهما، واتهام حسام له بالعنصرية المضادة البغيضة.

يتذكّر فاضل الحبيس أمراً وهو جالس وسطهما، هزّ ذراع حسام العاطلة. لقد خطرت بباله فكرة تنقذهما مسبّقاً من ملل الطريق، وترغم الرجل إلى يمينه على الكفّ عن الحديث. فكّ حزامه ونهض من مكانه، ما إن ذهب الرجل إلى التواليت. تناول حقيبته من الكابينة أعلاه، أنزلها إلى كرسيه وفتح سحّابها ليخرج كيساً بلاستيكيّاً رماه في حضن حسام من أجل أن يعود بالحقيبة إلى مكانها.

يتضايق حسام من حركات فاضل القلقة طوال الوقت. كان قد احتسى كأسين من النبيذ لم يبدّدا بعد الوجوم الذي يشعر به من حوله. ألقى نظرة إلى الكيس المرمي في حضنه. نظرة خالية من أدنى فضول. ظلّ جامداً ولم يحرّك يديه. جلس فاضل وربط حزام الأمان ثانية وتناول الكيس من حضنه. وجهُ فاضل يعِدُه بشيء مثير. كيس في داخل كيس في داخل كيس حتى توصّل إلى

الكيس الذي كان الشـريط اللاصق العريض قد كفّنه تماماً. أخذ فاضل يقلّبه وهو صامت. لم يسـأله حسـام عن غرضه من كل ذلك، وعن مغزى الكيس. صخـبُ فاضـل لا يفضـي في الغالب إلـى شـيء ذي قيمة في النهايـة. يدور برأسـه مـا يدور في كواكـب أخرى أحيانـاً. كان هو ووائل يناكفانـه. يذكّرانه بالشـيخ جارهـم، الذي كانت أمه تسـحبه إليه رغماً عنـه ليبصق في فمه وهو طفـل. كان فاضـل طفلاً مخبوصـاً مُفرَط النشـاط، ولـم تنفع معـه عملية دقّ المسامير بالخشبة التي ابتكرها الشيخ، فلجأ إلى البصق لعله يهدأ.

على الرغم من كل اختلافاتهما ظلّ فاضل دليل حسـام، في جزء كبير من حياتـه. في الحقيقة الاثنـان لا يفكران كيف تطورت العلاقة بينهما حتى آلت حياتهما إلى أن يترك الواحد للثاني القرار في أمور خاصة جدّاً بالآخر.

المسـافة المخصصـة لمقاعد الطائـرة ضيقة لا تتيح لفاضـل إلا التجاوز على الحدود من الجانبين؛ من أجل أن يتمّم مهمته. يستدير إلى حسام، ينظر أكثر من المعتاد بوجهه وينهمك من ثم بتمزيق الكيس. لم يكن التخلص من الشريط اللاصق سهلاً. تذكّرا في وقت واحد المحنة التي واجهاها بالتخلّص مـن جوازيهما في الطائـرة التي أقلعت بهما إلى اسـتوكهولـم لطلب اللجوء. أفلتَ فاضل ضحكة بصوت عالٍ وأطلق شتى الألفاظ النابية وأقبح اللعنات. كان من الاستحالة شفط أوراق جوازيهما الممزّقة في التواليت؛ ممّا استدعى التحقيق معهما من قبل طاقم الطائرة في كابينة القبطان.

أشارَ حسام إلى المضيّفة ولكنها لم تأتِ، مرّ وقت شعرَ به طويلاً. يرمقها من بعيد. ظلت منشغلة، بحركة دؤوبة مع الركّاب في مقاعد المقدمة. أزعجه عطشـه، عـدا عـن قتال فاضـل مع الشـريط اللاصـق وأصوات فـضّ غلاف الكيـس. فضّلَ خلال انتظاره متابعة أشـكال الغيم عبـر النافذة. محاولاته في كتابة الشِّعْر مستمرة. هذا القطن الذي يتوالد عن قطن، وخيط الشمس الذي يبزغ فجأة من شأنه أن يلهمه بقصيدة لو مُنِح الوقت وتركه الآخرون قليلاً.

عجيب ما يحدث له. ما إن يبتعد عن مكتبه في الشركة، حتى يشعر بشوق للانزواء والكتابة. يفكر ما كان يجب هَدْر كل هذا الوقت بشيء غير الشِّعر. تصله إشارات من بعيد. تجوس بفِكرِه أمكنة. المسافات التي تفصل ما بينها لغة كأنها تربض على ربوة. على الرغم من الانحباس الذي يعانيه بين فترة وأخرى، لم يكفّ سرّاً عن الكتابة، رغم إعلانه خلاف ذلك. زوجته، أحبّت فيه كتابته للشِعر في البدء. أبوها المحامي يقرأ الشِعر أيضاً، العمودي منه. ولكنها سرعان ما انشغلت بالحياة وبمجيء طفلتين لم يكن الفارق بينهما يتجاوز السنة. هناك على الدوام أمور أهمّ بكثير من مجرد هواية يمكن قذفها في خانة فراغ الوقت. هو ما ظهر له من خلف نظراتها. هما على وشك الانفصال الآن، وليس للشِّعر ذنب في ذلك.

بالنسبة إليه ما يثيره كان كل ما هو مقذوف هناك، في الوقت العاطل بحساب الآخرين، الفراغ المتروك له لكي يشكّله على هواه. حيث لا يمكن أن يتحقق شيء. وإلا لما تُرِكَ للبشر كل هذا الفراغ. ظلّ حسام الشاعر المبتدئ الواعد، كما عدّه الأصدقاء، رغم تعارض التخصّصين، التقني والأدبي برأيهم. نظر حسام نفسه إلى أمره بتخوّف المدمن الذي ابتعد، متحاشياً الاقتراب: ليس سوى كلمة حتى ينهار كل ما ابتناه.

تمار، حبيبته من جورجيا، وإن لم تفهم من لغته سوى آيات من القرآن لا تفقه معناها، بدت أكثر إيماناً به. وهي مَنْ أعادته إلى قصائده الناقصة بروح مندفعة لإتمامها. لكنها الآن بانتظار حسمه لأمور أخرى. انتهى عقد عملها وعادت إلى بلدها. الخطوة القادمة بما يخصّ مصيرهما هو مَنْ يجب أن يخطوها. وها هي الخطوة، تقترن بصوت تقريع كورالي وهو يفكر هازئاً من نفسه: تركتَ كلَّ شيء خلف ظهركَ وسافرت، عوضاً عن القيام بفعل شيء.

انتهى فاضل من العملية التي بدت مريبة لمن يحيط بهما في الطائرة. احتجّ حسام، رغم معرفته بطبيعة صديق العمر. ولكن فرط حركته في هذا الحيز الضيق يصبح أمراً غير محتمل. رفع فاضل جذعه قليلاً من مكانه على

الكرسي الضيق في الطائرة ليتناول منديلاً ورقياً من جيبه الخلفي مَسَحَ به يديه اللتين اتسختا بسبب فضّ ذلك الكيس الذي كان باطنه مُترباً. تبين أنه كان مُغلّفا أيضاً بورق أسمر ثخين تحت طبقتي البلاستيك.

أمسكَ فاضل الدفتر، قلَّبه وجهاً وقفا. تصميم المفكرة بدا قديماً جدّاً، على الرغم من أنها تحمل علامة تجارية تشير إلى ما بعد «السقوط». فلتَ لسانه بالكلمة. كلمات متداولة يحاول عبثاً تقويمها؛ بسبب الانتقادات التي تُوجَّه إليه. نجح كثيراً، إلى حدٍّ ما. هو نفسه يحسب أن الكثير من انفعالاته وحماساته أخذت منحى هادئاً بالتدريج، على نحو ما. لاحظ بنفسه ذلك. وهو يعزوها إلى الرجاءات الكثيرة التي خابت. هذا هو نهجه الساخر في حياته. كان يشير بالطبع إلى سقوط بغداد؛ لأنها تمثّلت بنظام رجل حقّق شهرة عالمية ونجومية انتهت في العام 2003. كان يدعو إلى فضحه، وفق تعبيره. لم يكفّ عن التعريف بما أسماه الكائن الوحشي، الذي ميّز نفسه فجأة هكذا، وشَحَذ قواه التدميرية واللانهائية لينتقم من كل شيء؟ كيف تعاظمت موهبة إشعال الحروب بهذه البساطة في ذهنه، حتى يجد فاضل نفسه وهو يكلّم نفسه. ملّ أصدقاؤه من هذه السيرة القديمة، ولكن رأسه ينفجر من دون شك، إن لم يجد من يكلّمه بهذا الخصوص، يوماً ما ستصيبه سكتة قلبية بسبب قهر الطاغية.

الرجل الدنماركي الجالس إلى جانبه رأى في توليد الحروب ما يعملق الدكتاتور، برأيه ذلك حدث ويحدث على مرّ الحضارات والأديان. يمضي هؤلاء في مَحْق الكائنات التي هي وفق قناعاتهم فاسدة، هذا بظنّ الثوري، أو البابا، والعقيد. لكن فاضل يمقت ردود الفعل الماصّة للصدمات عقلانياً. يكره التعامل مع المشاعر بالمكيال. يستعيض بدلاً عن «السقوط» بكلمة ما بعد الاحتلال. هناك مَنْ أطلق عليها فترة ما بعد التحرير، وأصرّ على التسمية لسنوات.

-هذه النقطة لا تلازم هذه البقعة فقط، ولكنها عكست انقساماتنا أيضاً.

قالَها لجاره الغربي، وختَمَ بإطلاق الشتائم.

كان حسام مرغماً على ترجمة ما يدور بينهما. رأى بوجه الرجل انتظاراً لتتمة في كل مرة، وقد عقّب في النهاية بشيء من التأثر والأسف وهو يهز رأسه:

-إنها مأساة، انتهت حقيقة بفضيحة كبرى لكل العالم.

لكن فاضل يبتعد عنهما بما لديه. يميل بكتفه فجأة نحو كتف حسام ويدفعها بقوة. كان ممسكاً بالمفكرة بين يديه، وبصوت جهوري ضاحك شاخِر:

اسمع، اسمع بربك...

تحطّ المضيفة عند رأسيهما فجأة، وتميل تجاه حسام في العمق لتستفهم ما طلبه. يبتسم للطفها ويكرّر بالمقابل طلبه بأدب كأساً من الويسكي. تهزّ رأسها وتستدير إلى فاضل بدورها لتسأله، ولكنه كان منهمكاً في الدفتر الذي بين يديه. يكتفي بهزّ رأسه نفيّاً من دون أن يرفعه صوبها.

فجأة انتفض حسام في مكانه. سأل بانتباه شديد هذه المرة عن مصدر الدفتر بعد أن وقع اسم وائل على مسامعه واضحاً؛ ما جعله يفهم في لحظة كلَّ ما دار. أطلق فاضل ضحكة. أخيراً تمكن من أن يثير اهتمامَ حسام ويخرجه من عالمه الكئيب. ابتعد بجذعه عنه لئلا تصل يد حسام إليه وتابع القراءة.

ههه. اسمع اسمع...

صفَق الدفتر بقوة. ألقى برأسه إلى الوسادة في ظهر المقعد: «يا رب السماوات...»، ولم يكد يتمّم كلامه بعد قراءته للجملة حتى اختطف حسام الدفتر من بين يديه بعنف. كان فاضل خلالها كأنه يكلّم نفسه، شوقه لتناول الصبور لا يوصف. الطريقة التي يعد بها الأهل هذا النوع من السمك! «يا إلهي...»، لا مطعم، مهما بلغت درجة رقيه يرقى إلى شواء التنور، تفغمه رائحة الهواء ذاك... «يارب السماوات! الخلطة تنطوي على سرّ يا حسام، أقصد الحشوة التي كانت تعدّها عمّتك فهيمة الله يرحمها، إنها ذات الطريقة، أليس كذلك؟»

كان فاضل يتناول الغداء مع فهيمة؛ عمة حسام، كلما زارَ البصرة. ذلك بعد عودتها النهائية إلى بيتهم في العباسية. كانت قد عاشت لفترة مع ساهرة؛

أخت حسام المقيمة في الإمارات. لكنها صمّمت فجأة على العودة ونفض الغبار عن أثاث البيت القديم. وقد أيّدها فاضل في ذلك. قالت إنها تود أن تقضي ما تبقى من العمر في البيت الذي يحمل رائحة الأحباب. عاندت. رفضت البقاء والإقامة عند ساهرة، والتخلي عن فكرتها. قامت بتأجير الطابق العلوي لقريبة لها مقابل إيجار زهيد جدّا، والاثنتان تعكزتا بعضهما على بعض، وأخذتا على عاتقهما الاعتناء بعضهما ببعض ومقاسمة المهام التي تتطلبها شؤونهما الصغيرة.

فهيمة التي لم تتزوج كانت بمنزلة الأمّ لحسام وأخته. قامت بتربيتهما لوفاة أمهما المبكرة. عاشت مع أخيها؛ والد حسام في بيته الفاره في زمانه في العباسية، وقد ملكت فهيمة الثلث منه وفق الشرع.

كلُّ ما كان يفصل بين الطفلين حسام ووائل هو شارع ضيق بين بيتين متقابلين، والعلاقة بين العائلتين تمتدّ بعيداً إلى الوراء، إلى القرية التي ينتسبان إليها في أبي الخصيب. ما بدا على وجه حسام من امتعاض كان يكفي لجعل فاضل يتوقّف. فهِمَ حسام كلَّ ما كان قد رآه قبل لحظات. كان فاضل في زيارة لأحد أقربائه في البصرة قبل شهر، وقد أخبره عن الأمانة التي يحملها معه لوائل الذي استقر في الدنمارك.

منذ العام 2003 راح فاضل يرمّم حياته بملء الفراغات التي يشعر بها وهي تغزوه ولم تكفّ عن ذلك مذ وَعى لها. كأن تكون هذه الزيارات القصيرة لمدينته، كلما كان ذلك بالإمكان. ولسوف يقع في ورطة مَنْ يجرؤ ويتحدث عن أحلامه إبان انتهاء حكم الدكتاتور. اندفاعه بالدفاع عن بلده ظلّ كما هو، حماسته الوطنية حماسة مراهق لم يغادر مدينته قط. وهذا كان مخططه الذي أطلعَ زوجته عليه. مغادرة السويد. العودة. لم ترفض بثينة الفكرة تماماً. هي بالأحرى التي لا تستطيع فراق بلدها، وليس هناك مَن هو أفضل مِن فاضل في تقدير مشقة ذلك، وما توصلا إليه بعد ذلك هو أن يكون لهما مستقران. كان فاضل يأمل في كل مرة أن يكون الحال أفضل.

أحلامـه لم يكن لها شـبيه. كثيـرون يعرفون ذلك. كان يريد أن يسـتغل وقت الزيـارات القصيـر بتعويـض زمن الهـدم الطويـل. رأى بلده كيف سـيتحول إلى جنة تعود إليها طيورها وأشـجارها ومياههـا. كل ذلك كان يُذْكَر من قبل الأصدقـاء للمناكفـة. ولـم يبقَ لـه، عاماً بعد عام، إلا القول يكفيه أنه يسـتمتع بلقـاء الأهـل، بتذوّق التمر والخضـراوات، إنه يعبئ رئتيـه بروائح الطهو في الأزقة القديمة، يدوس بقدميه الأسواق القديمة الخربة، ويصافح وجوه باعة أنشأ علاقة معهم.

ها هو يخون من ائتمنه على توصيل الطرد.

-كيـف تسـمح لنفسـك بهـذه الفعلـة؟ انتابت حسـام موجـة عارمة من الغضب دفعته لاختطاف الدفتر من بين يدي فاضل في الحال بيده المرتجفة. فوجئ فاضل بردة فعل حسام. ما هذه العدوانية؟ يستفزه أدنى تشكيك بوفائه لصداقاته، فكيف بصداقته لوائل. لم يرَ حسام بهذا الانفعال على أي حال من قبـل. تلفّت ليتأكد ممّا إذا كان الركّاب قد شـهدوا معـه الموقف. الرجل إلى جانبه غطّ بنوم عميق. حاول أن يوضّح لحسـام مقصده مستهجناً ما بَدرَ منه. لكن المضيّفة جاءت في اللحظة المناسـبة لتُناولَ حسام كأس الويسكي التي طلبها. سـقط المنديل الورقي المطوي الصغير أسفل الكأس في الطريق إليه فـي حضـن فاضل مما أزعجه. صـدرت منه حركة احتجـاج حيالها. واكتفى حسـام بحركة تنمّ عن شكره لها واعتذاره في الوقت نفسه. جرعتان متتاليتان حتى فرغت الكأس مع حبّة المهدئ التي أسرع في قذفها في فمه. تحاشى أن يلحظ ذلك فاضل الذي عاد إلى أسـلوبه نفسـه بالاستهزاء منه. اتهمه بإساءة الفهـم أولاً، وحتى هذه اللحظة، بعد كل هذه السـنوات، لم يكن له قصد من ذلك إلا التخفيف عنه، وإشاعة جو من البهجة، هما مقبلان على سفرة العمر التـي تحققت أخيـراً، ولن تتكـرر باقي عمريهما، وعلى حسـام ألا يفسـدها بجديته هذه. زجّه بالأخلاق، شـأنه على الـدوام، الأصول والإيتيكيت، كلها يجب أن توضع جانباً في هذه السفرة. ما شأن الأخلاق بقضية مثل هذه؟ هل كانت لوائل أخلاق بمقاطعته لأهله؟ وما قيمة الأسرار هنا، ونحن نعرف كل شـيء؟ دعنا نصلح شـيئاً. تنطلق كلمتا سباب ومن ثم دردمة. لم يفهم حسام كمـا يظهـر، وقد قارب على الخمسين كيف أن الحياة ذاتها تطالب البشـرية

بنظـرة أقل غلوّاً، بل أقرب إلى الاستهزاء. السـماء ذاتها عجـزت عن إيجاد حلول لإيقاف كوارث العالم والطبيعة، وما يقترفه البشر. ظلّ فاضل يضرب على ذراع المقعد ما بينهما. كان يتحدث بسخط كبير عن الطريقة التي يتعامل بها حسـام معه ويحذّره منها. أدار حسـام وجهه صوب النافذة معبّراً كالعادة عـن رفضه التام لكلام فاضل الفارغ. نهـضَ فاضل من مكانه منفعلاً، بعد أن فـكّ حزام الأمان برعونة، مدّ سـاقه الطويلة عابراً جثة الرجل النائم، سَـحَبَ الثانية من ثم ليترك مقعده ويتجه إلى مقدمة الطائرة.

فعل الويسـكي فعله فغطس حسـام فـي مكانه في مقعـد الطائرة من دون أن يتفوه بكلمة. انسَـحَبَ شـيئاً فشـيئاً عما حوله. انغلقت بغتة أذناه بينما كان يبحلـق في النافـذة. مشاكسـة طفلتيه تصل أسـماعه فتبتسـم روحـه. يختنق باشتياقه لهما. يودّ لو يقبّل الآن الأقدام التي كانت تتسلّقه وتدوس على رأسه وقلبـه وبطنـه. الأكفّ الناعمـة التي كانت تطبطب على صلعته. ستوب بابا، تصدر من فمهما بالإنجليزية. ينسى أنهما قد كبرتا حقّاً. اللعبتان اللتان شغَلَتا زوجتـه وأزاحتاه جانباً، صارتـا أيضاً أداتي حرب بيدها ويـده. حاول فاضل طـوال الوقـت جذبه بعيداً. كان متعاطفـاً مع الطفلتين، ولـم يرَ أمراً أسـوأ من محاربين لا يجيدون اسـتخدام سـلاح. تغيم السـماء ويدكن الضوء. يتسـلل افتقـاد شـفيف إليـه يجعله خفيف الـروح بامتلائهـا. ينظر إلى الشاشـة أمامه ليـرى الوقـت المتبقـي لوصولهما إلـى فرانكفـورت، محطـة الترانزيت قبل متابعة الرحلة من جديد إلى كوبنهاجن. يسحب نفساً عميقاً. سيجد عشرات الرسـائل المرسـلة من تمار، مئات القلوب النابضة والـورود. في ذلك عزاء لمواصلة السـاعات الباقية قبل الوصـول. كان تواصلهما معاً يتم بالإنجليزية وبالعربية المكسّـرة التي تعلّمتها من خلال عملها معه في «IBM». لكن عقد عملهـا لم يُجدّد فعادت إلى أمها. تترك له رسـائل صوتيـة تطرب لها روحه. برقتها المتناهية تقبض على قلبه. يرفع ذراعه المعطوبة بيده اليسـرى ليضعها علـى المسـند. تدبّ فيه حـرارة لقاءاتهما. مرّ الآن أكثر من شـهرين منذ آخر التحام بينهما، قبل عودتها إلى جورجيا. يشتاق إلى ملامسة جلدها الحامي. يدها وهي تجول وتتحسـس جسده تشعل به الرغبة كاملة جامحة. كان هناك

ما يلجم جسـده، ومحاولته اللجوء إلـى الكتابة، هي القوة الوحيدة ربما التي تنقذه من هذا الشعور الذي يرافقه ويقضي على همّته واندفاعه.

هـو بانتظـار إتمام إجراءات الطـلاق. والد زوجته محـامٍ عراقي بارع في مجاله وذائع الصيت. دأبَ فاضل على تسـميته بـ «المنتقم» لجبروته ودرجة تحدّيـه. لم يكـفّ عن التدخّل في حياتـه مع زوجته وتربيـة أطفاله. راح يلحّ بمطالبة حسـام بتغيير عمله من أجل كسـب أكبر يعدّه حسـام غير مشروع. لا تملك زوجته، وأم ابنتيه أن تخالف أمر أبيها في شيء. تلك حقيقة توضحت بمرور الوقت. يصيبه الخجل من نفسـه. مقت الوضع الذي كان فيه. حاصره ذلك الزواج الذي لم يصلح له، وتلك الكليشيهات التي يقدّمها العالم بطرق شـتى يومياً، عبر التلفزيون والمجلات ووسائل التواصل المختلفة الأخرى، لكن الإنسـان لا يدركها تماماً إن لم يختبرها بنفسـه ويقع في شـراكها. يريد بشدة الترفّع عنها، لكنه يقع في الخطأ ذاته كل مرة. لم يعرف كيف يتجاوزها ويتعالى عليها، حتى وصل حدّاً كَره فيه حياته.

تنبّـه حسـام إلـى أن الدفتـر الـذي تعـاركا بشـأنه فاضـل وهـو قـد انتهى خلـف ظهـره. سـحَبَه ووضَعَه بحضنـه. ألقى عليه نظرة سـريعة. «آسـيا نور للمقاولات»! جلد متغضن شـائخ للغلاف مشـبعٌ بالغبار. أوشـك أن يفتحه ولكنـه تراجـع لحظتها. عـودة فاضل المفاجئـة جعلته يفـزّ. كان يحمل بيده علبتي كولا صغيرتين. فتح الطاولة أمام حسام، فتح إحدى العلبتين ووضعها أمامه. رفع يدَ حسـام المعطوبة ليزيحها عن مسـند كرسيه. تركها تسقط على فخذه. جذبَ الدفتر من يده بضجر. استدار حسام كلية إليه وطلب منه برجاء إعادته إلى الكيس.

أعاد حسـام السـمّاعات إلى أذنيه وقد داهمه حزن قاتم دفعة واحدة. كان قـد تخيّل أنه بحبه لـ تمار قد وصل تخوم العالـم. إنها أوصلته الحدّ الذي لا يمكـن أن يتطلع فيه الكائن من بعده إلى أي شـيء. لـم يكن هناك من مطمح أكثر من ذلك. حبّ لم تغدقه عليه امرأة من قبل. نظرة لم تمنحها له امرأة من

قبل. دفء واشـتهاء مطلقان لم يعشـهما من قبل. رغبة وإقبال اختلفا عما مرّ من قبل في علاقاته السابقة. وقد ترك لكل ذلك أن يحصل في خضم المأزق الـذي كان فيـه مـن دون أن يوقفـه. حصل مـا حصل. تـرك للقصـة أن تبدأ، وتنطلق، ومن ثم تتطور، وأن يزيد ذلك من حياته ربكة أكثر مما كانت عليه.

ما الذي كان يبغيه صاحب المفكرة من تدوينه لتفاصيل يومه؟ فكّر حسام وقد اتكأ برأسـه جانباً إلى النافذة بعد أن أسـدل الستارة. كانت أصوات أليفة تتناهى إلى سمعه، موسيقى أغانٍ يعرفها، وصراخ أطفال في الشارع، كأنه في «الطارمـة» المرتفعة المطلّة على حديقة دار وائل عبر الشـارع في العباسـية. ضحك لطفلتيه. أثار طيفهما شجنه. ودّ لو يحملهما إلى هناك. أن يعود بهما صغيرتين جالسـتين هناك على مفرشٍ فـي الأرض. عليه أن يقرّر أيضاً مصير ذلـك البيت الفارغ. يطلـق تنهيدة. لم يرد على مكالمات سـاهرة، أخته طيلة الأيام ما قبل سفره. إنها أمور جِسام لا يقوى على حلّها، لولا طمأنة فاضل له على الدوام. قاربَ على النوم. لم يسـمع من فاضل سـوى أن الرحلة توشك على الانتهاء، والأفضل له ألا ينام.

2

دقّ هاتـف وائل النقّال. ظهر له الرقم على الشاشـة غريباً. كانت السـاعة تقـارب الرابعة عصراً. كعادتـه يهمل وائل أي اتصال غير معروفٍ. في الآونة الأخيرة صار يتلقى مكالمات من باكستان تدعوه للتبرع من أجل بناء مسجد، أو مدرسـة إسـلامية. عَلِمَ أنها مجاميـع تتتبّع أصحاب الأسـماء العربية أينما وجِدوا في العالم ليقوموا بالاتصال بهم.

دقّ لمرتين متتاليتين ترك بعدهما المتصل رسـالة صوتية. أجَّلَ الاستماع إليها لحين وصوله البيت بعد انتهاء عمله.

فاجأتـه الضحكـة التـي تصـدّرت الرسـالة الصوتية مـا إن ضغط على سـهم السـمّاعة. لـم ينتظر وائل حتـى وصوله البيـت. دفعه الزحـام أيضاً إلى فتح الرسـالة في أثناء قيادته. في الحقيقة لا زحام غالباً، ولا يشـتدّ في كوبنهاجـن إلا بموعـدَيْ توجّـه الناس إلـى أمكنة عملهـم وعودتهم. عَبَر بسـيارته البحيرات. الدرّاجات الهوائية تفوق أعداد السـيارات والمشـاة. عليه الانتباه. لكأنما طاردته تلك الإشـارة إلى الرسالة مذ وصولها. ولكنه تدرّب بمرور سـنواته على ترويض نفسـه. كان في نيّتـه أن يكون طائرة أو قطـاراً، شـيئاً أسـمنتيا أو معدنيّـاً، أداة، ليـس لديها خاصية الانسـلاخ عن جلدهـا؛ لكي لا يوسَـم بها. يكـره هذا التوصيـف. لكنه حقّـاً متخفٍّ بين كتل البشـر التي يتحرك بينها. ودّ أن ينشغل بشأنه الخاص ويترك للآخرين الثقافة والسياسـة والدين والمال. حتى هذه التسـمية، الانشـغال بالشـأن الخاص، يشـعر بها كبيرة، فهو لا يريد أن يكون له شـأن بأي شـأن، سـواء كان خاصّـاً أو عامّـاً. لكنه كمن عادَ من معبد قصي فـي جبال الهمَلايا من دون أن يكمـل دراسـته علـى يد أسـتاذه البوذي، ينسـى كل مـرة ويتفاعل بطريقـة لـم يتم الاتفـاق عليها. ينفعل لحادث ما، ينسـى فيفسـد صباحه،

مرة لعناوين صحف، مرة لتعليق عابر من زميل له في العمل، مرة لأنفاس عنصرية تفلت من بين الكلام في الشارع!

تلت الضحكة الرجولية التي سمعها في مطلع الرسالة الصوتية في نقّاله بضع كلمات روسية، مِن ضمنها اسم الفندق (دوم-توريستوف) الذي كان نزيلاً فيه مع أصدقاء له في موسكو. تلك العقدة الوسطية العجيبة التي غادروها وقد فرّقتهم بواباتها المختلفة في مطارها. كانوا متوجهين نحو الدول المانحة للجوء في زمن كان في العالم صوت للصوابية السياسية.

بضع جمل قصيرة بالروسية تعلّموها خلال إقامتهم هناك: ما سِعر هذا؟ أين يقع العنوان الفلاني..؟ ضحك وائل بسرّه مباشرة لكن سرعان ما تنازعته مشاعر متضاربة وهو يغلق الهاتف بغية مواصلة التركيز على قيادته. رأى في تلك الرسالة الصوتية كسراً لمجهوليته من جهة، واقتحاماً لخصوصيته. كأنه كان في سرحان حين انطلق الصوت فجأة. بدا غريباً جداً، من خلف قناع على الفم. لم يترك صاحب الرسالة اسماً. استطاع أن يحدّد هوية اثنين أو ثلاثة ممن كانوا معه. بدأ المطر بالهطول شديداً فجأة. هكذا هو صيف الدنمارك. هيمن صوت المساحات الأمامية وخفتت الأصوات الباقية. المتصل لم يفصح عن اسمه، والضحكة لم تُعِنْه على تذكّر أي منهما كان صاحب الصوت. لو لم يكن اسم الفندق لتَجاهَل بالطبع الرسالة. مَنْ يسمعها سيفكر أنها أحد تلك المقالب التي ينشغل بعض المرضى بها. لكنها جاءت بلهجة عراقية لا يمكن تجاوزها. حاول أن يقلّل من شأن الحدث. سيول المطر والشعور الفجائي ببعض البرودة جعلاه يقرّر أن يمرّ بطريقه لشراء بيتزا، فلا مزاج له للتسوق ولا لإعداد شيء في البيت ليتناوله هذا المساء.

تلَتِ الأولى رسالة ثانية بعد نحو ساعتين، عَرفَ وائل منها هوية صديقه الذي طلب منه الاتصال لترتيب اللقاء به في كوبنهاجن. ومن ضمن أشكال المزح الفجّة والصبيانية التي يعرفها، سأله إن كان لا يزال يرتدي الشورت القصير الذي يبرز ساقيه المثيرتين وعظمَتَيْ ركبتيه المروعتين. ميّز الضحكة واللهفة لمفاجأته: تلك المباغتة المرجوة كالعادة في نغمة صوته.

انقبضت نفس وائل بعد سماع الرسالة. أغلَقَ الهاتف.Power off. تناول

البيتزا على عجل. ابتلَعَ اللُّقماتِ الواحدة تلو الأخرى ونهض ليعدّ كوباً من الشاي. لم يستطع أن يبدّد شعوراً برفع كلفة زائدة عن الحدّ في صوت صديقه. ما الحدّ الذي ترتاح إليه؟ يسأل نفسه بانزعاج. أمرُ الزيارة مجهول. لو يفهم الغرض. كانت معرفة ذلك ستقود إلى استعداد أفضل لاستقبالهما ربما. فقَدَ هدوءه، واضطرب داخله. دار بين المحطات التلفزيونية من دون أن يعثر على ما يبعد تفكيره عن اللقاء المرجو الذي غطّى على بلادته. وكأن كل ما كان يفعله في حياته هو صون تلك البلادة من أن تُمسّ. كان السير بآلية روبوت في حياته تحقق له درجة كبيرة من المتعة.

عزلة! لا يحق لوائل القول إنه لم يخترها، وإن بدا ذلك كأنه ينطوي على عمق تفكير لم يكن عليه. كان أمراً لم يتوضّح إلا لاحقاً في حياته. حاجة عقل وجسد معاً، كمعادل روحي لفوضى المكان كما كان يحسّه. غادَرَ بيت الأهل ولم يعد إليه. كل ما فيه يكاد يصرخ من رتابته. جو خانق، لو أُطلِقت له الحرية بالنطق. حتى بدت حالات رفضه شديدة الغرابة بالنسبة إليهم في البيت. ألم ينشأ في البيئة ذاتها؟! شعورهم تغيّر إلى تقبّلهم له لاحقاً بالضرورة استناداً إلى الجينات الخاصة التي كانت تعود إلى جدّه. كما أشاعوا هو من أورثَه إياها.

حطّت الطائرة أخيراً في فرانكفورت. تسابَقَ الركاب للخروج من الباب بسبب ساعات الجلوس الطويلة على المقاعد الضيقة. حسام يسير بتثاقل إلى جانب فاضل. يتوازيان في انحدارهما من خرطوم الطائرة إلى صالة الترانزيت. الانحدار يدفعهما إلى ما يشبه الركض أو التدحرج الطفولي النزق. فاضل لكبر خطواته وثقله يتقدّم حسام، وقد تدافع بضعة ركاب؛ ما جَعَله في المقدمة، مُخلّفاً حسام في آخر المجموعة من الركّاب.

سيسبق فاضل حسام بالتأكيد. عدا الاختناق الذي كان يشعر به أثناء تلك الرحلات الجوية التي تدوم لساعات طوال، كان يشعر بجوع شديد، ولابد له من وقت كافٍ من أجل أن يجوب أنحاء المطار قبل أن يقرّر المكان الذي يختاره. إنها المهمة المفضّلة لدى فاضل التي يوكل بها أصدقاؤه إليه، لكونه من الذوّاقة للطعام. كانوا يُلقّبونه بملك المطابخ، ليس لأن مشواره انتهى

بامتلاكه لوكالة مطابخ، ويملك ثلاثة فروع ناجحة موزّعة في الخليج، ولكن لأنه كان قد عُرِف باعتنائه بتناول وجبات طعامه الصحي التي تشترط مزاجاً ومقعداً مريحاً، وأيضا مطبخاً يثق بنظافته.

كان حسام بالمقابل يشعر بصداع ثقيل وشيء من دوار بسبب ما تناوله من كحول. وهو خلاف فاضل بما يخصّ الطعام، لا يفهم بالمرة الأهمية الكبرى التي يوليها فاضل لذلك. كان فاضل مَنْ يختار له حتى الأمكنة التي يدعو فيها تمار في مواعيدهما الغرامية، ويتولى مهمة الحجز أحياناً، وإن كان في الكويت. تحسّس جيبه. فاضل قام بتصريف يوروات اقتسمها فيما بينهما من جانب الاحتياط. قد يتطلب البحث عن ماكينة سحب وقتاً لا داعي لتضييعه. يضيق حسام باحتياطات فاضل وحساباته تلك التي كانت من مسببات خلافاتهما المستمرة العابرة.

بدا كأن هناك أكثر من رحلة قد وصل ركّابها في ذات الوقت. وجبات كبيرة من مسافريها احتشدت دفعة واحدة عند حاجز التفتيش. حسام كان يلمح رأس فاضل من بعيد وقد وقف في أول الطابور. كانت هناك كابينتا شرطة في خطّين متوازيين. حدث تأخير ما في المقدمة ولم يتحرّك الطابور. ربما هم بانتظار فتح كابينات أخرى للإسراع بعملية تفتيش الجوازات. لم تمض دقائق حتى حدثت ربكة لم يُفهم سببها. طُلِبَ من البعض التنحي جانباً. تخطر فكرة جماعية أن ما بين الركّاب إرهابيّ فينتشر الفزع ما بين صفوف المنتظمين بالطابور. لربما متسلل سيعطّل من تفتيش جوازاتهم. تشرئب الرؤوس لمعرفة ما يحدث في الأمام. جلست أمهات على الأرض في مكانهن وقد شَعَر أطفالهن بالتعب، لكن حسام شعَر فجأة بقلبه يغور في صدره. تجاوز الركّاب في آخر الطابور وانطلق فجأة راكضاً نحو المقدمة. كان فاضل ممدّداً أرضاً. ودقائق الانتظار تلك التي لم يفهم الركاب سببها كانت من أجل أن تفضي بمجيء رجُلَي الإسعاف. كانا يحاولان إنعاش قلبه. تمّ غلق كابينات التفتيش ونقلها إلى مكان آخر. طالبت الشرطية التي انضمت إلى باقي الفريق بإفساح الطريق والتوجه إلى الكابينات الموازية. بعدها أعلن عن وصول سيارة الإسعاف لنقله إلى أقرب مستشفى.

مـرّت السـاعات بانتظـار مَنْ يخـرج مـن الردهـة ليطمئـن حسـام. كان بالانتظار في ممر المستشـفى الذي تمّ نقلُ فاضل إليه. علِم من الممرضة أن فاضل ما زال في غيبوبة، وسيوافيه الطبيب بشرحٍ أكثر تفصيلاً حال ما يفرغ. أدرك حسـام أنـه غيـر قادر على اتخاذ قـرار، أو إدارة شـيء. كان عليه أن يردّ على الاتصالات التي تعاقبت على الهاتفَيْن. الطائرة أقلعتْ، وعليه أن يتصل بالخطـوط لإبلاغهم بشـأن الحقائب التي سـبقتهما إلى كوبنهاجـن. لديه يدٌ واحدة عليها أن تديرَ كلَّ شيء. نقل حقائب الظهر من مكان إلى مكان داخل المستشـفى. البحث عن أوراق ثبوتية بين أغراض فاضل، وملء اسـتمارات شتى مطلوبة من إدارة المستشفى والمطار تخصّ حالة فاضل.

شـرب المزيـد من القهـوة. تناول المزيد من الحبوب المسـكّنة وشـحَنَ النقّالَين.

تهالـكَ في مكانِه على الكرسـي في سـاعة متأخرة جدّاً مـن الليل أخيراً. عمّ الصمت وخفتت الإضاءة وبرد الجو بعض الشيء في أروقة المستشفى. صعدت رائحة عرق جسده إلى أنفه. نزع الكاسكيت ليبترد رأسه الحار. ألقى به ثقيلاً إلى الوراء وأغمضَ عينيه. ارتخت أصابعه وسقط ما كان قابضاً عليه بين يديه. سـمع صوتاً ناعماً يخاطبه. تقترب أنفاس دافئة توشـوش في أذنه. يدٌ تمسـك بذراعه بحنان. لمسة امرأة تمسّد جانب ذراعه، كتفه، وتصعد إلى رقبته. تبيّن أنها الممرضة التي اسـتلمت الخفارة وهي تحاول إيقاظه. تحرّج مـن وضعه. حاول أن يتماسـك وينهض من مكانه. وجدوا لـه مكاناً للمبيت حتـى الغد، ريثما يتبينون الحالـة الصحية لفاضل. غائب عن الوعي. لم يطرأ تغيّر في حالته، ولكن من الضروري تواجده بالقرب.

فـي الصبـاح اجتمعوا بـه. بدا الموقف جديـاً بأقل الكلمـات. قالوا له إن اللغـة وصوتهـا ضروريان جدّاً. لم يدر بباله غير الهـرب، أو النحيب. وما إن نهض الأطباء حتى هرع إلى أقرب حمّام في المستشـفى. جثا في مكانه على الأرض ونشـج. غسـل وجهه وتمخط، ثم غادر الحمّام مسرعاً، حين طرأت الفكرة فجأة بباله.

حَمَلَ المفكرة معه إلى غرفة العناية المركّزة وسحبَ له كرسيّاً لصقَ سريرِ فاضل.

اسمع فاضل، ستحبّ هذه بربّي...

أعرفُ أنكَ تطلق ضحكاتكَ في سرّك. ولكنك كنتَ تحبّ أبا وائل وتتواصل معه. لا أحد مثلك يجيد تقليد لهجته وطريقته البطيئة وصوته المتهكم في الحديث.

ستطبق الدفتر لتسألني ضاحكاً: لماذا بربّك يكتب خبراً مثل هذا؟ تلك هي الأخبار التي من شأنها أن تملأ قلبك بالحبور، وتتفننّ بسردها على طريقتك المفبركة كل مرة. حنينك كان مميزاً لكل تلك القصص المحلية القديمة والمملّة التي قد تكون الوحيد من يستمتع بالإنصات لها. أفهم فضولكَ بالطبع حيال هذه المفكرة. كانت صيدك الثمين. لك الحق فعائلة أبي وائل بالفعل كتاب موصد. ولكن عليك أن تعترف بأنك دخلتَ بيته وكنتَ بمنزلة ابن له رغم كل شيء. كنتَ شيعيّاً وهو سنّي، وكنتَ شيوعيّاً وهو من أعداء الشيوعيين، وأنتَ من تبعية إيرانية وذلك موضوع لا جدال حول بعده تمام البعد عنه. بالله عليكَ، كيف للعالم حينها أن يتجاوز فيك كل هذه العلامات الحُمر ويفتح لكَ بيته؟

يرفع حسام ذراعه بيده اليسرى وهو جالس عند حافة سرير فاضل ليضع يده على يد فاضل الهامدة. ألبسوا فاضل ملابس المستشفى، الشيء الأكثر تناقضاً مع شخصيته وهو مسجى على السرير. يسقط رأس حسام على اليدين بغتة وينخرط بالبكاء. يكفكف دمعه ويفتح المفكرة من جديد. كلُّ ما كان لا أخلاقيّاً كان محل نقاش ما بينهما. كان فاضل أكثر جرأة منه في ذلك، لا عن ثقافة ولا عن وعي كتب، ولكن عن صدق وطيبة وانفتاح امتلكه فاضل بالفِطرة. تجاوز حسام في تجربته الكثير بفضله. لم يكن فاضل ليوافق على شيء إن لم يكن ينسجم مع قناعاته الذاتية.

اختض بدن حسام حين باح له بحَمْلِ بثينة الذي حدث في الأشهر الثلاثة

الأولـى من تعارفهمـا. بثينة حبيبته التـي صارت زوجته لاحقـاً. اهتزّ للخبر. كان كل مـا هَمّـه هو طمأنة الحبيبة لئـلا ينوب فاضل أدنى سـوء جراء ذلك. اشـتبكت الأمـور عليهما في البدء. بدا فاضل لحسـام هادئـاً أكثر مما يجب. انفعَلَ ووبّخ وكَفَر. خشـي أن تفقد الأم رشـدها لو علمت بالفضيحة فيصيب فاضلَ شرٌّ من عائلتها. لكنهما سرعان ما استعادا هدوءهما، واتفقا على حلّ.

تمـار كانـت تثير رغبته، لكن الجنس لدى حسـام لم يكـن في علاقته مع المـرأة لغـة تعبيـر صافية عن الحـبّ، كما لـدى فاضل. الجنس كان جنسـاً. رأى مـا بين فاضـل وبثينة الحبّ الذي ينفي دواعي تبريـر ما ينتج عنه. كانت البراءة الصرفة لصيقة لكل ما دار بينهما منذ اللحظة الأولى. مرت السـنوات وظلت بثينة تسـتقبل فاضل بوجهها المتهلل، وتبخّـره عند الباب في وداعها لـه. كانـت حقّاً مفتونة به، ولـم يكن ما يقوله فاضل ادعاءً منـه. ما بينهما كان غراماً، اسـتمر، تعمّق وتطوّر إلى ودّ واحترام في جانب كبير منه، لكنه الحبّ بكل أشكاله.

- أليس هذا ما قلته؟

ينظر إلى فاضل. يودّ لو يسـأله عن الطريقة المثلى التي ينقل عبرها الخبر إلى بثينة. لكنه يتراجع ثانية، بانتظار تصريح الأطباء الذي تأجّل من جديد.

تدخـل الممرضـة فجأة. تتوجه مباشـرة إلى النافـذة لتزيح عنها السـتار. يدخل ضوء غائم يفضح عراء الغرفة واستبداد المرض. تحصل الأشياء بغتة. واقع اللحظة صعب على الاسـتيعاب. يرفع حسـام عينيـه إلى حيث تتحرك. أمـام غرابـة المـكان، الأدوار، التوقيت ينبثـق وجهها جديداً وديعـاً. صوتها بالإنجليزية طالع من غيمة الضوء:

-المطر لـم ينقطع طوال الليل، وحتى هذا الصباح.

تسـري رعـدة فـي جسـد حسـام. يرقبهـا وهـي تفحـص جهـاز التنفس الاصطناعـي إلـى جانب السـرير. تنظر في شاشـة المونيتور. تطـلّ في وجه فاضل. تمسـح بالمعقم ما لمسته وتخلـع القفازين المطاطييـن لتلقيهما في سـلّة المهمـلات فـي الزاوية. سـتطلب منـه مغـادرة الغرفة بحضـور زميلها

الممرّض بعد قليل. سيقومان بتحميم فاضل في مكانه وتغيير شرشف السرير. تبتسم وتستدير إلى عربة صغيرة تعبث بأدواتها. ينهض حسام في الحال مستسلماً لإحساسه بالغموض الذي يدور من حوله. ولكنه لا يقوى على السؤال فيغادر.

يتوجه إلى الخِزانة التي أودعَ فيها حاجياته قبل أن يدخل الحمّام. نبتت لحيته ووجهه قد ضربه تسونامي، كان فاضل سيقول له.

جلس في الممر أمام ماكينة القهوة، ولكن عليه أن يتناول مع القهوة شيئاً ما قبل الاتصال ببثينة. لا يمكنه تأجيل الخبر أكثر من ذلك. لمَح ماكينة بيع أوتوماتيكي في إحدى الزوايا. أنواع من الشوكولاتة والعصائر والبسكويت. قدّم شاب له المساعدة في استخدام الجهاز ليأخذ دوره من بعده. شَكَره وتعجّل بحمل حقيبته وفَسَح الطريق.

كاد أن يتقيأ حال مَضغه قطعة البسكويت. بحث عن سلة قمامة من حوله. بصقها. احتسى القهوة بعدها ونهض إلى أقرب حمّام. بعد جهد أفلح بالعثور على علبة الحبوب المسكّنة وشريط الحبوب الخاصة بالمعدة. وضع أولاً واحدة تحت أسنانه، كسرها ثم سحقها بين أضراسه. شرب الماء من ثم، بعد حبتيْ مسكن الصداع وهو يحني رأسه ويقترب من الحنفية. كان ينشج بينما الماء ينهمر.

اتصل بـ تمار أولاً. تدفّق الدم في الأوردة ودقّ قلبه سريعاً، ما إن دقّ هاتفها. أوشك أن يغلق الهاتف. طرأ بباله أن يلغي المكالمة. قال لها في آخر لقاء إنه غالباً يخشى المغامرة في البوح عن مشاعره. وحين سألته مستفهمة. قال لها إنه يخشى أن تفقد ولو القليل من زخمها! لم يفهم مبالغته في تلك الإجابة حينها. لكنه من جانب آخر كان يرى الأمر صحيحاً. أن تفسد الأشياء ربما بمجرد التعبير عنها، لذا يستعيض عنها بالكتابة. وهو على يقين من إحساسها بما قال رغم معرفته بصعوبة توصيل ما بينهما أحياناً. كلاهما يرفض الاعتراف بهذا العائق. كلاهما يحاول تذليل العوائق، لكنه كان أقلّ

همّة منها في ذلك. كان، شأنه على الدوام، يفقد حماسته حال مصادفته لما لا يتوقعه. قرّر في البدء مقارعة الظلم الذي بدَرَ من والد زوجته، لكنه سرعان ما اكتشف أن تلك كانت معركة لم يرغب بشنّها، ولا الانجرار للمشاركة فيها. الثمن كان باهظاً. والدها اعتبره غريماً له. لم يستخدم سوى مصطلحات لها علاقة بالغزوات والغنائم، بالانتصار والدحر والهزيمة. من النوع الذي لا يعترف بالخسارات. سيجبره على الانسحاب والتنازل عن كل شيء، حتى في زيارة ابنتيه، وقد يترتّب على ذلك أيضاً دفع مبالغ طائلة، فوق التي تكبدها حتى اليوم للمحامي.

تمار! ألو، سَكَتَ. ما الذي سيقوله، عن حبّه لفاضل، ابنتيه، لها؟ فاضت روحه بمشاعر شتى، حين سمع صوتها الملهوف وهي تصيح: حسام، أين أنتَ؟

3

حيـن انهـال الفـأس على جـذع آخـر نخلـة، كان ذلـك الأب يجلس في الصالة مثبّتاً عينيه أمام جهاز التلفزيون، يتابع مصير الشباب في لعبة المتاهة. المسـبحة تكرّ بين يديه والسـيجارة تحترق، ولا مِنْ منفضة لتُسـعِفَه، أو أحد ليطفـئ الحريق المتواصل فـي زاوية فمه. لم يعد العالـم يعنيه. غادر كل من ولديـه وائل ونائل. لم يبـقَ معه غير ابنته الوحيدة التـي توفي زوجها بحادث سـير. لم يبقَ لها غير ابنها. عاشا في الملحق الذي يعود للبيت، وقاما برعايته فـي كبـره. لكنهمـا اكتشـفا أن الأب كئيب، إن لم يسـرع أحدٌ مـا ويبعث فيه شيئاً من بهجة.

أشـياء ميتة، افتقاد كبير، وتهديد مسـتمر يجعل حتـى اليائس منزعجاً من حياتـه. كان الأب، هـو ذلك الكائن الذي كـفّ عن أن يكون مُعينـاً وذا نفع، ليكـون لـه مكان حقيقي من بين الجمع. عانى من وحـدة حين لم يعد له دور غير البقاء. الكبار، كما كان فاضل يراهم، منزوعو القدرة على قول كل ذلك، يلزمـون الصمت في آخـر أيامهم. وربما فاضل هو الوحيـد من بين أصدقائه مَنْ كان يؤمن بِقِلّة البركة في البيت لفقدانهم.

أخذ حسـام يقلّب المفكرة ذات الغلاف الجلدي الأسود. لم تكن مفكرة العام نفسه.

اسمعْ يا فاضل،..

ولا تنس أن كل ما تشتاق لسماعه هو لأنك كنت تود عيشه طيلة حياتك، أو طيلة ما عشته من حياتك في البصرة، أقسم لكَ لو كنتُ مكانك لكنت شطبتُ على هذا الجزء المعذِّب من حياتي. ما هذه العاطفة وهذا الوله، هيا انهض يا فاضل، أستحلفك بروح أمك، يدنو ليهمس لئلا تسمعه إحدى الممرضات.

اسمعْ،...

ذلك الصوت لا يمكن أن يكون إلا تهكمياً لاذعاً، لو أطلق له العنان، وإن جاء خافتاً، حتى في شكره وصلاته. قد اشتدّ بالخفوت قليلاً قليلاً. تخيل حياة هذا الرجل الذي كانت له هيبته حين كنا صغاراً في البصرة، هل تذكر؟ بالطبع، لكَ ذاكرة فيل! كانت أناقته مرعبة في شبابه – تلك واحدة من المقولات التي تردّدها عمّتي وهي تراقبه من شباك غرفة المعيشة مارّاً ببيتنا. أخبرتني عمّتي بأن قامته الطويلة قد انحنت تماماً وشاخ، هذا الذي كانت تدعوه بـ «كِنْگ جورج». – ما أدراني، ربما ليقول إنه صار طيّعاً! لم تكن الحياة تظهر رأفةً لو لم يكن يظهِرُ لها بالمقابل شيئاً من مرونة. كان المشط الصغير بلون الكهرب ناعم الأسنان لا يفارق الجيب الخفي لسترته، يمرّ رئيفاً بخصلات بيض خفيفة مُسرَّحة على الدوام إلى الخلف. كيف أخذت حياته هذا المنحى؟

هل تذكر؟

هل تسمعني فاضل؟

حسام يحاول أن يقترب أكثر بجسده فيعبر حاجز السرير نحو رأس فاضل.

اسمع بروح جدّك...

كان فاضل في زيارة لحسام وعمّته في دبي، قادماً من البصرة حين أخبرهما بوفاة والدة وائل. وصف لهما الحال الذي كان عليه بيت وائل. اغتمّت روحه لمرآه. اقتطع أبو وائل القسم الأمامي منه، مع الحديقة والنخلات، وقام بتأجيره ليعينه في حياتهم. كان تدبيراً اقتصاديّاً، لا غرابة فيه أو دراما في الموقف. لكن فاضل رأى المدينة أقفاصاً متراكبة بعضها على بعض، أجهزَت على أرواحهم.

تلاشت تلك العائلة التي ناصرت الملك، وتوارت بحضور البعثيين، ومقتت الشيوعيين. فقدت أملاكها وثروتها وضاع اسمها أخيراً.

– لم يبقَ من ماضيها غير العَجرفة المفتعَلة. عقَّبت عمّة حسام، بلهجتها الهجّاءة المعتادة على ما قاله فاضل بنغمته المتأسّفة. وعوضاً عن عيش لحظة سماع الخبر المحزن لفترة أطول، راحت العمّة تتحدث عن تاريخ تعالي هذه الأسرة واستماتتها للحفاظ على وجاهتها الاجتماعية رغم فقدانها لها.

المفكرة للعام 2006 والتدوين يعود إلى العام 2008. ذلك ما اكتشفه حسام في أثناء تصفّحه لها. كان الأب يشطُبُ على التاريخ، ثم يُصحّحه في أعلى كل صفحة بخطّ يده. نسقٌ حياتي بالتقتير قد جبلت العائلة عليه. لا الحروب ولا الحصار من اجترح ذلك. يتابع تصفّح المفكرة وحيداً في ممرّ الردهة بالقرب من غرفة فاضل. تبتسم روحه المتألمة ويسرح فكره. استحضر قامة الرجل الذي يتركُ آثاره في ثنايا مفكرة مثل حرثٍ مُرهف. أحسّ بالمفكرة جسداً، عامَله كأنثى ممتلئة، مُقاومة تارة، ضعيفة مستسلمة تارة، حتى شريطها الساتان ذو اللون البني، الفاصل بين الصفحات تحوّل إلى «كركوشة منفوشة» تفتّلت خيوطها لكثرة الفَرك والسَّحْق. عادةٌ تمُتُّ بصلة إلى حاسة اللمس لديه. حساسية عالية تتكثّف في لحظات محدّدة فتُعرب عن حاجتها إلى شيء ناتئ حادّ تفركه أطراف الأصابع!

ما جَمَعَ عائلتي حسام ووائل علاقة جيرة قديمة تعود الى ما قبل انتقالهما من أبي الخصيب. وقد قوّى مذهبهما السنّي أواصر تلك العلاقة، وإن كان هذا عاملاً مجهولاً بالنسبة إلى طفلين مثل حسام ووائل. تجلّت الأواصر في أبسط صورها، أن يلتقي الآباء في ذات الجامع كل جمعة، والأمهات يذهبن لذات المقرئات في الفواتح والمولود.

منذ متى ضاق وائل بالمدينة وأهلها؟ لطالما تساءل حسام في سرّه. كانوا أطفالاً سعداء، ثم صبياناً نهمين للركض والكرة وعبور الأنهر الصغيرة في بساتين نخيل أبي الخصيب، ثم مراهقين، رغم روح التضامن لديهم، يجهلون كيف يخفّفون من هول ما يتزايد من أعراض مراهقة كان لها طابع هجومي على البشرة والصوت والشَّعْر واليدين.

فاضـل دخل ثالثاً بينهما، يكبرهما قليـلاً، وكان دخيلاً في البدء. ضعفت سـلطة وائل على حسـام، حتى تغيّرت طبيعـة العلاقة بين الثلاثـة، بعد قبول وائل في جامعة بغداد، اقترب فاضل من حسـام خلال فترة الدراسة الجامعية في البصرة. وقد أكمل حسـام الدراسـة، بينما تمّ توقيـف فاضل الذي انقطع عنهـا بعـد قـرار فصلـه. لم تعـد الحال كمـا كانت. تغيـرت العلاقات قسـراً وأخذت مساراً لم يكن أحد قد خطّط له.

كان وائـل قـد اختـار الابتعاد لمجـرد أن ينتقل إلـى بغـداد، وإن لم يكن يرغب في دراسـته التي اختارها. كان الشـيطان قد همس بأذنه فجأة ذات ليلة ففزّ في مكانه طَرِباً لإلهامه بالفكرة. ابتعد عن كل شـيء واسـتمتع بمجهوليته وغربته. كانوا قد أطلقوا عليه مسـبقاً لقب الأجنبي، لخبرته بالأغاني والفرق الموسيقية الغربية، وكل ما يصدر من جديد بشأن ذلك.

أسـماء أقارب كثر، أسـماء جيران أيضـاً، إناث وذكـور، كذلك أصدقاء، أطباء. الأب يذكر حتى أسـماء العمّال والحرفييـن من المصلّحين والبنّائين، والفلاحين أيضاً، وغيرهم ممن كان يأتي ليقوم بمهام منزلية متفرقة في البيت لقـاء أجر. يبتسـم حسـام وهو يقلّـب الصفحات، لا يجـد فيها مـا يثير، ولم تكن تلك هي ابتسـامته، إنها ابتسـامة فاضل لكثرة الأجهزة المعطوبة وتكرار تصليحها. الوفرة التي عاشها فاضل خارج العراق لم تبعده عن روح المدينة التي اشـتهرت بكوارثها. يعشق فاضل كل ما هو مطعوج وبالٍ. عاد ذات مرة ومعه إبريق شـاي تمّت خياطته؛ مما أثار ضحك الجميع من حوله، كأنه كان قد عثر على لوحة لفان جوخ في سوق الجمعة للمستعمل.

وكأن تلـك الأعوام التـي قضاها فاضل في المنفى لـم تكن. انمحت من حياتـه، لم تغير فيه شـيئاً، وفـي الظاهر لم تترك أثراً. لـم يمكن لها أن تُحدِث قطْعـاً فـي الذاكـرة، ولا المشـاعر كذلك. لم يكن فـرداً، كان يفكـر ويتحرك كمجموعة، يأكل ويشـرب ويشـتغل. والحياة وفق طبيعته لا تسير إن لم تكن بتلـك الطريقة التكافليـة، التعاونية والـروح التضامنية. ظلّـت ذائقته بالطعام

ذاتهـا، لم يقرب من وجبات اللحـم البارد الأوروبي، ولا الطعام الصيني. لم تتغيـر طبائعـه، ولا الكثير من أفكاره. كرّر مواويله بشـأن الحنيـن، إلى الحدّ الذي أثارَ ملل الجميع. ملّوا انتقاده للحضارة الغربية، كرهه لذلك الاستهلاك الذي لا يمنح الفرد الفرصة لإنشـاء علاقة مع أشـيائه، مثل الطاولة، الثلاجة، الشرشـف والوسـادة. ولعل سـبب عودتهما، هو وبثينة من السـويد، لم يكن بسبب إصرارها على ذلك، ولا بسبب القوانين السويدية التي كان عبثاً يبحث عن منطق فيها ولا يفهم. كان مسـتقّلاً اقتصادياً، لا يسـتلم دعماً من جهة ولم يكن عضواً في نقابة، من المستثمرين الصغار الذين لا شأن للدولة بهم. لكن لوعته كل تلك السـنوات كانت لانقذافه بعيداً في أقصى العالم الذي شـعر به صقيعاً نرجسيّاً.

حنينه إلى تلك البقعة مرضي، رغم فقدانه لأخيه الذي أُعدِم مع اثنين من أبناء عمومته، وتعرّضه هو نفسه للتعذيب. ذلك كان أمراً لا مجال للمجاهرة بـه، وبالكاد يلمّـح لتأثيرات ما تعرّضت لـه العائلة. ورغم أنه ترك لنفسـه أن تغرقَ في نوسـتالجيا عُرِفَ بها مجتمعه لم يغادره مرحه، مناكفاته. يهيمن في حضـوره عبـر نكاتـه ومُلَحاتِهِ. وهو بالفعـل لا يكف عن تكرار سـرد مقالب عاشـها مع أصدقـاء ومواقف مضحكة مرّوا بها. كان يسـتغل كل فرصة، بعد أن تغير النظام، ليشـغّل محرّك سـيارته وينطلق بزيارة ليوم أو يومين لأقربائه وأصدقائه في البصرة. كان يبتدع له سِـرّاً طرقاً جديدة للمزيد من الاسـتمتاع برِزْقه، في كل زيارة.



4

ذلـك ما تفعلـه الحروب. التوقيت، ثانيةٌ واحدة كانـت بينه وبين الموت. حسـام الـذي أخطأتِ الرصاصة قلبـه صار في عداد معوقي الحـرب. أعادَتْه معطـوب الـذراع فـي أول معركـة لـه. السـماء ليلتهـا أمطرتهـم برحمتهـا. رفضـت عمّته النـوم إلا أرضاً لتظل راكعة تصلّي شـاكرة ربّها. قـد أعاد إليها ولدهـا سـالماً في فترة لم يخلُ بيت مـن عزاء. لم يُصب البيـت إلا في جانبه الأيمـن، كما قالـت. ورغم خطـورة الوضع آنـذاك قام فاضل بنفسـه بتأجير سـيارة للسـفر إلى كربلاء والنجف، رافـق خلالها العمّة للزيـارة. كان عليها أن تفي بنذرها في زيارة الأئمة. ومن هو الأكثر تعاطفاً غير فاضل في مواقف كهـذه؟ هبّ لنجدتها مدفوعـاً بجوعه لحالة الانبهار بالمـكان المقدس التي تصيبهـا وتصيبه، ما إن تحطّ أقدامهم داخل الحضرة. الضوء المتلألئ، النور بانعكاسـاته البلوريـة التـي تخترق الـروح لترتفـع. الرائحة! ذلـك ما يجعل مشـواره المحفوف بالمخاطر هديته لما يغمره من شـعور بالرضا والاكتفاء. كان ضليعـاً فـي مغازلـة النسـوة والعجائـز، ينـال البركـة ورضا السـماوات بمجالسـتهن. وكان قـد وعدَ العمّة فهيمـة بزيارة مرقد السـيدة زينب، ومقام السـيدة رقية ذات يـوم. يحزنه أن أعمارهـم قصيرة، يمضون سـريعاً، وليس كالمسـنّين في أوروبا. ينظر بأعينهم، يلمس جلد أيديهم، يلتقط لهم الصور، ويتفقّدهـم في زياراته، جالباً معه الهدايا والأدوية والمراهم التي يحتاجونها. كان يحفـظ القـرآن ويعلـم بأمـور الديـن. يدخل في جـدل معهم فـي البيت ليفضـح جهلهم بسـنّتهم عـن طريق المزاح. عمّة حسـام ورغـم حبها الكبير لعلي والحسـين، لم تتعدّ معرفتها ذكرهما بالصلاة والسـلام عليهما، وطهي هريسـتها الشهيرة يوم العاشـر من شـهر محرم. يضحك على الدوام، ينصح أصدقـاءه، وبقناعـة تامـة أن يتركوا الناس تذهب قدر ما تشـاء فيمـا تؤمن به

وتتشبّث. يجب أن لا نقول للثكلى المضمّخة كفّاها بالحنّاء إنّ قبة عبد الله بن علي، سلام الله عليه ليست سوى قبر لضابط تركي. وحين غادرت العمّة لتقيم عند ابنة أخيها لحق بها فاضل إلى الإمارات، من أجل أن يأكل من طبخ يديها عبر زياراته. بركة! لم يكن في ذلك أدنى مبالغة في قوله.

كانت الحديقة التي تعود لصاحب المفكرة نفسه، مكان لجوئهم أيام المراهقة. اختفت. اكتَسَحها الأسمنت الذي جاء بالدنانير المهلهلة المتعرّقة التي تسدّ احتياجات البيت وتُبلِّط الرصيف أمام البيت. الوريث الشرعي لنخل البصرة يقطع بفأسِه جذع آخر نخلة، من دون أن يتأخر كثيراً. الفأس وهي تنهال على الجذع تؤكد له أنّ ما عاد بالإمكان المبالاة أكثر. رغم ذلك وكأنه يكره كلمة موضوعية هذا الشيخ. ما له والموضوعية؟ مَن ذا الذي يقتنع بأنها الصورة الأمثل لرجاحة عقل العالم!

إنها حالة تلوّث شبيهة بالتي أصابت حسام بانتقاله إلى الإمارات. كان حسام محض آلة من حديد، مذ عاد وتزوج. ما الذي تدّعيه يا فاضل؟ ما هذه المبالغة بعواطفكَ؟ ما الحياة هذه التي تبشّر بها في شرقنا؟ أين هي إنسانيته وإنسانيتك؟

كان فاضل، لسببٍ ما قد يعكر صفوه ويقلب له مزاجه، يتحول من الأخ الكبير الحاني إلى الأخ الأكبر الرقيب والطاغي، فلا يرأف بحال أحد. ذهب بعيداً في اعتراضه على علاقة حسام بحبيبته تمار. لم يجد فاضل حيال الموقف حلًّا أنجع من عزل صديقه حينها عن مصادر المرض. حاول، من خلال إقناع تمار بالابتعاد عنه، أن يعينه من أجل أن يتآلف مع وضعه، وأن يبذل جهداً في إنقاذ عائلته. وقد استاء حسام من تصرُّفِهِ، لأن ذلك قد تمّ من خلف ظهره.

فاضل إلى جانبه لا يردّ، ولكنه قد يكون منصتاً هذه المرة. فاضل المصاب بفرط الحركة يتحول بغتة إلى جثة هامدة، ولا يترك له مجالاً ليصدّق ما يحصل.

ما بها المبالغة يا حسام؟ تكبر الحاجة إليها مع العمر، وبقوة لتؤكد إحساس هؤلاء البشر بشيء ما. ملمس جلد ناعم جدّاً، غبطة إنسان عميقة، ضحكة طفلة، الألم وهو يهوي بهم إلى قاع سحيق.

حسام يكاد لا يتذكّر الكثير الذي يخصّ هذا الأب في المفكرة، لولا تلك الجُمَل التي يقتبسها فاضل على الدوام في أحاديثهم للتقليد، وتلطيف الأجواء. المسبحة وهي تكرّ في يده الضخمة. دخان سيجارته المتصاعد، طريقة تمسيده لشعره من الجانبين. كان يسحب السيجارة من العلبة، يشمّها باشتهاء، كما لو كان يتشمَّم عنق امرأته، قبل أن يعيدها إلى مكانها أو يشعلها!

بشرفك فاضل اسمع...

وكأنه اعتراف فَرِح، رغم ذلك بصوت مُدان! صوته العالي يعود للعوائل الخصيبية تحديداً، نسبة إلى أبي الخصيب، التي انحدروا منها. طوّر الفلاحون بمرور الزمن حنجرة متميزة تتيح لهم التواصل فيما بينهم من عمق البساتين التي تمتد لهكتارات. كما فعلت الزرافة مع عنقها، وفق دارون. عند مناداة بعضهم تصل أصوات رجالهم خلف الأسيجة الطينية، ونسائهم عند الشط، إلى أكواخ الفلاحين، إلى الشارع المرشوش بالنفط الأسود، وقصور الملاّكين، وهم يتبادلون الخطاب والرسائل القصيرة، كلٌ من مكانه من دون الوسائل الحالية.

المفاجئ هو ما كان يعنيه الطقس لديه عبر تدويناته. بدا الأمر مدهشاً. شدّة حضور المناخ في المفكرة. من الصعب تصوّر أن أحداً ما في تلك المدينة البعيدة الساكنة سيكون معنيّاً بتسجيل أحوال الطقس كل يوم. هذا ليس استنتاجاً شخصيّاً، وليس بسبب انشغالات حياتية أرغمتهم على إهمال ما تبقى. ابتعدَ الطقس الحالي عما قالته الكتب المدرسية الأولى. اقتصر في النهاية على فصل واضح لا غير، صيف. وعلى رغم كل ديكة الريح التي تعتلي البيوت، لم يأبه أحد في يوم ما إلى اتجاهات تحرّكها، أو جهة استقرارها! تتملّك حسام رغبة حارقة بمسك القلم لكتابة شيء.

تلـك الأخبـار المتقشّـفة العطِشـة تجعلنـا نتخيـل انطـلاق العالـم برمته مسـتغلّاً بعزيمـة شـديدة البـأس الدقائـق والثواني لمـلء كل جـرار الكون، الإسـراع في ري بسـاتين العالم، قبل أن يضحك السيد مقهقهاً بصوت عالٍ: انتهى! انتهى والصابون في العينين، والبراز في مؤخرة الرضيع، وحبّة الدواء تسقط من اليد!

5

الحظ! حسن الطالع، أم سيئه؟! لأي غرض أو دافع سيتكفّل أحدهم بتسليمه المفكرة؟ هي يقيناً ليست فكرة الشيخ العجوز، صاحب المفكرة الذي داهَمَه المرض فجأة ولم يمهله كثيراً. وكم هو غريب أن تستقر أكثر أوراقه خصوصية الآن بين أيدٍ غريبة، عوضاً عنه. ما الخطوة التالية؟ ما الفكرة المرجوة من ذلك؟ هل تكون وفاء؛ الأخت الصغرى لوائل التي كانت تتمنى له أن يتزوج؟ هناك الكثيرات، تقول له، يتمنين الاقتران بلاجئ، أو مغترب وفق التسمية المعاصرة. بإمكانها أن تلحق به، وتعيش معه خارج العراق. وبالإمكان أيضاً إن تعذّر لم الشمل، الاقتران بها وبناء عش صغير له ولها في البصرة إن شاء. من دون شروط. يزورها متى شاء، ويلاعب طفلهما.

في إحدى المكالمات التي كان يتابع عبرها حالة والده الصحية حدّثته وفاء عن صديقتها، إحدى المرشحات من قبلها. ستَرتاح وتسعد بزواجك بها يا وائل. البنت تقترب من الأربعين، يعني ليست مراهقة، مُدرّسة، رزينة وليس لها غير أمها وخالتها... قاطَعها. ضحك. لا يريد سماع المزيد. لا أحد يود أن يصدّق عدم رغبته بالارتباط والزواج. وقد كفّوا عن إلحاحهم لفترة، عداها. ليس بإمكانِ أحدٍ الكفّ عموماً عن تلميحات تطالبه بتوضيح السبب. لماذا كل هذا التدخّل؟ هم محقّون بشكّهم. رغبته بالارتباط وإنجاب طفل موجودة، ولكنها لم تكن كافية لتُذلّل تخوّفه من الإقدام على الخطوة. ليس كافياً أن يشعر باحتياجه لامرأة تشاركه حياته. والآن، وقد تقدّم به العمر، صارت خشيته في الغالب ليست من الفشل وإنما أنانية صرفة منه.

ربما ودّت أخته وفاء أن تبقيه على علاقة بهم من باب الالتزام، بما أوصى به دينها. ربما تهمّ، وهي قد كبرت الآن ولم تعد أخته الصغرى، أن تلحق لتوقف هذا التلاشي الذي يعيشه حيال كل أنواع الأواصر المعروفة التي

تربطهم بعضهم ببعض. إنها تذكّره بحياته فحسب، لتؤكد له، أن بإمكانه الاتكاء عليهم لو شاء. أليس ذلك هو في صميم دور الأنثى في الحياة، وإن كلّفها زيف الادعاء؟ فجأة تتضخّم الصور في رأس وائل فيتصور إلحاحها عملاً إجرامياً لا يخلو من انتقام. تلحّ أخته مثلاً على زيارة قبر أبيه، ولكن وائل وكلما تعمّق بالتفكير لم يعثر على مبرر مقنع لذلك. كان يرغب بأوجه لقاء أخرى غير هذه. القبر لا يعني له شيئاً. هو لا يزال يبحث عن أمكنة بديلة وأوجه أخرى للقاء به. كان يطمح إلى لقاء يخلقه، أو يخلقانه، ويضعان له إطاراً جديداً وإن كان قد أَسلَمَ الروح!

ستُدْفَع تلك المفكرة إليه باسم مجهول. ولكنها مفكرة لا قيمة لها. لن يصعق لها كائن بالعالم. لا أسرار كبيرة ذات قيمة، وكلُّ ما دوِّن فيها معيش، مكتوب في الأدبيات، مطروح في الأفلام التي تتناول الحروب، ويمرّ سريعاً يومياً بشرائط مختزلة إلى جُمَل قصيرة عبر الشاشة.

كانوا قد أعدّوا لوائل عالمه مذ مجيئه. هو الذكَر، البِكر المنتظَر. يبدو سعيداً قانعاً في الصورة المعلّقة على الجدار في غرفة المعيشة. صفّفوا شَعْرَه بعناية، فجاءت ابتسامته بقدر ما تمنّوه. تعجبه الفيونكة حول ياقة قميصه الأبيض والصديري الذي يبدو بلون أسود في الصورة. لكنه، خلاف أمّه، لم يحبّ طريقة تحميض الصورة التي تمّ تظهيرها على مادة تشبه الزجاج. يكشف الضوء عن وجهه وأعلى صدره داخل دائرة في المركز ذات إطار ذهبي رفيع، يحتويها إطار خشبي دائري أيضاً، عريض وضخم، مُطعّم بالصدف. ولكن إن كان كل شيء معدّاً سلفاً، فما ضرورة كل ما يقطعه الفرد في حياته ويمرّ به؟ ذلك كان ما يلخّص اعتراض وائل على طموح من هم حوله. في كل مرة كانت تقوم الأم بتعديل وضع الصورة تأتي على ذكر رحلة القاهرة له، والفنان الأرمني الشهير الذي عمل لها هذه الصورة. هل كان ذلك مثار عجرفتهم وانطوائهم؟ هل كان ذلك هو الفراغ؟ تلك الثرثرة التي لا تنتهي، تكرار القصص، الجُمَل والأمثلة الشعبية. هناك شيء من صنيع شيطان يرافقه،

يقيّـده، وهو أيضـاً مَن يتحكّم في فرحه وارتخائـه. كان الطفل وائل يراقب أمه في كل مرة وهي تدنو من توقيع المصور بالحروف اللاتينية الذي تركه أسـفل الصـورة إلى اليســار. كان يعـرف تماماً الخطوة اللاحقة لكل مـا يأتي بها أفراد الأسرة. لن تجرؤ الأم على لفظه، على الأخص حين تسرد القصة لضيوفها.

كثـرت بمرور الأيـام التصدعـات التي صـار يعيها. لعله صـدى حروف الكلمة. لو لم تُعَدّ عائقاً اجتماعيّاً لأسـماها كثرة الأصوات. أصوات يتخلّف صداها في رأسه متداخلة حادّة. رغم أنّ جو البيت كان هادئاً.

زحَـفَ اللـون المصفـرّ على الصـورة وغمُقَ. بـات من الصعـب بالفعل التباهي بالتوقيع المتلاشي. اللون الأصفر صار وشاحاً أُسدِل على كل شيء.

اكتشاف وائل أن كوبنهاجن تتغير جاء مفاجئاً له. يشبه حدوث سوء تفاهم موعود به. ســارَ مســاءً وهو مطارَد من قبل أحد ما. أو هو مَن كان يطارد شيئاً مـا لا يعرف ما هو. يتمنـى الارتخاء. انتهى منذ زمن من مهمة مسـح المدينة بأزقتهـا ومقاهيهـا وباراتها. اعتـاد نظاماً يوميّاً يبدأ صباحـاً بالتوجه للعمل، ومن ثم العودة إلى البيت، والتسـوّق حين الحاجة. لا يشـعر بحبسـه لنفسه. لا يشـعر بالفـراغ، بل كلما زاد فهو امتلاء بالنسبة إليه. يجد الصمت وسـيلة دفاع ذاتية. المواسـم تفرض صمتاً. الصمت يقول له الكثير، الذي ألغى ذاته الكثير بمرور الوقت. صارت اللقاءات، الجولات نادرة، تباعدت سهراته في المدينة وتلاشى حضوره حفلاتها التي كان يحرص على متابعة برامجها عبر الإنترنت. ضحك بسـرّه حين استرجع أسماء ما لا حصر له من كبار المغنين العالميين الذين حضر لهم حفلاتهم الموسـيقية في سنواته الأولى. كان ينفق تقريباً أغلب ما يكسبه في هذا الجانب.

فـي الليلة التي تلقّى فيها الرسـالتين الصوتيتين خـرجَ مدفوعاً بقوة للقيام بجولـة ليتفحَّص المدينة. شَـعَر بالتهديد. كما لو أنّ عليه أن يدافع عن نفسـه تجاه تُهَـمٍ سـتُوجَّه إليه برفقة صديقيه. شعرَ برغبة في تأكيد أن لا وجود لشيء فعليّـاً من كل هذا الذي يدور في رأسـه. كان عليه التهيؤ لتقديم شـيء أفضل للأصدقاء وكأن عليه أيضاً الدفاع عن مدينته.

ذلـك حدث أيضاً حيـن انقطعت تلك الصديقة عـن الاتصال به. أحدث ذلـك ربكة ما في يومه. تلك المرأة مـن البصرة التي أنكَر دخولها بادئ الأمر علـى الخـطّ كمتلصّصة. بـانْ؛ صديقة أخته وفـاء التي اتصلت بـه من خلف ظهرِهـا. ظـلّ الأمر سـريّاً بينهما؛ ليس نـزولاً عند طلبها ولكـن لأنه لم يكن ليستمر، وبالفعل حدَثَ بينهما ما جعلها تختفي تماماً.

انتابته رغبة من جديد في تأكيد معرفته بالأمكنة، بروائح بعض المحطات، بمطعم في النورابرو، أو بار مقابل التيفولي في الزاوية. اختلفت أسماء بعض النوادي والمراقص التي اكتشفها أول مجيئه. مرّ بطوابير مراهقات ومراهقين مستسـلمين للتفتيـش عند الأبواب. سـار كأنه قد غادر زمنه وهـو يعود اليوم لتفقده، بمرافقة أحد ما. أربع عيون تلتقط الأشـياء بانبثاق جديد لتقيم حواراً طازجاً ما بينها. رفيق أو رفيقة سيكون له رأيـه المعارِض الذي يجعله يدافع عن أمكنته وانتمائه.

ما به ونكهة المدينة؟ المدينة الخزفية كما هي مطبوعة في الذاكرة. بحث عـن طينها الأحمر المفخور. كما لو أن الزجاج الشـاهق قد أخفاه عن النظر. لعلها محض ربكة حواس! هو ولا شـك الخَـرْق الذي أحدَثه صديقه فاضل أيضـاً بالعثور على رقم هاتفه. اسـتغرب أمر صديقه وعثـوره على رقم هاتفه بالفعل. لم يتابع هذين الصديقين، حتى تمّ تقريباً نسـيانه. هو ما أراده. كل ما عرفه أنهما اسـتقرا في السويد حتى جاء ذاك اليوم المشؤوم الذي قرأ فيه عن خبر محاولة انتحار حسام.

حسـام الذي أبدى شـغفاً بتعلّم اللغة حـال حصوله على الإقامة، اسـتقر حينهـا مع فاضل في أوبسـالا. كانت أياماً لها طعمهـا. عومٌ آمن في مجهول، مـن دون تهديد بالغـرق. لن يتكفّل حسـام ابتداءً من هذا التاريخ بمسـؤولية تجـاه شـيء أو كائـن. واظبَ علـى البرنامـج المُعطى له. ناسَبه هـذا النمط المحـدّد والواضـح من الحياة. بينما شـعَر فاضل حيال هذا الشـرط الحياتي بشـوكة نابتة في بلعومه. فاضل يطهو لحسام ما يشتهي. حسام مبتلى بترجمة

الرسـائل الحكوميـة ومتابعة المعاملات والعقود التي تسـتجد في حياتيهما. لكن فاضل لحيويته التي لا تنسـجم مع طقس السويد اختصر الطريق بالعمل بما توفر أو تمّ عرضه عليه. كان من خلف اسـتيراد نبيذ بلغاري رخيص رغم جهله بهذا العالم الذي يتطلب على الأقل ذائقة مدرّبة بعض الشيء للخوض فيه. كانت تجارة خاسـرة تركهـا وحاول التواصل من ثم مـع عملاء لصناعة الزجاج اليدوي في دمشـق من أجل اسـتيراد الزجاجيات التي كانت تتفق مع الذائقة الاسـكندنافية ولكن سـرقة إحدى الحاويات سبّبت له خسارة كبيرة، جعلته يترك هذه التجارة أيضاً.

استـمر بالمقابل حسـام بالتدرّج قليلاً قليـلاً في برنامـج اندماجه وطاعة السيسـتم والمشـرفين والخبراء، حتى حصل أخيراً على وظيفة مطوّر برامج أضفت زهواً على طاقم مكتب التشغيل، وقُيّدت من ضمن القصص الساحقة في نجاحها. راتبٌ ثابت، امتيازات وترفيع متسـارع أمدّه بالاستقرار، وأفسح له وقت فراغ يشعر به ملكه ومن حقه.

لكن يحدث فجأة ومن دون سابق إنذار أن يضرب الروح عطب لا تُعرف أسـبابه، فينكفئ حسـام ويمـرض. باغتته حـالات هلع شـلّت حركته. أطلق لحيتـه، وتعدّدت أعراض كآبتـه. طالت فترة علاجه، وانتهـت بتركه للعمل. سـاهرة، أختـه التي تزوجـت عراقياً مقيماً فـي الإمارات حثّته علـى زيارتها؛ ليلتقـي خلالهـا بعمّتهمـا، أمـه التي ربّته. يسـافر بعون وشـبه إرغـام من قبل فاضل. يلتمّ الشمل لأول مرة. يهدأ عالمه بعض الشيء في حضني المرأتين. تتمكّـن العائلة مـن إقناعه بالزواج. هو الحلّ الذي لا تنطوي قناعة الأهل في الحيـاة على غيره. الحلّ السـحري الـذي كان حسـام أول المعترضين عليه. الفكرة التي لا تتطابق مع مزاجه، ولا مع الصور التي رفد المجتمع السويدي مخيلته بها ورآها مشاهد جديدة متطلّعة، عصرية، أكثر قرباً لروحه.

خاض حسام علاقات قصيرة الأمد مع نساء بجنسيات مختلفة في أوبسالا وستوكهولم، أساسها الصداقة والجنس. استمتع بها وعاشها برضا الطرفين،

لكنه لم يُغرَم بعد. وتلك الأغاني العراقية والعربية التي يديرها فاضل في سيارته، كانت تثير الشجن فيه واللوعة للحصول على لوعة. كان ذلك يدفعه للتساؤل فيما لو كان سيلتقي حقّاً يوماً بتلك المرأة التي ستزلزل حياته. ذلك الافتقاد الذي لا يفلح بتعريفه فيميل إلى المبالغة. يبالغ في صداقات عابرة، في الساعات التي يقضيها في بحثه على النت بما يخصّ اهتماماته، باستغراقه بمتابعة أفلام الخيال العلمي، في عدد الكؤوس التي تسكره والمسكنات. أين هي؟ لم يحدث ذلك، والشك الذي أبداه بهذا الخصوص علانية لفاضل، تحوّل إلى شعور اقترب من اليقين بسوء حظّه. يستثني من ذلك عمله الذي قد يمتدّ ساعات طويلة متواصلة، تستغرق وقت فراغه الذي يقضيه بلذة. لم يقتنع كذلك بالتجارب من حوله. راهن في سرّه على عجز الحب عن تفسير الافتقاد. وقد بَدا له هَيام بثينة بفاضل في البدء ضرباً من طيش. من تعطُّشٍ لرومانسية مراهقة لم تجد لها منفذاً بسبب القمع المجتمعي. لابد للفورة أن تنطفئ مثل رغوة كأس البيرة التي صار مدمناً على احتسائها نهاراً أيضاً، ولم تقتصر على الأماسي كما كان الحال من قبل.

كان أيضاً ضليعاً بفهم منطق النظام الضرائبي الذي احتاجه فاضل لإدارة مطعمه الصغير. بذلك تمكّن فاضل من مراقبته. وقد قام بطمأنة وائل الذي استلم منه رسالة بعد انقطاع طويل يعرب فيها عن صدمته الكبيرة أولاً لمحاولة انتحار حسام، وثانياً لتداولها بهذا الشكل السافر على صفحات الفيسبوك ما بين الأصدقاء، وكأن لا قدسية لشيء لديهم. وائل وجَدَ تعاملهم مع الأمر بمنتهى الاستخفاف والاستعراض والمزايدة والصبيانية. ولا يستبعد أن يدفع ذلك إلى تكرار حسام لفعلته، إن لم يفعل فاضل ما يصون روح حسام ويداري وضعه بشيء من الخصوصية والسرّية. حاول فاضل الاتصال بوائل حال قراءته للرسالة، لكنه لم يفلح بذلك. كتبَ إليه بعدها يخبره بأنه يفكر جديّاً بشأن إعادة حسام إلى العراق إن تطلّب الأمر، رغم سوء الأحوال هناك. كان وضعه مقلقاً، وفي تدهور، وقد يكون ذلك أفضل له من بقائه هنا، وهو على هذا الحال. وما فعله الأصدقاء إنما كان بقصد التخفيف عنه، وجعل الحياة ليست أكثر من مزحة. بعض الآلام لا

يمكن التعبير عنها إلا بخفّة تصل إلى السخرية وذلك هو الأمر الوحيد الذي ينفع بتصوّره.

وائل غير متآلف مع فكرة العودة كحلّ حين يشكو أحدهم من غربة ومنفى، أو حتى عوز. لم يكن لديه حلّ، ولكنه كان يشعر بإعاقة تحول دون تمكنه من محاولة العيش على طريقته القديمة. مرّ زمن انشغل خلاله بتفكيك أزماته. حدثت تحولات ذهبَ خلالها أبعد بكثير مما كان عليه وهو في مكانه. حتى الرغبة التي تملّكته باحتضان حسام بقوة آن قراءته الخبر، تلاشت في اللحظة التي تلتها.

خلاف فاضل الذي كان على يقين حين عمل على سفر حسام للقاء أهله في الإمارات. أعانه ذلك كثيراً بالفعل. ولم تهجع العمّة، إلا بعد إتمامها تدابير زواجه. ساعدت على ذلك علاقات والد البنت التي تمّ عقد قرانه عليها. فرصة أهّلته للحصول على وظيفة في شركة حواسيب عالمية، تكافئ خبرته، وتمنحه منصباً جيداً. ولم يكن الأمر مستبعداً، ذلك لامتلاكه ذهناً رياضيّاً أثار شهية والد عروسه الذي تجاوز اختصاصه المحاماة، كما تبين لاحقاً، إلى تأسيس شركات وحسابات إلكترونية وهمية، وفبركة مختلف العقود، للعمل والاستيراد والتصدير للمستثمرين العراقيين في الداخل.

ترك حسام السويد للأبد، واستقر في دبي حيث تزوج. هذه المرة لم يشعر إلا كأنه في قارب يجرفه نحو شلالات مفاجئة شاهقة بانحداراتها.

6

اسمعْ، خمسون عاماً يا فاضل...

كيف لامرأة أن تنتظر رجلاً كل هذه السنوات؟ الحروب، الأحداث الكبرى لم تكن تعني هذا الشيخ ومدوّنته! بحلَقَ حسام بالورقة التي سقطت من التقويم من جديد. هناك امرأة قضت العقود الخمسة بالانتظار من أجل تحقيق أمنيتها بالالتحام به. ألقى حسام برأسه إلى الوراء، حاول أن يطلق ما يشبه ضحكة لم تأتِ إلا بشهقة مكتومة. نظر إلى فاضل الهامد قربه على السرير في غرفة العناية المركّزة. اقتربَ منه أكثر وقالها بوضوح وهو يلوّح بالمفكرة: هناك امرأة قضت خمسين عاماً بانتظار الشيخ وحيدة مع قطّتها.

هذه! هذه الصفحة يا فاضل ورقة إثباتٍ لوحدة هذا الشيخ العجوز الذي لم يبدُ على محيّاه يوماً أي ملمح لشكوى. كان يردّد أنه لا يطلب إلا الستر والسلامة، باتساق مع تقليدية ومحافظة العائلة. هههههه! لو تنهض الآن وتصدح يا للهول! هذه هي الوحدة المخيفة التي حدّثتك عنها! كان هناك حبّ إذن، وهناك حبّ يدوم، أو يشتعل بعد الخمسين! أيها اللعين.

اسمع بربك... فاضل

هل كنت تفتّش عن هذا؟ أليس كذلك؟ كنت تتقفّى آثار حياة هذا الرجل الذي وصفتَ لي زوغان بصره وهزاله حين قصدته لتعزيته بوفاة أم وائل. قلتَ لي إن العجوز والعجوزة قد عاشا لخمسين عاماً معاً بهناءة وصفاء وتساءلتَ: كيف سيكمل مشواره وحيداً بعدها؟

يتردّد حسام قبل أن يضع يده على يد فاضل الهامدة ليضغطها، ثم يهزّها.

هات يدكَ. لنصعد إلى فوق برفرفة هادئة إلى الأعالي هناك، مثل طائرة

ورقيـة من صنع أيدينا، معلّقة وسـط السـماء فـي ليل المدينـة الصيفي، فوق ونحـن نرمقهـا من فِراشَـيْنا الباردَيْن على السـطح، هل تراها هنـاك بين كتلة النجـوم الصغيـرة الوامضة؟ انظر كيـف تتمايل، هل ترى ذيلهـا كيف تلاعبه النسمة؟ سمكة في بحر سماوي ولمعانها مثل نجمة حقّاً.

مات فاضـل! أُطفِئ الجهاز مُعلناً ختام الرحلة. فتحوا السـتائر فعمَّ ضوء أبيـض أغشـى العيـون. حياتـه انتهـت بسـكتة الكون. صَمَـت العالـم صمتاً كأنه قد شُلّ.

انعقد لسـان حسـام. جفّ فمه تماماً. جفّت عيناه. استدار الطبيب وغادر الغرفة وبقيت يد الممرضة ثقيلة على كتفه. لم تقل كلمةً حتى تحرك ونهض. ولـم يقـلْ الكثير وهو فـي طريقه لإتمـام الإجـراءات المتعلقة بنقـل جثمان فاضل. التعاون بين شرطة وأمن المطار والخطوط الجوية والمستشفى ساهم في تسـهيل الأمر عليه إلى حد بعيد. غصَّ وكاد ينشـج وهو يستلم التيشيرت البولو، والجينز، وسرواله، وساعته وخاتم زواجه وحذاءه الرياضي.

تثقل خطواته. يسير كأنه نصف مشطور. يبطئ في رفع الأشياء وحَمْلِها. يستقل سيارة أجرة بالكاد لتنقله إلى المطار.

كان في طريقه إلى كوبنهاجن للقاء وائل الذي سيكون بانتظاره في المطار.

كأسـان صغيرتـان من الفـودكا زادتا من كسـل عضلات البلعـوم. انغلق المجرى التنفسـي ففزّ في مقعده بسـبب شـخيره. يغوص في الغيم المتقطع وحيـداً عنـد النافذة علـى الجناح الأيسـر من الطائـرة. تتقافـز الحروف مثل تأتـأة من بين الفوضى المقترنة بالارتفاع. اتفقا علـى مكان اللقاء. لديه بضع سـاعات قبـل إقلاعه مـن جديد عودةً إلى الإمارات. سـيتابع وائل سَـلَفاً أمر الحقائـب، بعد أن أرسـل له حسـام المعلومـات المطلوبة لتتـم العملية على وجه السرعة.

يغمـض حسـام عينيه ثانيـة. جبهته تلامس زجـاج النافذة. وقـت الرحلة

قصير وهو يقاوم تناول حبة تسكّن من قلقه وصداعه. يصيبه إحساس بغزو الخريف. لكن الخريف لا يقتل انفعالاتنا إزاء ما نرى ونعيش! تعيش الشجرة انفعالها الخاص فتنفض برقصة جنونية متشنّجة كل ما عليها. فاضل بكى أشياء اختفت من أمام عينيه. بناية قديمة اعتاد سنين حياته على التبضع في المحال القريبة منها. يظل يذكرها مرة بعد مرة. كلبُه الذي دسّ أحد الجيران السمّ له فمات. إعدام أخيه، انتحار صديقه الأستاذ الجامعي - كان ابنه جنديّاً قطعوا له بموجب قرار مجلس قيادة الثورة في التسعينيات صيوان أذنه اليمنى لهروبه فمات. ولم يهزمه التعذيب. كان يخطط لعودة نهائية. ظلّ التعس حالمِاً تبكيه بالفعل كلمة وطن.

فاضل مات بالتقسيط لهذا كله، ميتته هذه ليست هي الميتة الحقيقية. مات مراراً، على طريقته التي لم يكن أحد قادراً على التدخّل فيها أو التوسط. وهل يمكن لأحد أن ينوب عن أحد في موته؟ مثل لذّاته التي كان يجنيها من خلال البنك الصغير الذي أنشأه سرّاً ليمنح الناس قروضاً صغيرة من دون فوائد، يقوم الفقراء منهم، بل هي لهم حصراً، بتسديدها بما يتفق وإمكاناتهم المادية. متع صغيرة خاصة به وحده، متقاربة، متباعدة، يراكمها ويخلق منها حياة.

وطئ حسام أرض مطار كوبنهاجن ووجد وائل بانتظاره. تحاضنا وطبطبا بعضهما على ظهر بعض طويلاً. دفن حسام وجهه في رقبة وائل ونشج.

جلسا في زاوية من البار في المطار يحتسيان البيرة. وجه حسام كان بلون أزرق في ظل المصباح البندولي. كان وائل يسأل باختصار. أسئلة حول الإجراءات والزوجة والأطفال. شيء يفوق التصور، صادف أن يقولاها في وقت واحد لمرتين. احتسيا الكأس الأولى بعطش.

الصمت كبير ما بين حسام ووائل، لم يفلحا بملئه في الساعة الأولى. يهرع وائل ليأتي بالكأس الثانية من البيرة. ينظر إلى الساعة في أثناء انتظاره

عنـد حاجـز البـار للحصول علـى طلبه. يسـحب بطاقـة الدفع مـن محفظته فـي الجيب الخلفـي وهو ينظر إلى حسـام خفية من بعيد. حيـن عاد وجلس اصطدمـت أعينهما بعضها ببعض لأول مرة. يرنّ هاتف حسـام أمامه فيدفعه جانبـاً. أهل تمـار يقولون: الناس تغرق في الخمر أكثـر مما في الماء، إنه من الأمثـال الروسـية الأثيرة لديها، ويبتسـم حسـام لوائل. يُريه مـن ثم صورتها علـى شاشـة نقّاله. إنها امرأة سـاحرة تخطط لوضعي في القفـص. وإن وُجِدَ القفـص فلا مكان لتعليقه! يضحك بشـخرة، ويأتيان على كأسَـي البيرة حتى قاعيهمـا. فاضل كان على يقين من فشـل التجربـة. رأى بالضرورة في انعدام المشتركات ما بينهما شيئاً سلبيّاً، أولها اللغة. خلاف حسام الذي كان يمقت تلك المشتركات التي يلحّون عليها، ويودّ لو كانت ثوباً لقَلَعَه وحَرَقَه. يا أخي أنا نفسـي أريـد التخلّص من ثوبي التقليـدي الكئيب الذي يبعث السـأم فيّ. يضحـكان معاً، ويسـتأذنه وائـل ليذهب إلى التواليت. بعودته كان حسـام قد أحضر كأسَـيْ ويسكي. قال إنه جائع، لكن لا مزاج لديه للأكل. يحكّ رأسه. يفـرك وجهه بكفّـه. كان يكرّر هذه الحركـة مراراً. ربما عليـه أن ينتظر لحين تناول وجبة الرحلة. يقنعه وائل بتناول وجبة همبوركر سريعة بعد الانتهاء من احتسـاء ما في الكأس. يعتذر وائل. لن يسـتطيع شرب الويسكي بسبب قيادة السـيارة. لم يكن فاضل ليرضى بذلك. يقول حسام، يعني الهمبورجر، يطلق ضحكـة قصيـرة ثم يصمـت. فاضل كان يصيبـه الغثيان من رائحـة الوجبات السـريعة. كفتة «الشـحم المعفّن والجلافيط»، يرنّ هاتـف حسـام ثانية. ينظر إلى شاشته ويدفعه جانباً. يصمت. يصله إشعار رسالة قصيرة.

يواصـلان الحديـث. يأتي على كأس وائـل هذه المرة بدفعـة واحدة، ثم ينهـض ليأتي بـكأس أخيرة. يقولها غامزاً. الكأس الأخيرة كان من شـأنها أن تجعله يرتخي وينفتح في حديثه وينفعل أيضاً ويختنق ويضحك ويشرق.

ينهضـان. يدفـع وائـل العربـة بالحقائـب وهـو يفتّش عن نضـد مكتب الخطوط، مُخلّفاً حسـام وراءه مسـافة خطوات. لم يأكل حسـام ربع الوجبة. شـعر فجأة بتعب. زحام يعرقل سـيره ويزيد من تعرّقه. ثقلت خطواته. حملَ كُلّاً من حقيبته وحقيبة فاضل على كتف واحدة.

تتوالـى النداءات منطلقة من مكبرات الصوت بينما كان وائل يتابع سـيره

بحثاً عن رقم النضد الذي قرأه على الشاشة. شريط تسجيلي باللغتين يكرّر التحذير بشأن الانتباه إلى الحقائب الخاصة بالمسافرين. الإذعان لأقصاه لاعتبارات أمنية.

بدأ العرق يسيل من أعلى جبين حسام وهو يتبع وائل. حَرَق الملح عينيه. لا يستطيع مسحهما. أشار له وائل يحثه على التقدّم. لمح فجأة الرجل الذي جلس إلى جانب فاضل في المطار مرتدياً معطف والد وائل. والد وائل كان معتمراً قبعته كعادته، سار بخطوات بطيئة قادماً نحوهما. سرت رعشة في جسده، شعر بخوف يكتنفه. أخذ قلبه بالخفقان بشدة، وقف بالطابور الطويل خلف وائل. تغيرت ملامح الرجل وصار وجهه مكفهراً. فكّر حسام إذا ما كان هذا الرجل قد جاء ليحقّق معه. صعب عليه التقاط نفس. هل رأيته حين سقطَ أمامك؟ كيف مات فاضل؟ هل كان مغمض العينين؟ كان ولا شك يحملق بوجهك بعينين كبيرتين مفتوحتين، أليس صحيحاً؟ ألا تذكر. أنا من اتصل بشرطة المطار. إذن أنت لم تكن في الغرفة حين لفظ أنفاسه، صح؟ تملّك حسام الذعر. كان الرجل يتقدّم شيئاً فشيئاً تجاهه. خشي أن يسقط مغشيّاً عليه، فلا يصحو من بعدها. سيموت مثل فاضل. بدا كل شيء موحشاً من حوله ومضطرباً. حتى الضوء الذي كان يتخلل زجاج النوافذ الواسعة ويسقط على الأرضية انسحب. ثَقُل لسانه ولم يستطع أن يصرخ. ضجيج وزحمة. أشارت له المضيّفة برأسها تحثّه على التقدم على نحو أسرع، إذ جاء دوره، لكنه شعر بقدميه متسمّرتين. خشي أن يقع لو تحرّك من مكانه. التفت إليه وائل الذي كان قد سبقه بدفع عربة الحقائب. سارع إلى وضع الحقيبة الكبيرة الأولى على حزام الوزن إلى جانب نضد المضيّفة، وعاد مسرعاً ليعينه في البحث عن أوراقه. تعذّر على حسام إيجاد جوازه وبطاقة صعود الطائرة من بين كل الأغراض التي ازدحمت بها حقيبتا الظهر المتطابقتان. طبطب وائل على كتفه، وتقدّما معاً نحو المضيّفة التي ساورتها الشكوك فتأخرت كثيراً في فحصها للأوراق وفي التدقيق في الشاشة الصغيرة أمامها.

لم يكن حسام ينظر إليها. كان يحاول أن يلتقط أنفاسه، اضطرب خفقان قلبه وهو يتابع مرور الرجل البطيء وذوبان القبعة والمعطف بالتدريج ما بين حشود المسافرين.

لم يبقَ إلا نصف ساعة قبل الانطلاق في رحلة العودة. هاجمت حسام نوبة بكاء حاولَ خَنْقَها. دَلّه وائل على أقرب تواليت للتبول، وهُرِعَ مع الحقيبتين خلالها لشراء إسبريسو لهما. وجدَ لهما ركناً يستريح فيه حسام. ظلّ واقفاً بانتظاره. نظر إلى الساعة الكبيرة، حتى ظهر أمامه أخيراً.

عندما تواعدا بدا هادئاً بعض الشيء، وقبل أن يتوجه إلى السلّم حيث المحطة الأخيرة للتفتيش، رفع حسام ذراعه المعطوبة إلى فوق واشتمّ إبطه من تحت كُمّ التيشيرت بتقزّز. نظر إلى وائل ساخراً: كانت تلك إحدى حركات فاضل المتعمَّدة مِنْ أثقل طرق مزاحه، يرفع ذراعي هذه، ويُظْهِرُ للعالم من حوله أنفاً مزكوماً!

تسرسح في الخرطوم إلى جوف الطائرة. خطواته لم تكن تنزل على الأرض وتتعاقب كما يجب. وما إن دخل الطائرة حتى شعر بأنه سيستفرغ. ألم في صدره وهو يبحث عن رقم مقعده. لم يفهم فحوى الرسالة القصيرة التي تركها له والد زوجته. قرأها بطريقة المسح، بعينين مضبّبتين في أثناء جلوسه مع وائل. لا ينوي إعادة قراءتها. وضع حقيبة الظهر لفاضل عند قدميه في المقعد، بعد أن طلب المساعدة في إلقاء الثانية في الكابينة أعلى رأسه. المقعد إلى جانبه فارغ، لم يشغله راكب. أسرع بربط الحزام لتستقر أمعاؤه. ألقى برأسه إلى الوراء وأغمض عينيه.

لاح له الشطر الأول من قصيدة. «بحكم رمية النرد يا صديقي»- ما ردّده فاضل. كان يجبره على هدر وقته في لعبة الطاولة التي لا يقبل الهزيمة فيها. كان يبحث عنها حتى في ارتيادهما المقاهي في السويد. قال له مرة إنه يفكر بتسجيل أصوات النردَيْن وهي تضرب خشب الرقعة والأقراص التي يصفها اللاعبون في خاناتها، كما كان يسمعها في الكازينوهات المطلّة على الشطّ. فاضل يؤكد أنها لعبة حظ بامتياز وحسام يدخل الذكاء عاملاً أساسياً للفوز.

عالم مزدحم. إشعارات الرسائل مستمرة. بثينة. تمار، أخته. رفَع رأسه

إلى أعلى. الإقلاع. انسـداد أذنيه. ابتناه. صفير. انسـداد مرّة ثانية. السماء من دون غيم وهو يرى تقسـيمات كوبنهاجن الخضـراء وبقعها المائية تغيب من الأعلى شيئاً فشيئاً. ليس هناك من لهفة للعودة، ولا الوصول. تمنى حسام لو ظلّ معلقاً في الجو، كما تمنى لو طال مكوثه عند الطاولة التي جمَعته بوائل. لِمَ لمْ يخبره عن الشبح الذي مرّ بهما في بهو المطار؟ ألمْ يلحظه وائل؟

تمـار التي يجهل مصيره معها، ويخشـى أن تتكرر التجربـة ذاتها. زوجته التـي لا يـدري إن كانـت سـتصبح طليقته، أم سـتظل زوجته. مـا الذي جعل والدهـا يعـرض عليه المصالحـة؟ بمجموع أيام صفائهما لم ينحفر شـيء ما مِنْ شأنه أن يحيل إلى رابطة أو عِشْرة. لو أجريت عملية حسابية، فلن يتجاوز التواصل بضعة أسابيع من السنوات الثلاث التي ربطتهما معاً. لم يعرف كيف يتجاوز تلـك الطريقة التي تختارها بالعقاب. القطيعة والإضراب عن الكلام مثـلاً. هل هي صفة رديفة بالمـرأة العراقية؟ هذا هو الواقع! كلمة تقال ولكن بالنسـبة إليـه لا تبدو الأمور بالوضـوح الذي يظنونه. عبـر الرياضيات يمكنه فهـم كل شـيء، وإقناعـه بالواقع. عبـر كل صداقاته كان من السـهل الصراخ والملاسـنة ليصل كل ذلك إلى قمـة العراك ولتنتهي المسـألة. لم تلزمْ بثينة؛ زوجة فاضل، الصمت كطريقة تعبير عن غضبها من خلال معايشـته لهما. لم تخلّف زوجته في داخله إلا صورة بغضها المقيتة له.

لا يعلـم حسـام بمـا دار بين فاضـل وتمار. فاضـل أقنعَهُ بتأجيـل التفكير بمـا يزعج، ووعده بالعثور على حلّ لأزمته بعـد الرحلة. أقنعه بعدم تمكنه في غضون ثلاثة أسـابيع مـن اتخاذ قرار، لو رفض السـفرة وظلّ في دبي وحده. هي إجازة مقطوعة من الزمن، قالها فاضل. سـنعود لنلحق بمتابعة كل شيء! كل المهـام في الانتظار. ولكي يقضي على تردّده قام فاضل بحجز البطاقتين ودفع ثمنهما.

لا رغبة لديه في زجّ نفسه في حروب الحياة من جديد. صديق آخر أكّد له أنها أزمة منتصف العمر التي لم يسـمع بها من قبل. ظنها تخص النسـاء. قال لـن تلبث أن تمرّ. حسـام لم يكن يعـرف ما العمر لولا ابتنـاه، وهو الآن أكثر حيرة وقلقاً. ألفى نفسه بعيداً. نضب حتى الشوق لتمار. لا يشعر برغبته تلك حيالها. شـيء قد همد فيه. رغم أنها من استعاد رجولته معها. اتصالهما كسَرَ

فيـه صَمَمـاً غلّفه لسـنوات. كان هناك على الدوام ما يجب أن يزيحه ليسـمع ويرى ويشعر بطريقة أفضل. كان على الدوام يشعر بحاجز يحول دون تمتعه بما تنقله الحواس إليه. بل هو لا يكاد يشعر بشيء أحياناً. أخرَسَه عجزه، ولم يعرف ما هي مصيبته.

ولكن لا بأس أن نكون غرباء عن المكان الذي سـنعود إليه. تلك الهدايا التي كانت الطبيعة باذخة في كرمها بمنحنا إياها، بلحظة تسـحبها منا. بحكم رمية النرد يا صديقي. صيف حار، كتَبَ «عالم غريب» بدلاً من مزدحم، وقد شطبَ على «وزاوية مظلمة لتشييع وطن»، بعد أن استقر صوت إبحار الطائرة في رأسه وارتخى بعض الشيء بفضل الحبّة.

وقـف كل شـيء فـي مكانه لا يتحرك. العـودة كانت إلى الـوراء مع وائل إلـى سـنواتهما معاً. الوجـه النحيل والجسـم الرفيع الطويل ذاتـه. في صغره كان وائـل يبـدو له كأنه مـن أصول أخـرى، أجنبية. قد تكون تركية، للشـقرة التي ميّزت شـعرَه ولبشـرته الفاتحة اللون. كان حسـام يتمنى على الدوام لو كان لديه عناده. كان يشـعر بخوف تجاه ذلك. يكره ضعفه. كان يسـهل عليه التنازل عن الأشـياء خلاف وائل. لم يسـأل وائل عن خياره: كيف جرؤ على العيش وحيداً؟ كيف لم يُجْبَر على مقاومة شرك الزواج؟ كيف سيكبر وحيداً وغريبـاً؟ ألا يخشـى ذلـك؟ كيف لا يخاف مـن أن يكبر وحيـداً؟ لو لم يكن عمله ما كان حسام ينهض من فراشه، لو لم تكن عمّته هي أمّه ما رفع سماعة الهاتـف، لو لم تكن أخته سـاهرة مـا ماتَ من الخوف، ولو لـم تكن الابنتان من يفرض عليه أمر الإعالة لترك كل شـيء. وفاضل لولاه ما... تحسّس بيده اليمنى جانب خدّه. «مَنْ غصّ داوى بشـرب الماء غصّته فكيف يصنع من قد غصّ بالماء». ما كان فاضل يردّده، يجدُ مكانه وزمنه. لازمه الخوف. لقد بردَ كل وجهه بشكل مخيف!

7

حين جاء موعد مغادرة الشباب الثلاثة موسكو ذلك الصباح تحدثوا بين الضحكة والنكتة والهلع في الطريق عن الاحتمالات والسيناريوهات المطروحة وقتها. جلس فاضل في المقدمة إلى جانب السائق الذي لم يكن يقظاً تماماً فمالت السيارة الصغيرة التي أقلّتهم إلى المطار. انحشروا بالكاد بداخلها مع حقائبهم. أحد الاحتمالات في حالة فشلهم تَوَفّرُ فرصةٍ للعثور على امرأة تعرض الزواج عليهم. قالها فاضل ساخراً. حينها أفلتَ حسام ضحكة متثائبة، بينما استدار وائل جانباً نحو النافذة يتابع الطريق.

الثلاثة دون الباقين، وإن سنحت لهم الفرصة، انتحوا جانباً. لم يكن ليخطر ببال أحد منهم استغلالها بدافع الهوس بالجنس، رغم أنهم غادروا مدينتهم خالين من العهود، متخفّفين من كل أشكال القيود وإرهاقات الديون. لم يتبقَّ غير أن يغفروا للحياة آلامها، السرّية منها، وتلك التي كانت على السطح وأن يستمتعوا.

كان فاضل مَنْ يحرص على نقل أخبار ما يجري في الفندق. مَنْ واقَعَ المنظّفةَ في المخزن؟ مَنْ واعَدَ نادلة المطعم؟ وحين عاد حسام ذات ليلة متأخراً وأوضَح لهما صعوبة تقبّل المجتمع الروسي للغريب، كاد فاضل أن يختلف معه وإلى الأبد. فاته ما طرأ على حسام من تغيّر خلال أيام بسبب مغامرته العاطفية العابرة مع موظفة الاستقبال في الفندق. أدرك أنه تنبّه إلى الأمر متأخراً. بينما أقسمَ حسام أنه لم يكن مَن بادَرَ أو سعى إلى تلك العلاقة. لكن حسام قدّم لها لاحقاً أكثر من عرض، حتى كاد ينسى الغرض الذي جاء به إلى موسكو. وبلغ الأمر حدّاً سأَلَ فيه عن اللغة، سأَلَ عن الثقافة وعن التقاليد وأهلها، وعن مجالات العمل، فيما لو كان عرض بقائه يرضيها.

فاضل كان ملتزماً، قدر استطاعته. تجاذَبَه ما فَرَضَه عليه دينه، وما

افترضته الأخلاق الشيوعية في مدينته. ولكنه في مواقف كهذه لا يكاد يفكّر إلا بأصدقائه. وائل ينادي بعدم التدخل، وفاضل يصرّ على أنه محض انبهار لحظي صبياني، ولو كان لحسام أب معارض، أو أخ كبير مسؤول، ما وقَفَ ما بين حسام وقلبه، كما فَعَل فاضل ليحول دون اتخاذ خطوة اعتبرها من القرارات المصيرية.

وائل مَنَعَته كبرياؤه من الاستمرار في علاقات يلمس فيها تعالي المرأة عليه. مرة بعد مرة. ظل حريصاً على البقاء على مسافة، ولكنه لم ينكر أمام نفسه على الأقل صعوبة انفتاحه أمام هذا الكائن الغامض. لم تتوفر له الفرصة المنتَظرة ليدحض أفكاره هذه. مَقَتَ في صغرِه البنات، ممن كنّ يكبرنه في الابتدائية. أزعَجته مراهقة أختِه وصديقاتها. كان يحتقر اختياراتهن للأغاني التي يلححن في الاستماع إليها. كان يضيق بضحكهن المستمر، ومساراتهن التي تدخل أذنه. يخفي استهجاناً لذوقهن المبتذل للملابس.

الفكرة التي انزرعت في ذهنه دارت حول وهم المرأة بتفوّقها على الرجل. الرجل الذي صاره وائل لاحقاً، رجلاً أجنبياً، شرقياً على الأخص، مع كل التصورات المسبّقة عنه. شغل ذلك جانباً من فكره حين رأى فجأة صورة الأجنبي الشرقي النمطية فيه. كان يشعر بها، يراها في عيني البائعات ما إن يدخل محلاً أو مخبزاً. أفكار ومشاعر مضغوطة بداخله، ظلّ خلالها الصوت الرجولي يلحّ بمحاجَجَتِهِ ويسائله، والرغبة كانت تترصّده، تنتظر الفرصة لتثور وتنطلق.

تلك هي محاولتهم الثالثة بعد محاولتين فاشلتين للتسلل، سبق أن عادوا حين أخفق المهرّبون بالعثور على ضباط متعاونين لتهريب الوجبة إلى دولة إسكندنافية.

في أحد الانعطافات الحادة في الطريق إلى المطار، تذكّر فاضل فجأة رحلة نهر الفولغا. أطلق لعناته تلك بصوت عالٍ. كان يرجو القيام بها من أجل أن يرى سرّ النهر العظيم الذي قرأ عنه في الروايات الروسية. للأسف لم تظهر من النهر إلا أسيجة نفضت الثلج عنها. وكعادته في التفكير بصوت

عـالٍ عبّـر عن اسـتيائه من شـعراء وروائيين عراقييـن لم يرفعوا شـط العرب بجماله ورفعته، بِزخم روافده إلى مصاف الأنهر التي تمّ تخليدها في العالم.

بدت موسـكو مدينة مُنهَكة، كئيبة ذات واجهات بنايات مُسـخّمة، أرفف فارغـة فـي المحـال، وطوابيـر طويلة من أجـل الخبـز واللحمـة والحليب. الشوارع التي غطّاها الثلج شبه فارغة إلا من بضع سيارات صغيرة خصوصية قديمة. وعلى الأرصفة ما زال هناك أناس متعبون، يسيرون ببطء وبآثار وجوه سوفيتية كئيبة قديمة.

توجهوا إلى المطار. لوّح الثلاثة لبعضهم وتفرّقوا. أقصى درجات التوتر. عيون وائل وفاضل تتابع حسام وهو يتقدمهما. شكا اضطراباً في خفقان قلبه صباحاً. وفق الخطة وقف ضابطان عند البوابة المتفق عليها. مرّ حسـام جهة اليمين، ولكن وائل لم يفلت من قبضة الضابط إلى اليسار. بينما مرّ فاضل من جهـة اليميـن حين جاء دوره. ووفق التعليمات فلا نجاة إلا بعد إقلاع الطائرة من المطار؛ لذا لم يكن أمام حسـام وفاضل إلا المواصلة بصمت وحذر من دون أدنى التفاتة.

وائل أغلقَ على القصة بكاملها. أشـدّ ما حرص عليه ألا يصل الأهل خبر عنـه. لـم تُعرَف تفاصيل ما مرّ به منذ وقوع الحادث. مقاطعة شـبه معلنة منه. ولـم يصدر اعتراض من أحد. ذلـك لا يعني اقتناعهم لكنه أمر صار مفروضاً بالتدريج، على العائلة والأصدقاء. وائل تدرّب على قلّة الكلام حدّ العزوف أحيانـاً عنـه. كان مِـنْ بينهـم الذي يكتفـي بالإنصـات والمراقبة. مثل شـيء خَسـره. وهو مسـتمر مـا زال يبحث عنـه. تم رميه في قبو روسـي لـم يُعرَفْ حتى اللحظة إن كان يعود لشرطة المطار، أم أمن الدولة، أم كان تحت سلطة إحدى المافيات.

حين كانا جالسـين في بار المطار تحاشـى سـؤال حسـام الذي لا بد منه. حـاول ألا يقتـرب مـن السـؤال، رغـم رغبته فـي الصميـم معرفة الأسباب. سـيصعب علـى حسـام الإجابـة. وربما يـود حسـام الفضفضة ولكنه خشـي

أيضاً ردة الفعل. لم يكن الجميع على دراية بقلب فاضل المتعَب. قد يكون انفعالاً أو إجهاداً. ذلك كلُّ ما قيل. وتداعى حسام من دون أن يشعر - أنتَ تعرف الأطباء، هُمْ كما هُم وأجوبتهم. لا يمكن تأكيد سبب السكتة الدماغية التي أصابته وأدّت إلى وفاته. أشار إلى النوبة القلبية التي تعرّض لها فاضل تحت التعذيب وهو شاب جامعي، حين تم زجّه في التوقيف. تذكر كل منهما الواقعة الأليمة الوحشية. كان جسده يحمل ندوباً. نعم. في مديرية الأمن في البصرة، غاب في أقبيتها تسعة أشهر. كانت لديه مشاكل في القلب. ذلك كان بمعرض الأسئلة، من قبل الطبيب الألماني في المستشفى. أنتَ تذكر يا وائل كيف....، أسلوب حياته الأكثر صحة، فاضل ينام باكراً، يمارس الرياضة، لا يدخن ولا يشرب غير الماء... يختنق حسام بالكلمات ويتوقف عن الحديث.

هما متفقان. بالأحرى كانا متفقين على الأغلب. لا مقارنة بين ما تعرّضا له، وما تعرّض له فاضل في حياته. ما تلقّاه وائل لم يكن تعذيباً بمعنى الكلمة، لكنه من أسوأ ما يكون. همجية الموقوفين لا توصف، كانوا خليطاً من أعراق روسية، ومن العصابات، وأجانب أيضاً متورطين في جرائم، من ضمنها عمليات تهريب ضخمة. وائل ألفى نفسه يذكر لحسام تفاصيل سجنه لأول مرة. لا أحد يعرف بشأن إعادته إلى عمّان، وهي النقطة التي انطلقوا منها. من هناك كرّر محاولاته من جديد. رفسة حديدية من قبل موقوف جواره، تلقّاها في جانبه وأودت بنقله في سيارة إسعاف إلى مستشفى روسي. بهذه الطريقة خرج من ذلك القبو، وكانت الدليل الدامغ على أمر قبول لجوئه... أين فاضل ليسمع هذا؟!

كان حسام ينصت إلى صوت تحرّك عقربي الساعة فوق رأسيهما في تلك الزاوية من البار في مطار كوبنهاجن. يخترقه هذا الصمم الذي يهاجمه فجأة ويغيب فجأة. كما الضوء من نوافذ الأسقف الذي كان يسطع لينسحب. تناهى إلى أسماعه قرع أجراس كنيسة بعيد. سرت في جسده رعشة. تمنى حينها لو يظل معلّقاً في صالة الترانزيت، مع وائل إلى الأبد.

حالـة حداد خلعَتها عليهما أجواء المطار. على هذه الطاولة في البار، في هـذا المكان البارد انطلقـت أحاديث لا على التعيين، أثارت غثياناً فيهما فيما بعد. ربما لاسـتغراقهما في الحديث ببطن فارغ. ربما كان بسبب الحرث، أو الوعـظ، أو تبادل الاتهامـات. تقاطعا وتعارضا، ولكن ما أثـار وائل هو قلقه من حالة حسام:

– ألـم يكـن ذلك كل ما تمنّـاه فاضل؟ ما الذي كانـت عليه أحلامه حيال تلك الرحلة؟ ألم تكن طاولة وهذراً؟

– وربما بعض من بكاء، مزيد من ضحك وسخرية.

– ربما تقرّب ودفء وصدق. أنتَ لم تسأل عن أهلكَ مذ وفاة والدك.

– لا شيء لا يفرغ من محتواه.

–كان فاضل يزور أهلي وأهلكَ بانتظام.

– طيب، ها هو قد رحل. دعنا نتنفس الصعداء الآن إذن. ماذا بعد؟

– خائـف. هـل تريد حقّـاً أن تعرف مـاذا بعد؟ كان فاضل يـودّ أن يذكّرنا حقيقةً بأهلنا

– سذاجة، أنت لم تعد طفلاً. هل تصدّق هذا؟

–نعم، عشـنا ونعيش لأنفسـنا، نسـينا من نحن، ما هم عليـه، لدينا حياتنا المرفّهة ومشاغلنا التافهة المكررة، نحن مخدوعون بصور يا وائل.

– أنت سـكران، كفى، كم أبغضُ هذه المزايـدات، وهم أفضل حالاً منا، أسعد منا.

– أمقت ذلك.

– عاطفية زائدة لا نفع فيها، تقطّعت خيوط الوصل فيما بيننا.

–لا إرغام في العاطفة.

– نعم، وفي إدامة التواصل المزيّف هذا.

– أنتَ كما وصفك أخوك نائل، لديه الحق فاضل في إلحاحه على لقائك.

– فاضل! كان دائماً يظن نفسه بطلاً ثوريّاً، مناضلاً.

– ما اعتراضك على ذلك؟

–أنا لم أسـمع بشيوعي ورأسـمالي معاً، ومحافظ، لديه قصر وسيارات،

وخادمة تعيش في بيته، يراكم رأس ماله سنة بعد سنة، ويفتح الحساب بعد الآخر في بنوك العالم، يخص بلده وينحاز له ويبكي عليه وباقي الإنسانية كما لو أنها لا تعني شيئاً.

-الحياة هكذا، تتطلب مالاً ورفاهية.

- لا، اختيار، ونحن لم نفهم شيئاً من أنفسنا، ولا ما نريده حتى اللحظة.

- أبوك مات بحسرة سماع صوتك.

- هذا تدخّل مرفوض، ولغة عفا عليها الزمن.

- لم تفكر بزيارة البصرة ولا لمرة واحدة.

- لا يهمني ما تقوله، وأنا لم أفهم حقيقة توق فاضل، إلى ماذا، وملاحقاته تلك، هل كان نبيّاً؟ فاضل الوحيد الذي عاد وكأنه لم يعش سنوات طويلة في الخارج.

- ما الذي تودّ قوله؟

-العقل هو المعيار الوحيد عندي.

-في ماذا؟

- في صواب القرار، للحقيقة.

- وهو؟

- رومانسي ثوري لفظيّاً فقط، يبخّرونه بدخوله وخروجه.

- ولكنه لم يتمنَّ من هذه الرحلة غير رؤية أصدقائه العراقيين مجتمعين فرحين.

- ألا تفهم، إنها نرجسيته، لا ليعيش الأجواء تلك التي عاشها معهم في وقتها، وهذا أسلوب مرفوض عندي، أن نحشر أنفسنا بشؤون وخصوصيات بعضنا، وهي طريقة عيش خانقة، ثم هذا الهوس بمتابعة كل ما هو عراقي.

- آه، صدقتَ والله في هذا، بيني وبينك، ولا أنا.

(ضحك خفيف وصمت)

-أكلات، أغانٍ، شعر وملاحقة أخبار السياسيين، وصور عوائل قديمة، وتنورات أيام السبعينيات الميني جوب، وملوك وشوارع المعقل والميناء وشط العرب.

- أنت على حق، جعلوا حتى العراقي بالداخل يحنّ للباقلاء الجافة.

- لا شيء عن المدن التي يعيشون فيها، عن الثقافة التي تحيطهم، عن اللغة. لا أفهم الوطنية التي يدينون افتقادي لها.

(يشعر وائل بانزعاج وينظر بعيداً متابعاً المسافرين بحركتهم. يهزّ حسام رأسه المنكّس إلى سطح الطاولة مؤيداً. ثم يطلق فجأة كلمته ضاحكاً)

-الشيعة يقولون إن السُّنّة لا يحزنون.

-ماذا؟

-حقيقي، هذا ما يقال عنّا، صار هناك حدٌّ واضح ما بين سنّة وشيعة.

(يضحكان، يرفعان نخب فاضل)

-لهذا لم ندخل بالعملية السياسية.

(ينفجر حسام بالضحك لنكتته هو نفسه)

-شيء لا يصدَّق.

(يقولانها مرة واحدة)

-ولا شيء لا يُصدَّق.

(يقولانها مرة واحدة، كما اعتادا أن يذيلا من قبل كلامهما، وينفجرا بالضحك)

- لكن فاضل كان حقيقة الأكثر التصاقاً بيننا بالوطن، الأشدّ حضوراً فيه والأعمق تجذّراً

(صمت)

-لأنه أضحى غريباً، من دون عائلة، زوجته خليجية.

-لم ألتقها. لا أعرف عنها شيئاً.

- حْبَيْبَهْ جدّاً، وطيبة، لم ينجبا طفلاً، أختاه في إيران، الباقون توفوا.

- لكنه لم يكن ليستقر في مكان حتى يغادره، مذ عرفناه، هل تذكر؟

- طهران، ستوكهولم، الكويت ودبي والبصرة. صداعي قوي.

- لديه تاريخ معذب.

(صمت)

- لا أظن أن حياته تجاوزت في سنواته الأخيرة تقفّي أثر الذكريات التي كان قد عاشها.

-نحن كأننا لا نعرف طريقة أخرى للتخفي غير تلك. هل تدري يا وائل...؟

(صمت)

-وائل.

- نعم.

- تعرف؟

-لا.

-نحن غرباء من دون أن ندري، لا نشعر بما بنا، بروح فاضل، دعنا نعترف، نحن غرباء.

حسام عالياً في الجو وقد حاصره السؤال إلى أين؟ فكّ حزام الأمان ليتناول حقيبة فاضل مِن على الأرض عند قدميه. جرّ المفكرة. ضغطَ بيده على الغلاف. حرقة شديدة في معدته. نادى على المضيّفة التي مرّت به. طلبَ منها برجاء حَبَّتَيْ مسكّن لصداعه وكأساً من الويسكي. لم يغفل الأمر لكنه آثر ألا يسلمها لوائل. ما الذي كانت ستضيفه إلى وائل؟ على العكس، كانت ستكون مصدر ضيق لا داعي له.

بحثَ عن نبض للحياة خلف الكلمات في المفكرة. لا أسماء تفضيل في قاموس الشيخ. ليس هناك تعبير مثل أجمل، أشدّ، أسوأ، إلا ما ندر. فاجعة كمنت في جفاف الأيام. لا نداوة في الحياة بين صفحاتها. في قمة جاهزيتهم ليكونوا مهادنين. لا فرح، لا حزن، لا ارتياح بين الصفحات، كما لو أنه اختار للحياة نغمة خفية ساخرة. وما هو كارثي وهزّ حسام، كان في طريقة تفكيره. «كلّ خطواتنا محكومة بالفشل، ولكن ما علينا إلا أن نسعى كما يسعى الآخرون»! ألم يودّ أن يقول إنّ هذا العالم لا يستحق العيش؟

ألست مُحقّاً إذن؟ كان فاضل سينصت لي هنا في هذه.

حسام وهو يختم قراءتها في الأعالي ضحكَ فجأة. فكّر بأنه نصٌّ أدبي إسكندنافي حديث بامتياز. يكمّمُ الكاتبُ فمَه حينها ويمرّر التعبير عبر فلاتر لا عدّ لها؛ لكي لا تبقى هناك تقريباً من لغة. إنه يشرع بالكتابة، ولا يجد في فمه غير أدوات جارحة ورمل...

أحد تلك النصوص الإسكندنافية نفسها مِن التي كانت معلّمة اللغة السويدية تمدّه بها. ثم يبتسم بسرّه. كأن يكون على سياق؛ الحديقة عارية من الأوراق، البيت بارد، خمدت النار في المدفأة، تناولت قطعة الخبز الأسود من الكيس، وأخرجتُ علبة السردين من الثلاجة. غابت الشمس وفرغ قدح الماء. قرأت صفحتين. صعدتُ إلى غرفة النوم في الطابق العلوي. نظرتُ عبر النافذة، لمحتُ سيارة تدهس طفلاً في الشارع. واصلتِ السيارة طريقها، أسدلتُ الستارة، أطفأت الضوء، وأويتُ إلى الفراش.

يرفع حسام رأسه. الصمت يخيم وقد نام جلّ الركّاب. شعر ببعض من برودة. نظر جانباً في الغيم وغفا.

ما الذي سيفعله والقبطان يحاصره بإعلانه قرب الهبوط ويشكر الركّاب للرحلة التي انتهت على خير وسلام؟

خفق قلبه بشدة بينما كانت عجلات الطائرة تدعك الأرض مرة مرتين ثلاثاً، حتى استقام المسار.

8

كيف نفكر عندما نقبض على أنفسنا عراة، حين نظن أننا طيلة الوقت كنا أذكياء، وكل ما نكتشفه هو أننا نجيد صنع الأقنعة. حين تنكشف حتى سفالاتنا ونفشل في تمرير فهم آخر لأفعالنا؟ تحرّكت الصور في رأس وائل. حاول أن يوجِد لها تسلسلاً معقولاً. عصفت برأسه انتباهات صعدت إلى درجة الخجل من نفسه في كثيرٍ منها. كيف نراهم الذين يقتربون من منعطفات النهاية، في مرحلة ما بعد كل شيء! ما بعد اجتياز أعذار اليفاعة، ما بعد أن تكون مواطناً صالحاً، ما بعد زوج ملتزم مخلص، ما بعد أب وجدّ بمطمح أن تكون مثاليّاً، ما بعد سلسلة من الاختيارات، بعد التقتير والتدبير من أجل إبقاء العائلة على صورتها مترفة مصونة السمعة، محترمة أمام الناس.

استرجع الكثير مما دارَ مع حسام. إشارة غامضة، وصفاً متقشفاً، تعليقات لا معنى لها، كلمات جارحة، لافتة، وأخرى منسية. خشي أن يختلط بعضه مع خيالاته التي انبنت على مرّ السنوات. كان بعيداً، وهذا ليس اكتشافاً جديداً، حسام وفاضل كانا يتقدمانه بالتقاط ما يدور حولهما، وتحسّسه. تهمته أنه كان بعيداً على الدوام. لم يكن مواكباً، وهو حتى هذه اللحظة لم يفهم جيداً ما يعنيه الواقع. وما المشكلة لو كان فوق الواقع؟ أي نسخة من الواقع تلك التي نقلها إليه حسام؟ كانت لديه أسئلة جديدة، ولكنه أحجم عن طرحها. ما الذي ألمّ به، وهو لم تكن لديه يوماً رغبة حتى في المقاطعة؟ ظلّ يوهم نفسه بتشبّثه بالنقطة المركزية: ببساطة هو ليس لديه أدنى اعتراض بشأن أحد.

وائل أُخِذَ تماماً بإطلالة «جود لو»؛ الممثل الإنجليزي الذي ظهر أمامه في عرض مسرحي حي مباشر. اعتلى الخشبة في مسرحٍ حديث متقشّف بكواليسه في الهواء الطلق، على مبعدة خمسة أمتار منه، وسيماً، منتصب

القامة، بشَعْرٍ أشعث، يرتدي ملابس يوم عادي، قمصلة جلدية ضيقة وجينزاً أسود ضيقاً. إحدى الليالي الصيفية الآسرة التي لا تُنسى لوائل. كان العرض المسرحي في قلعة كرونبورغ العظيمة التي اختارها شكسبير مسرحاً تدور فيه أحداث حياة الأمير هاملت. للسماء دور هام في لمّ عناصر تلك اللحظة بوحدة واحدة. لونها بزرقة نقية، والضوء الذي انهمرَ ليسبق كل ما يمكن أن تلتفت إليه في هذه المدينة القديمة هيلسينغور. إبهار في السلطة والمعمار والغنى الذي كان علامة من علامات المملكة الدنماركية حينها، ما أوصلَ صيتها إلى أسماع المسرحيين في لندن، وحفّز الكاتب المسرحي في أول القرن السابع عشر على اختيارها لتجري فيها الأحداث. كم بدا هاملت تائهاً شارداً محتدماً منتقماً ضعيفاً. لم يكن غيره تحت بقعة الضوء، هو والصمت فقط على خشبة المسرح العاري ما أدارَ العرض. لغة عظيمة. عدا ذلك لم يكن مهمّاً. العرض، المدينة، الكواليس والصديقة. وحده الأمير هاملت بصوته المبحوح الجريح المُحبَط. هو الذي جَرَفَه. الصوت الذي ينطوي على تنازل وخيبة. الالتفاتة المحسوبة لروح هائمة. الأمير الإنجليزي الذي خطف قلوب الصبايا الدنماركيات اللائي انتظرنه بانتهاء العرض ليخطفن توقيعاً. كان وائل بمرافقة صديقة تركية، تركته وهرعت منتظمة بالطابور من أجل صورة. ولأنه انفصل عنها أيضاً بمتعة حضوره فقد عدّ تجربته تستحق المبلغ الذي دفعه من أجل التذكرتين.

هاملت كان يراهن على عدالة هوراشيو ووفائه من أجل أن يكتب قصّته. كان الوحيد الذي يطمئن إليه: «آه يا إلهي، هوراشيو، تعلم كم سيُجَرّح اسمي من بعدي، لو ظلت الأشياء هكذا مجهولة...»، توسّل إليه أن يحتمل العالم القاسي، وألا ينتحر من أجل أن يحكي قصته. ومات هاملت بين ذراعي صديقه تاركاً له نقل القصة كما كانت، أو كما كان هاملت يراها، أو هوراشيو. ولماذا كتب شكسبير هاملت؟ هل كانت قصته؟ هل شَعَرَ بالعجز إزاء نقل حقيقة ما حاصره؟ ربما لم يكن أمامه غير فبركة نسخة تنصفه هو!

اثنان في واحد، لقاء ووداع في آن. ضَحِكا قليلاً، نسبيّاً كانا هادئين. ظلّت ترددات حواراتهما في رأس وائل وليس مبالغة أن يعزو أرقه إلى صدى ما دار في اللقاء. حاول أن يوضّح لحسام سبب انقطاعه، ولم يكن مرغماً على ذلك هذه المرة، ولكنها كادت أن تكون وسيلته الوحيدة للتخلّص من الموقف. حامت من حوله محاولة انتحار حسام السخيفة. تجربته ما زالت حارة هازّة مع فقدان فاضل. تخيفه هذه الأفعال. نظر مليّاً في وجه حسام ليرى ما إذا كانت الفكرة تجول في ذهنه. لا يعرف حقيقة وضعه. أقلَقَته الهالات الزرق تحت عينيه. هل سيقدم على محاولة جديدة؟ لكن صوته بدا بعد كل السنوات أكثر حدّة. لا يدري إن كان هذا يعني أنه كان أكثر استعداداً لاحتمال القادم.

وائل من بينهم لم تكن لديه قضية لجوء نافذة. لم يكن تبعية، لم يكن معوّق حرب، ولم يكن منضمّاً إلى حزب معارض. كان مُضطهِداً لنفسه، كما اعتاد فاضل أن يصفه، إن كان بالإمكان تسمية هذا بقضية. نظر وما زال ينظر إلى حياته بشيء من التعجّب. إما أن تقبل كل شيء وتبقى في مكانكَ وتعالجه، وإما أن تترك كل شيء ومن دون شكوى وبكاء. وهو قد ترك كل شيء حقّاً، وتكفّل بتمكين نفسه بالصبر والتحمّل. طرح من فكرِه خيار العودة تماماً. وحسام الذي لربما افتقد فاضل لحظة لقائه بوائل، حاول أن يملأ القليل من الفراغ الذي تركه متلبّساً روح صديقهما الغائب.

-لن تقبل بكَ امرأة يا رجل! ما زالت النساء تطلب ذَهَباً هناك.

ما الذي ينقصُه؟ كاد أن يوجّه سؤاله إلى حسام من أجل أن يُذكّره بما ظنّ أن صديقه ابتعد عنه. لا يمكنه أن يفكر بشيء آخر يدفعه إلى المواصلة بتماسك غير قناعته بما لديه. اكتفى وائل مذ وصوله الدنمارك بوظيفته كتقني وقضى سنواته في ذات المعمل للإلكترونيات. ذلك ضَمِنَ له الشقة الصغيرة المتواضعة التي يعيش فيها، والسيارة القديمة الوفية. لكن حسام ظلّ، بروح فاضل التي تلبّسته يشير إلى ضرورة تحسينه لوضعه.

كيف تُدار لقاءات من هذا النوع؟ ذلك ما كان يشغل فكر وائل. كيف يكون التواصل الحقيقي ممكناً بعد فراق وانقطاع دام سنوات. اختلفت خلالها

قيمهم، نظراتهم الإنسانية، صورهم عن العالم. لا يفهم قدرة الأصدقاء على التواصل رغم المسافة والانقطاع. اختلفت حتى النكتة. هل يعدها علاقات صداقة حقيقية، هل هو تواصل، وهل هي مفروضة هذه العلاقات، ولماذا؟ ما الحاجة إليها؟ ولربما كان حسام أقرب إلى وائل من غيره، على الأقل عبر إقراره باختلافهم جميعاً بعضهم عن بعض، وعزوفه عن خوض جدالات لا بداية لها ولا نهاية كانت تدور فيما بينهم.

استرخت شفة حسام السفلى تماماً، ولكي يجيد القيام بدور فاضل في الوصاية حتى النهاية علّق شبه ساخرٍ حينها، وهو يضرب على سطح الطاولة بيده اليسرى قائلاً:

– فقر الرجل المقيم في دولة أوروبية نكتة حقيقية في الشرق الأوسط.

لكن بانْ اخترقت وائل من جانب كان غافلاً عنه. صديقة أخته وفاء التي عرفَ من خلالها عن عائلته، أكثر مما سمحتْ له العائلةُ بمعرفته. بانْ كانت مجرد اسم وصوت في البدء، من خلال تراسلها معه. ذلك وحده أخلّ بالتدريج بإيقاع يومه! صار لها حضور لم يرغب بالاعتراف به مع نفسه! ألفة، وبكل أخطائها الإملائية، آلت لاحقاً إلى الاعتياد. ثم انتظمت المكالمات بينهما صوتيّاً بين مساء ومساء. لم يعرف، إن كان لفضولها أم لفضوله، ولا كيف تحولت إلى صوت وصورة. استحوذت، عبر آلاف الأميال على الوقت المتوفر لديه. شيئاً فشيئاً زحفت إلى ساعات النهار والليل على السواء. عدّ الأمر محض تهذّب منه، مجاملة لتعارفٍ حدثَ عبر العائلة، وإن كان سرّياً. كان ارتباطاً يطرح أسئلة تدفعه إلى الانسحاب وإن كان بالتدريج منه. باختصار، يا وائل أين كنتَ من حياتك؟

نَدِمَ على ذكر قصة تعارفهما لحسام. شَعَرَ لحظتَها بأنه مسؤول عن درجة تشبّث صديقه بالحياة. أراد ببوحه أن يحسسه بقيمة الصداقة التي بينهما. في لحظة جرّته الحماسة إلى قول كل ما يأتي بباله، ليشدّد على أهمية الرابطة

التـي ما زالت بينهما. لم يسـرد كلّ مـا دار بينه وبين بانْ، ولكـن القليل، لفظ اسمها وحده، كان قد ضايقه لاحقاً، حين فلَتَ لسانه وجاء على ذكره. أخبَره بأنها على العموم قصة انتهت، بعد أن ألغت هي كلّ حساباته، ولم يعد اتصاله بها ممكناً.

كانت جسـورة في جرّه إلى المكان لمعايشـتِه من جديـد، ومُحرّضة إلى درجـة خلقت لديـه إزعاجاً كبيراً، وهـي تنقل إليه تفاصيل منتقـاة من حياته. خبرة مُحيرة بالدوران من حوله وتشـمّمه مثل عظمـة. كانت قريبة من عائلته التي لم يفكّ هو ألغازها، والتي اخترقتها هي بحدسها في أكثر من جانب. سِرُّ صمت الوالد الذي ظنوا سـببه الكآبة. وبّختْه بطريقتها غير المباشرة. تذبذبُ أخته وفاء بتواصلها معه اقترنَ بحياتها الجافة مع الذكور، أخويها، هو ونائل؛ ابنهـا، ووالدهـا، وزوجها المتوفى. لم تكن وفاء مرئيـة، وهم لا يدورون في غيـر عالمهم، مصابيـن بعمى أنانيتهم. حكَتْ له بانْ عـن اقتراب الحرب من البيـت أيضاً فـي فترة احتـدام الصراع الطائفـي. التهديدات التـي تلقوها من أفراد ميليشـيات لا شـأن للمحلة بها. رسـائل كانت تُقذَف من خلف السياج تبثّ الرعب فيهم. حدّثته عن سلامة الأرواح فحسب، بينما لم يعد هناك من شيء، ما بين انتظار وجبة الطعام، وانتظار استلام الراتب آخر الشهر.

هل هو تعريف الحرب الأكثر دقة، أم الإنسـان ما هو إلا الحرب الشعواء القائمة في داخله. يشعلها ليحرق نفسه؟

وحكـى لهـا وائل عـن علاقته وهـو طفل بأبيه. إشـارات وأمثـال قديمة، اختيار أغانٍ كان عبثاً يستمع إلى نصوصها لأجل أن يفهم ما يدور في رؤوس الكبـار. لكـن كان هناك ما لم يكفّ عن تحفيز الطفل ذاك الذي كانه من أجل الترفّع عن الحياة. ذلك كان بتأثير مباشر أو غير مباشر من والده. الحياة التي ما كانت تليق بكليهما. لماذا؟ لا يدري. لم يستطع أن يجيبها عن السؤال. كان جدّه الخارج عن السـرب قد اقترن بسيدة مسـيحية أفرغت البيت من تاريخه وثقافته ليتسع تماماً لتاريخها وثقافتها هي وأطفالها. لربما لاح الحفيدُ الطفل نثارَ ذلك، فاختلّت بعض النسب لديه.

حكى لها عن مشـواره الأسـبوعي مع والده إلى أبي الخصيب. حين كان يُطْلِقـه هنـاك مثل كلب صغير ليعانق حريته. البسـتان المطلّ على النهر كان بمنزلـة ملعب له، ومـن دون أن يرِثَ تلك العلاقة اللصيقـة بالأرض. لم يُبقِ والده وهو آخر الورثة على شيء من تلك الأراضي. تآكلتْ حصّته شيئاً فشيئاً بالاشتباك مع الحياة.

كان وائـل مسـتمعاً غيـر فاعـل. كان صامتاً. ذلـك كما ظنّ هو الأنسـب لوالـده. لـم تبدُ تلك العائلة التي سـكنت أبا الخصيب، بالرجـوع أجيالاً إلى الـوراء، إلا كأنهـا قـد مُنِحت هـذه الأرض لتقرّ وتسـتكين إلى أبـد الآبدين. لكنهـم غادروها واحـداً واحداً. انحبس بداخل وائل جـزء مما كان يدور في فضاء العائلة؛ التي لم تكن تحمل ولاءً لعبد الكريم قاسـم. ليس لخسارتهم، بقدر ما خلّفته الثورة التي قادها. كانوا يرون الذائقة في عموم المجتمع وهي تتردى شيئاً فشيئاً.

يكـرّر أفرادهـا القصـة المروّعة القديمة على أسـماعه، تلـك القصة التي تجـرّدت من هولهـا بمرور السـنين. كيف حاولـوا إخفاء الوالد لفتـرة خوفاً مـن القبض عليه، عندما أتى على تمزيق صورة عبد الكريم، حين رفعها أحدُ طلابه أثناء الدرس أيام الثورة.

استشرف الجدّ بؤس حياته، لو بقي في مكانه فكان أول من خرجَ من عباءة العائلة. لأن السعادة بمفهومهم كانت في قناعة البشر بحياتهم. والمَلّاك ليس إقطاعيّاً، هو فلاح أيضاً، يخرج إلى أرضه مع الفلاحين كل صباح.

ولكن هل كان ذلك مخالفاً للعرف، أم للدين؟ يسـأل وائل أباه. كلاهما. برأيهـم كيف يمكن لابنٍ بـارٍّ ومتعوبٍ عليه أن يطلعَ ليشـتغلَ في الحكومة؟ يكـرّر الوالـد على الابـن وائل القصة مـن دون تنويع أكبر وأوسـع وأوضح. كان مسـوغهم أن لا أحـد يعـرف مصدر المال الـذي تجنيه الدولـة، هل هو مال حلال؟!

درسَ جـدّه فـي المـدارس العثمانيـة أول القـرن العشـرين. ولعـلّ ذلك كان تحديـداً مدعـاة زهـو الأسـرة آنـذاك. أرسـتقراطية التغييـر كان توجهها نحـو العلمانيـة، وحـال حصوله علـى فرصة الدراسـة أكمَلَ الماجستير في

الخـارج. أطلـق الناس عليه لقب كاسِـر التقاليد. لكنه كان أيضـاً مُنحرفاً عن النهج، وفق أهله. بينما ميلهم اتجه إلى التوحّد مع الأرض والله، نَحا هو إلى الدنيا والمعرفة.

سأَلَ بانْ عن مقعد الاسترخاء الذي كان من الجلد.

لم أره.

المقعد ذي الذراعين الخشبيتين في الزاوية من الصالة.

غير موجود.

احتكـره والـده، يحتسـي الكونياك في المسـاءات في كأس مـا زال يذكر كيف كان يضعها على ذراعه.

ماذا عن التخت الخشبي في الممر؟

أي ممرّ؟

في الفسحة ما بين غرفة المعيشة والمطبخ.

أخبرتُكَ، هذا الجانب اقتطع وتمّ تأجيره.

تسـرّبت إليـه رائحة جلـد المقاعد لصيقـة بفخذيـه العاريـين المتعرّقين وهـو يجلس إلـى جانب والـده في سـيارته القديمـة. ألفى نفسـه وهو يقول لهـا إن حياتهمـا معاً، هو ووالده، كمنت في تلك المشـاوير التي كان يقضيها بصحبتـه. كانـا يعودان إلـى البيـت بعينين مصطبغتيـن بالأحمر بسـبب مادة الكلـور (ضحكتها من دون غنـج، ولكن صوتها كان يثيـره)؛ لأن تركيز هذه المادة في حوض السباحة الخاص بالميناء غير محسوب بدقة، ويصل أحياناً حـدّاً لا يحتملـه الجِلْد، ولـم يكن الجو القائظ في طريق العودة من المسـبح ليساعد على تبريد حرقتهما.

مَـنْ كان منا الأكثر عزلة وحـذراً؟ لم يفهم ما كانت تحاول الوصول إليه. أنـتَ، أَمْ والـدك؟ آه. نعم. قـد أدرك أن والده حاول بالتأكيـد ألا يخرجه من الماضي الذي عاشه هو. كان سعيه حثيثاً لئلّا يتذكرا شيئاً آخر عن الحاضر.

كانت فترة فوضى، فحسـام انضمّ في مراهقته، من دون وعي إلى الاتحاد

الوطني لطلبة العراق التابع لحزب البعث الاشتراكي، ليس عن ضغط بل ظنّاً حَسناً منه متأثراً بشعارات العدالة التي كان الحزب يرفعها. أما فاضل فقد تبنى توجّهاً دينياً شيعياً، قبل أن ينتمي إلى الحزب الشيوعي العراقي.

خشي وائل في الحلم ذات ليلة أن تفتح بانْ خزانة ملابسه المبنية في الحائط فتعثر على الملصق المثبّت في الداخل. ذكَرَ لها ذلك. ضَحِكا معاً، وسرّبت له ليلتها نتفاً من أحلامها الحميمة التي أيقظت رغبته بها كاملة. اقتربي. لم تمارس بانْ الجنس كاملاً مع خطيبها الذي طلب فجأة فسخ الخطوبة وهرب. تُكرّر لوائل تلك النقطة. اقتربي أكثر. هي وفق قيم العالم الجمالية ذات جمال متواضع، لكنها شجرة عصية على الانكسار.

كلما اقتربت من الكاميرا تكشّفَت له مواطن جمال جديدة فيها من خلفِ الحِجاب. لم تتخلّ عنه نهاراً، ولكنها حين تشرع بفتحه خلال مكالماتهما الليلية، ينبثق أمامه وجه آخر. ينزل شَعرَها الأسود ليحضن وجهها، عينان لامعتان في الظلمة مثل نجمتين، غالباً ما تخفضهما حياءً مع صوتها. لها وجوه لا حصر لها ما إن تنسجم باللحظة التي تحتال على وعيها. يتكرّر ذلك في كل مرة. وجه آخر جديد متصالح مع نفسه معطاء، غنج وعفوية يشبعانه. شفتان مصبوغتان تثيرانه لساعات بعد انتهاء المكالمة. أحياناً حدّ الإنهاك. هل تعارضت أهواؤه مع ما قوّم نفسه عليه ووعدها به؟

اختبأتْ مراهقة وائل في الظلمة بجانب جهاز الغرامافون (البيكأب) الذي أورثهم الجدّ إياه. عرف ذائقته الموسيقية. عرف توجهات اختياراته للأسطوانات التي حافظت العائلة على سلامتها في أغلفتها المغرية الجذّابة وسلامة ونظافة صوتها. يقلّبها بانبهار وشغف. فرانك سيناترا بقبعة فيدورا الأمريكية الداكنة اللون، التي كان يتمنى بشدة لو كان يملك مثلها، وكانت أول ما اقتناه حين تمكن من ذلك بعد وصوله كوبنهاجن. وهي لا تتقاطع مع قبعات الفاكهة للمغنية الاستعراضية الخفيفة الدم كارمن ميراندا التي يزيّن وجهها الضحوك اللعوب الكثير من الأغلفة من ضمن مجموعة

الإسـطوانات. بانْ لا تعـرف كل هؤلاء. غير مهم. الغرامافـون، هل ما زال؟
لا. لم أره.

كان الغرامافـون من ضمن قطع الأثاث التي تركها الجدّ في بيته في بغداد الأربعينيـات. حينهـا كان قـد تقلّـد منصباً رفيعاً فـي الدولة وغـاب عن حياة العائلـة. نُسِـجَت القصص بشـأنه حدّ الأسـطرة، وقد أفرِدَ للجهـاز ركن كان كالمذبح في صالة الضيوف. كانوا قد أنزلوا عليه مفرشاً مخرّماً، ظهَرَ خشب الطاولـة الصقيل اللامع من بين فتحات زهراته المعقـودة. هل أنتِ متأكدة؟ نعم. وما أهميته؟ قلتُ لكَ إنّ نصف البيت قد تمّ تأجيره.

9

راح يسميها سيسبان للإيقاع الراقص الذي يحمله. بانْ وسيسبان! الاسمان نباتيان، أخضران، عاليان، رفيعان، يتكيفان مع القسوة بكل أشكالها وهي تحطّ كقدر على هؤلاء. لا تحبّ أنفاس تعليقاته كما قالت له. تلك العطوفة والمتعجرفة بوقت واحد. هناك أسماء ثقلها بخفّتها، وحتى رشاقتها بعيدة عن وزنها. مَصَدًّا للريح، وظلّاً. كان لديها طموح أن تكمل دراسة الماجستير بعد أن أنهت دراستها في كلية التربية، علوم تربوية ونفسية. لكنها اكتفت بتعيينها مدرّسة في متوسطة للبنات. لها راتبها وهذا كان المنقذ. إخوتها متزوجون وقد غادروا لتبقى مع أمها المعلّمة المتقاعدة وخالتها. إن تعافت الأولى مرضت الثانية. كنّ الثلاث يستمعن بانتظام إلى نشرات الأخبار، ويُدمِنّ على مشاهدة الأفلام الأجنبية المترجمة. بانْ لا تقرأ إلا قليلًا. ولكنها تتصفّح ما هو موجود على النت، وقد تقرأ بعض القصائد والقصص.

أحبّ وائل قصص الخالة. تتمتع بانْ بموهبة في تقليدها. حين يكون الهواء بارداً ولا يحدث قطع بالتيار الكهربائي. بفعل نسمة الهواء تبدو مرتخية تماماً، وحتى الكون يبدو برمته حينها مرتخياً، سائحاً في إجازة. من خلال التقليد بإمكانها اللعب كما تريد. من خلاله بإمكانه أن يراها كما هي. يرى اختلاجات وجهها وانفعالاته. يقبض على الرضا الذي يسكنها، وقبلها طفولة تحرّك فيه عاطفة خالصة. يعذّبه أحياناً تجنّبها لذِكْر واقع حياتها وما يتطلبه من كفاح. كان يدرك كيف ومتى تودّ أن تجنح معه بعيداً عن عالمها. منذ أن وعت والخالة تتمتع بسعة خيال فريدة، غذّتها الحروب، وأهدَتها حبيباً وهميّاً، لسوء الحظ كان جنديّاً وكان على الخالة تلك انتظاره. كانت الخالة تقطع مِراراً ومن دون إشعار المكالمات التي تدور ما بينهما بعد

منتصف الليل. تنقضّ فجأة على بانْ وتنتزع الهاتف من بين يديها. قد يكون المتصل هو الحبيب. تخاف الخالة من الليل أيضاً، فتترك فراشها أحياناً فجأة في غرفة أختها التي تشخر بسبب الدواء، فتلجأ للنوم في غرفة بانْ.

بانْ امرأته ليلاً. لم تشأ أن تُحدِثَ إقلاقاً في العالم، فكان عليه أن يتبعها في تسلّلها خارجاً. لكن الليل تجزّأ بتلك المكالمات إلى فصول، حين يصدف أن يكتشف وائل في طريقه إلى العمل صباحاً أن ملابسه لا تنسجم مع الأجواء الإسكندنافية خارج شقته. وهي قد تجاوزت فكرة الزواج، والربيع قصير في مناخ مدينتها تلك. كرّرت أنها لا تريد أن تتخذ أحداً زوجاً لها. ولِمَ لا يصدّقها، إن كانت هي نفسها تستنطق ذات الشيء فيه! تقول إنها مجرد امرأة متواضعة، تُرشِّد في استهلاك كل شيء، وتكاد أحلامها أن تكون معدودة. إغواء الهواء الذي ما بينهما، قد جعَلَ من أحلامٍ بعينها تقفز على رأس قائمتها.

راح وائل يتهيأ لمكالماتها وينظر في المرآة كما لو أنه على موعد حقيقي. كانت تحدّثه عن محاولتها اللحاق بالحياة عبر اكتشاف ما لديها معه. لم تفِها الحياة حقها في ذلك، أو هذا ما شعرت به بوضوح معه. كان يغطس في مقعده، منصتاً في الخلفية إلى أغانٍ قديمة جداً تديرها له، من شأنها أن تشوّشَ على صوتها وإنصاته لها. أغانيَ لطالما أضحكَتْه نصوصها في الماضي، ولكنه نسيها تماماً. لا يسمع شيئاً، انتعاشة المشاركة بالأذن والعين توسِّع صدرَه، تنزل أسفلَ، بطيئاً بطيئاً لتبعث الحياة فيه. هل كان ميتاً؟ رفض مواجهة نفسه بهذا، هل كان الفراغ الذي ظنّ أنه كان على الدوام ينشده! هل هو الشوق المضاعف الذي صار يتخلّف إثر كل مكالمة؟

أدهَشتْه مصالحتها مع نفسها، وحتى مع جسدها الذي كشفت له عن جزء كبير منه. تظن أنها حرّة، وهو وأحكامه المسبّقة. حاول أن ينفي ذلك، ثم حاول أن يصحّح لها، كون ما يقوله هو تجاه المجتمع، ولا يستهدفها هي. لكنها لم تبدُ واثقة من كلامه. وعلى الرغم من ذلك فقد قرّرت، أن تخطو تجاه أن تثق به.

مـا الـذي يقف عائقاً فيه حيـال ما تقوله؟! هل هو مـا بداخله، أم عنادها؟ لِمَ يبخل بإظهار شكّه في فهمها لمعنى الحرية. أفهَمَتْه، في الوقت الذي أتيح لهمـا، أن حريتها شـأن خاص، غير قابل للتداول. هي حـرّة في داخلها الذي دَعَتْه إليه، أليس من شأنه أن يكون كافياً؟

لِمَ شعرَ وائل إذن بأن كلّ ما يشي به صوتها كان اتهاماً صريحاً له بالابتعاد، التعالـي، وتـرف الهموم؟ ما السـبب الـذي جعله يقلق بشـأن ثقتها به؟ بدت عائلته في تلك المدينة الهزيلة المنكوبة، في فترة من حياته، كأنها ترفض حقّاً أن تعي ما كانت عليه. انغلقت العائلة على نفسـها. ظلت مكتفية، شأنها شأن الأشـياء من حولهـا بوجودها لا غير. حتى أخته، لَمْ يفهـم لِمَ اكتفت بحياتها قابعـة باقـي حياتها إلى جانـب والدها وابنها. حتى في هـذا الجانب لم تظهر بانْ ارتياحاً.

سـاءلَ نفسـه عبر نغمة صوتها المحرّضة: ماذا عنكَ الآن؟ وكأن السـؤال المؤجل الذي يمقته يحصل على إذنه منها بانعتاقه ليحاصره: ما الذي عالجتَه أنتَ في نفسك يا وائل؟

حين حان موعد إقلاع طائرة حسـام إلى دبي، ودّ لحظة توديعه، لو يتأخر قليلاً ليستمتع بلحظة صفاء ما بينهما. شعَر بأنه مدين له فجأة بالاعتذار. لماذا دارَ كلُّ ذلـك الحـوار؟ لماذا هَـدَرا الوقت بالحفر والنبش فـي ماض لم يعد يعني لأي منهما شـيئا؟ هل كان محض طلب مغفـرةٍ من فاضل ربما؟ انفعَلَ وهو يحضنه. تذكّر كيف دخَلَ عليه فاضل ذات يوم في القسم الداخلي حين كان طالباً في جامعة بغداد، وفاجأه من دون إنذار. تجشّم عناء السفر فقط من أجل أن يراه، إذ اشتاق إليه. وقد دسّ مبلغاً في جيبه، لم ينتبه إليه حين توادعا، ليعود إلى البصرة في اليوم التالي.

من خلف السيجارة التي تلعب في زاوية فمه كان أبوه يردّد: «ما أصابكَ لم يكن ليخطئك، وما أخطأكَ لم يكن ليصيبك»، تلك المقولة كانت تزلزله، هي

بداية لموضوع وخاتمة لموضوع آخر. ولم يفهم ذلك الطفل من المقولة غير أنّ مُذَنّبا قادماً تجاههم، لا محالة وسيصطدم بالأرض وينفيهم. ودّ لو قالها لحسام على سبيل المزاح. كان سينفجر بالضحك وينسى كالطفل ارتعابه.

قاد سيارته ببطء بعودته إلى بيته. اختار الطريق بمحاذاة البحر. مرّ بجدران يصبغها الأولاد بكلماتهم، وهم يطلقون أرجلهم للريح، تحت مسمى «الغرافيتي». عدا الرائحة النفّاذة جدّاً من بعيد، هناك الصوت. يسمع صوتاً كلما مرّ بها. من أين يأتي؟ في الأبعاد الثلاثية للحروف المرسومة على الحيطان: صرخة، ضحكة، استهزاء، انتقام، السطوح الكونكريتية تصبح ناطقة. تتعدّد الأصوات، صوت يريد أن يصحو بداخله، وصوت لا يعرف كيف يناديه. وثالث ميت تماماً.

يطفئ التكييف وينزل زجاج النافذة ليتنسم هواء البحر. أغصان الأشجار القريبة من البحر ارتدت ثوباً مخملياً أصفر. تهبّ نسمات رطبة، تدور مضطربة داخل السيارة. كان دخان سجائر والده يظل يدور ويدور داخل السيارة الرمادية الشيفروليه ببطئها الشديد، كأنها تؤجل نقطة الوصول إلى الهدف لحين انتهاء فضفضة والده. يتخلّل الدخان كل مسامة من مسامات جلده، وجلد رأسه وشعره وثنيات ملابسه وهو طفل. وائل لم يُضرَب مثل أطفال الآخرين. لم يُزجَر أو يُهان مثل فاضل وحسام في طفولتيهما. كان ينعس في مكانه ويسرح بعيداً. اختيارات ما يبثّه المذياع وحدها كانت نوعاً من ممارسة تنويم مغناطيسي ذاتي. لولا النوافذ المفتوحة التي كانت تجعل الهواء يعبث بدخان السيجارة ويبدّدها لملأت فضاء السيارة وفصلته هو ووالده عن العالم.

كان ذلك يحدث له شتاءً حين كانت النوافذ مغلقة، وبسبب تدخين والده المتواصل يكاد أن يختنق، ويغيب عن الوعي، ولكن في ذلك كانت لذة لا يستطيع أن يقاومها.

كان انفصالهما داخل تلك الغيمة عن العالم يوحي إليه بأمر تجرّعهما،

الطفـل وأبيه لما أصابهما معاً من حظّ في هذه الحياة، وما سـيصيبهما. إنهما معاً، متفقان ضمناً على تقاسم القادم من الحياة التي هانَ أمر شطر منها سلفاً، بسبب هذا الوعد والاتفاق، ومن دون حاجة للإفضاء بشيء.

لـم يعتـرض ذلك الطفـل على أبيـه يوماً. لم يعلـن عن ضيقـه بالبنطلون الشـورت الذي فرض عليه ارتداءه، رغم أنه بلـغ من العمر ما يتوجب تماثله مـع ما يرتديـه الأولاد الآخرون من عمره. كان ينادي عليه ليتأكد على الدوام مـن وضـع ياقة قميصه، بينما يودّ هو لو يتلقّف رماد سـيجارته قبل أن يسـقط علـى بنطلونـه ويُحـدِث ثقباً جديـداً. لم تكن أمـه لتحتمل ذلـك، ولن ينجو الاثنان من التقريع.

ازدادت الأصوات وضوحاً بفضلها. لصقتْ بانْ على ذاكرته ورقَ جدرانٍ رخيصاً، ولكنه يُظهر منظراً طبيعيّاً على الأقل، غنيّاً باللون الأخضر. لابد من شلّال وعشب وسعف نخيل على الدوام، قالت: لا بأس، ليغطي على خلفية ما يتشـوه. الحياة ثوبٌ قديم مُرتّق. حتى إنها كفّت عن فتح أبواب أو درفات نوافـذ تُصـدِر صريراً مريبـاً في فضاء الغرف. خشـيت بالفعـل أن ينهار فجأة جدار أو سقف في هذا البيت.

بـدت حيـاة وائـل مسـرحاً، تكثَّفت مـا خلف كواليسـه صـور العلاقات الشكسـبيرية، مـا بين الأصدقاء، الآباء والأمهات، بيـن الأبناء، الوفاء، الغيرة والحـب، الصـدق والزيـف والتفاهـة، المـرض، الغضب، الألـم والموت. اتهمتـه بانْ بالتكبّـر، حتى على أصدقائـه. هي لا تفهم مصدر هـذا. لم تقتنع بتواضعـه المزعـوم. قالتهـا لـه بالحـرف، ولا حتى إنسـانيته. شَـكّكتْ بها. أشـعرته بزيفـه عبر الصـوت. اتهمته بالجهـل لما يدور من حولـه. ادَّعت أنه فضحَ نفسـه بحكمِه المسـبّق على المرأة. كانت تنفعل فجأة هكذا، تطلع من هدوئها الذي يواجهه ما إن تظهر أمامه على شاشـة الهاتف، تظهر عدوانيتها، تلقي بسـخطها على الرجال. تسـاءلتْ بيأس مراراً، وباسـتغراب لتركيبة هذا

العالـم، وليـس عائلته فقط. تناوبه شـعوران خـلال مكالمتهـا، بين الغضب واللـذة. لم يقاطعها. لم تفهم سرّ هـذا التعامل الذي يقوم أساسـاً على كون الآخرين مُعدَمين بلا اسم عائلة، أو نسب. بينما سعادتها كلها كمنت في أنهم تمكنوا عبر الحروب والحصار من الاحتفاظ بغرفة الخطّار القديمة، وطاولة الطعام والبوفيه. هل كان يعي هذا؟ إنها على الأقل تملك تاريخاً مستمرّاً غير مبتورٍ كتاريخ كثيرين. تقشّـفُ أَرَتْه تفاصيله في غرفتها بزهو. كان هناك سرير وخزانة، وطاولة اشـترتها مؤخراً للكمبيوتر ومواد تدريسها. نبتات سعيدات علـى سـدّة النافذة، وبالطبع فِـراشٌ على الأرض يسـتقبل خالتها في حالاتها العاجلة. لا تظنه عرف تلك السعادات الصغيرة التي كانت غامرة حقاً.

ارتطم فجأة طائرٌ ضخم بزجاج السيارة الأمامية. ضغط على الكابح بقوة. ترجّل من السـيارة. لكن الطائر أسـرع بحمل نفسه لحسـن الحظ وانتقل إلى الرصيف المحاذي للبحر. كان يتقلّب بمشيته، متابعاً سيره، بقفزات عرجاء. وقف عند الحاجز الحجري المنخفض للسـاحل يراقب مساره. بين السـاحل وحواف الماء كانت المسـافة التي قطعها الكائن الضخم طويلة قبل أن ينضمّ إلى جوق النوارس التي كانت تحطّ وتعلو على الرمل المبتلّ.

عادت سـرعة العجلات لتتسـق منضمّة إلى مسار السـيارات جهة اليسار من الطريق. أنزَلَ زجاج النافذتين ليتحرّك الهواء في الداخل. تتسـلل دفقات دافئة من هواء البحر، ترافقها أصوات الطبيعة معلنة عن انسـجامها. النوارس الضخمة شرسة كعادتها تهمّ بسرقة غذائها، والشمس قد بدأت بالنزول. لمح في طريقه مدخلاً يقطع امتداد الرصيف فاسـتدار وأوقف السـيارة في موقف سـياراتٍ صغير عند البحـر. تأمّل المنظر. لم ينقشـع كل الضباب بعد أمامه. أفـرادٌ نزلوا إلـى البحر الصيفي بألوانه. بقي جالسـاً في مكانه داخل السـيارة يراقب النوارس المحلّقة من بعيد. هل يعيد اكتشاف سيرته، يرويها لنفسه من جديد، قاصداً محو الأثر؟ يتحرّك الطفل الذي وضعوه داخل الإطار الخشبي المطعّـم بالصدف. ذلـك الطفلِ الذي رفَعَتْـه العائلة بيدها لتعلّقـه عالياً على الجـدار. يقـف أفرادها في صفٍّ واحد متأملين جمـال الصورة. كان عليه أن يرقى على الدوام إلى الذي بداخلها.

هل تعود هذه المعركة حقاً إليك؟ ساءل نفسه. لكنه عاد وهزئ مما قاله، ما معركتك حقّاً في الحياة؟ هل كان هذا سؤالها؟ وكيف لا ترى أنها وعائلتها يعيشان سلسلة من معارك لا خروج منها؟ ولكنها سالمة، وأنتَ ابتعدتَ كثيراً. أنتِ لا ترين ما أنتم فيه. هَوْلَ ما هُمْ فيه. ولكن مهلاً، لمَ الحديث عن معارك وبطولات؟ الطفل ذاك مدّ لسانه في المرآة ساخراً منه. ألم تكن تلك حقارةً منكَ؟!

تركَ الغروب الغابة البشرية خلفه. يتقدّم النعاس اللذيذ. دفع بالمقعد إلى الوراء ومدّد ساقيه. أرجَعَ ظهْرَ المقعد أيضاً وأغمض عينيه وتسرسح في مكانه.

9

يدور وائل في شقته الصغيرة. يدفن وجهه في وسادته. يطلب المغفرة. مِن أين لهذا الرأس والجسد القوة على جمع كل هذه التناقضات؟ بانْ! في اسمها صدى لرغبة حارقة. كيف يتحول الحب إلى نفور، والصدق إلى كذب، في لحظة؟ هل قالَ: حبّ؟! إنه جنونه وحدَه الذي يمدّه بهذه القوة. سلبَتْ منه بغيابها شيئاً. خلخلة في يومه أخافته. لكنه لم يفهم كيف جرؤتْ بانْ وحدّثته بتلك الطريقة. أوشك أن يغفر لها بسرّه. لكن مَنْ تظن نفسها؟ لم يكن بالإمكان احتمال إساءتها. كان لابد من قول ما قاله لها. ما كان يجب أن يسمح لكل ذلك بأن يحدث في حياته.

حسناً، وداعاً، ولكن عليك أن تنتبه. إلى ماذا؟ أنت تقتل العلاقة، لا تسعى إلى إدامتها. ومن أنتِ لتقولي لي هذا؟ كيف انجرا إلى الصدام؟ احتدامٌ ثوّره الاثنان. بدت له لغزاً. كان وحيداً وكانت جَمْعاً. ربما ما جعله يخاف. كان في صوتها الراسخ الصارم ما يؤكد له أنها كثرة بكيانها الصادم. يسمع صوت أنفاسها. كان في ردودها استهزاءٌ ونفورٌ لم يحتملهما. هل كان هو ما جعله يطلب منها الكفّ عن الاتصال به؟ تمنى بشدة اختفاءها من حياته! اشتاق إلى غزو الفراغ لحياته. يحسب ذلك أفضل بكثير. لا يحبّ امتلاء حياته بهذه الطريقة، لا بالحبّ، ولا بالغضب. ولا بتلك النذالة التي أظهرها.

الربح والخسارة في الحياة أمران لا يعنيانه في عالمِ دعي، رغم كل الهتافات والمواثيق. ما زال متشبثاً بهذا. ما هو مادي لم يكن في جوهر حياته قط. ما الذي زاد من توتّره في حياته، ولِمَ التفكير في الأساس بكل هذا؟

ولكن ما الخلل في أن يعود طفلاً؟ مراهقاً؟ المراهقة التي نخافها ونحيلها إلى نزق العمر وتهوّره هي الدم الجديد الحار الذي يشعر عبره الجسد بفتوته.

اختفت سيسبان، مصيرها كان مُعلّقا بكلمةٍ تُفْلِتُها أو يُفْلِتُها. نحن مرهونون بتسلسل أفكار تنتزعها الكلمات منا وتربطها كيفما راق لها. هذا هو ببساطة قدر الكائنات والعلاقات، مرهون بخطأ ما، بمزاج معين، بنظرة.

تلاشى توتّر العوالم السرّية. توقّف اللعب، وبُتِرَت المغامرة.

ضحكَ من نفسه. دخلت الخالة غرفة بانْ خلال عراكهما ذات مرة عبر النقّال، وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. قالت إن نباتاتها العطِشات اتصلْنَ بها لتسقيهن.

شيء ما انبثق سرّاً واختفى سِرّاً. ونحن في العَلن نتبادل نسخاً مختلفة أيضاً. كل من منظوره، ووفق رؤيته وتأويله. ماذا يعني في السرّ، ونحن لدينا أقنعتنا المختلفة، تتحكّم بعلانيةِ وجه وسرية آخر، وفق الموقف؟ وفي نهاية المطاف، ما الذي يخصّ الآخرين، طالما كانت هذه حياتنا الخاصة؟ لقد جننتَ حقّاً يا هذا! هل حقّاً تودّ الاتصال بحسام لتطمئن على وصوله؟ نعم. شعَرَ بقلق حياله. اشتاقَ لفعل هذا، من دون تفكير. لن يعيد حساب ذلك. قبَض على شعوره بتخفّفه من ثقل كبير بقرارِه. لم لا والحالة تستدعي العجلة أيضاً. ثمة خفّة في روحه. لحظة يجب أن تؤبَّد، كالأفق في البعيد.

ضحك وألقى برأسه إلى الوراء. الكون أمامه بكل تناقضاته بدا متزناً. شعور بالراحة يدنو!

10

كم طالت غفوتُه في مقعده؟ استيقظَ منقوعاً بعَرَقِهِ. نظر حسام إلى الساعة في نقّاله. كان قد حلَقَ شَعْرَ رأسه تماماً، وأخذ حمّاماً في بيتهم في البصرة. هو بانتظار وصول وائل، وقد تابعه عبر الهاتف في رحلته التي سيكون مطار البصرة المحطة النهائية فيها. ستكون أخته وفاء وابنها باستقباله في المطار. إنها المرة الأولى التي سيدخل وائل فيها العراق منذ مغادرته.

جلس حسام على كرسي عمّته العريض في الصالة التي تشرف على «الطارمة» المرتفعة بعض الشيء عن مستوى الشارع. تلبّسَتْه صورة أبيه في كبره وهو جالس على ذات الكرسي. الصلعة ذاتها، الوجنتان الممتدتان إلى الأذنين وأسفل إلى الذقن الذي يكاد يختفي، وذلك الجسد المدوّر الذي ازداد رخاوة. تناول نظارته الطبية. عبر زجاج النافذة التي تحتل الجدار بأكمله تقريباً، بإمكانه أن يرى بيت أبي وائل المقابل لهم عبر الشارع. المنظر الجانبي ذاته لبيتهم لم يتغير، تماماً كما كان في طفولتيهما، لولا النخلات التي تمّ اقتلاعها. هناك امتنان للقليل الباقي الذي لم يختفِ. حَرَق الصيف كلتا الحديقتين ولم يصعد من الأرض إلا سياج من أشجار حديثة ذات ورق بحجم صغير ولون أخضر بلاستيكي. تعمّد أن يكون صوت المذياع عالياً بعض الشيء في الخلف. أيُّ مكالمات يتبادلها الرؤساء هذه اللحظة، وما يحدث عند الحدود ما بين الدول، لا شيء مهم أمام القادم. لا ينصح الأطباء حسام ببقائه وحيداً ولا أن يستغرقَ في نقّاله لساعات. لذا كان المهم لديه ما يبعثه صوت المذيعة وصدى فضاء الإذاعة في البيت. ترددات مهدئة لما خلف كواليس الطفولة.

تحدد موعد وصول جثمان فاضل. سيحضران مراسيم الدفن حسب وصيته

في مقبرة الزبير. اتضح أن فاضل قد ذهب بعيداً في احتياطاته حدّ التفكير بتفاصيل تخصّ موته. فكّر ضمنياً ببعد المسافة بالنسبة إلى زوجته بثينة. لو تمّ دفنه في النجف فستصعب عليها زيارته. ولو كان بالإمكان، لآثَرَ البقاء قريباً من بساتين طفولته في القرية المتطامنة وأنهرها. كانت ستتوسّل السكينة لروحه.

تنقّل حسام مذ وصولِه بين مراحل حياته في هذا البيت الذي صار باسم عمّته. عاشت فيه وحيدة في آخر حياتها فانطبع بعض الشيء ببصماتها. عليه تقع مهمةُ إما إبقائه وإعماره، وإما تفريغه وبيعه. أخته ساهرة تلحّ وهو يؤجل. يشعر بخوف حيال كل هذه المسؤوليات التي ألقيت عليه دفعة واحدة.

كان يبتسم في داخله لتخيّل حضور وائل. في حضوره عزاء وعون حقيقيان له. أعاد المفكرة إلى الكيس ووضعها جانباً مِن أجل أن يسلّمها لاحقاً إليه. كان لغز المُرسِل مصدر متعة. لم يكن فاضل يعرف مَن ذا الذي ترك الكيس عند أحد أقربائه. أقسَم لحسام بروح أمّه، أنه لم يحصل على اسمِ مَنْ طلبَ منهم توصيله إلى وائل.

في قاع الكيس سقطت تلك الوثيقة التي كشفت سرّ الأسطر المطلسمة في المفكرة.

هذا إذن هو السرير المزدوج الواسع! عثرَ على صورة في الجارور إلى جانب سرير عمّته في غرفتها. فكّر حسام أن بإمكانه الآن تسليمها إلى وائل من دون تردد. الصورة تعود للأيام الصيفية، والد وائل في عزّ شبابه، جالس في إحدى حدائق نادي المطار متوسطاً الصديقتين. عمّة حسام وأم وائل. الصورة التي كانت الأبقى في الذاكرة في الألبوم بالنسبة إلى حسام. إطارٌ يبوح بطراز من الرُقي والأناقة والدَّلال. أحد مخرجي السينما المفضّلين لديه يذكر أن الكثير الذي نمرّ به لا نراه، إن لم نضعه داخل إطار. حينها فقط يستوقفنا. مثل هذه الصورة. جو الأبيض والأسود يضفي عليها طابع الإحساس بالرخاء. زجاجة البيرة أمامه على الطاولة، وزجاجتا الصودا أمامهما. يتوسط المرأتين الأكثر تأثيراً في مجرى حياته. عيون مدفوعة صوبه، اثنتان لامرأة حارسة، واثنتان لأخرى بانتظار فرصة، امتدت لأكثر من خمسين عاماً.

لم يجد حسام ذلك الملك الغاوي، الكِنْگ جورج كما أسمَتْه عمّته. وغلاف المفكرة كما لو أنه يعود إلى إحدى روايات الرعب. الرجل كان منشغلاً في مواجهة الجانب المنهَك فيه، وشبه الميت. الإطار الذي وضعه لحياته كان في تجنيده التام لنفسه من أجل خدمة عائلته حتى شابَ. لا تراجع ولا انسحاب عنه.

تمار! هي ما زالت بانتظار قرار منه. يقترب همسُها من أذنه. أخبَرتْه عما دار بينها وبين فاضل الذي اتصل بها من دون عِلْمه. حاولَ فاضل إبعادَها عن حسام، من دون أن يُعلِمه بذلك. كان ذلك قبل وفاته. لكن حسام لم يحتمل أن تُهينَ تمار صديقَهُ. وعدَها أن يتصرف وأغلقَ على الموضوع. لم يتمكّن من لومِ فاضل في حينها لتجاوزِه. كان يؤجل الحديث معه كلما سنحت الفرصة وقرَّر مفاتحته، حتى وقَعَ حادث وفاته المفاجئ. كما لم تستطع تمار بسبب الظرف الذي هو فيه أن تذكر شيئاً بخصوص حياتهما معاً. امتنّ حسام بسرّه لها لتفهمها، لكنه بقي صامتاً، حائراً. لم يستقبل مكالمات والد زوجته كذلك. ذلك كان من أجل أن يمنح نفسه وقتاً أطول لإجراء حساباته. جلّ تفكيره انصبّ على ابنتيه، تلك هي معضلته. ما عليه أن يخطّط من أجلهما؟ طفلتاه، صغيرتان تلعبان لعبة الاختفاء معه. استدارَ كَمَنْ يبحث عنهما بين الأثاث.

راحَ فجأة يلتقطُ صُوراً بنقّاله بنهَم عجيب. لكلِّ زاويةٍ في البيت، بمنظورٍ مختلف لكل ركنٍ فيه. كان عليه أن يفرغ الذاكرة ليفسحَ المجال للمزيد والمزيد من الصور. فاضل مَنْ ألحّ عليه ليحصل لهما على نقّال ممتاز. لم يكتفِ بالكاميرا الجديدة التي اشتراها له حسام. طلب منه شراء نقّالٍ يتمتع بكاميرا متميزة، لكي يتمكّن من توثيق الرحلة وعمَلِ ألبومات صور ينشرها عبر وسائل التواصل الاجتماعي ويتبادلها مع أصدقاء الرحلة.

ولكنها الآن لحظة أخرى، اكتنَفَتْه فيها مشاعر غريبة. لم يفهم التردد الذي شَعَر به فجأة حيال بيع البيت. لم يكن هذا البيت يعني له الكثير. فجأة انفصل المكان الذي يقف فيه عن العالم خارجاً. بدت قدماه اللتان تحملانه حالةً مؤقتة، أو أنها ستكون في اللحظة التي تليها مختلفة. قد يختفي هو كله ولا

يعود له وجود. تسرب إليه القلق. تعجّلَ بداخله وصول وائل. انبثقَ دافعٌ لا يمكنه السيطرة عليه، كان يستحثّه للضغط على زرّ التقاط الصورة. وكأن يده تستلمُ إيعازاً مِنْ شخص آخرَ غيرِه. كانت قطع الأثاث ومقابض الأبواب والمصابيح تتجاوب معه وهو يلتقط الصور بطريقة شبه آلية. كأنه يودّ أن يخزِّنَ كيانه ومشاعره في ملف واحد يكون تحت متناول يده.

يقف حسام منتصف الغرفة الملوكية ليلتقط صورةً للسرير الذي اتسع لزوجين وأكثر! الورقة المطوية غير المهترئة تنام على الفراش. فَضّها من جديد. شيءٌ لا يُصَدَّق عقد الزواج هذا المُصدّق للعاشقَيْن. أيتها العمّة اللعينة المنتقمة! لعلّ الكائن يبحث عن قصاصِهِ. لم يسمع فاضل هذا المقطع. كاد يصيح حين وقعت بين يديه: يا فاضل، هذه جمرة ظنّها الرجل العجوز قد خَبَتْ. عمّته العاشقة نامت بين ضلوع الرجل لأكثر من خمسة عقود ولم يعلم أحدٌ بذلك. لم يكن وهماً! انذهلَ كيف نُفِخَ بها فجأة تلك الجمرة!

الله! قد أعلنَ الرجل الشقي عن الهدية، ولم يعلن عن تاريخٍ لِفضّها.

وفي اللحظة التي لمعتِ الفكرة في ذهنه رنّ النقّال. رفعه حسام في الحال وبصوتٍ متلهّفٍ مُرحِّب باشٍّ: بانْ، إنها بانْ يا وائل، شجرة ذكية وثرثارة! ومَن ينفخْ في جمرة قديمة ويشعلها يستحق الحبّ!

كيف لنا ألا ننعم بالهدية التي لم يكن العالم ليملك غير أن يبتسم لها.

ولِمَ الخجل؟ مشاعر كانت مصدر عون له ليحيا ويواصل.

إن لم يفهم حسام ووائل شيئاً بعد في هذه الحياة فقد اقتربا من فهم معنى وحدةِ هذه الكائنات. وليكن وَهْماً حرْقُ تلك المسافة ما بين القلب والعالم. ولربما لن تكون تلك آخر القصص التي تمّ تسريبها من الغرف الشديدة السرّية في البيوت الأكثر محافظة وتديناً!

اسمعْ يا فاضل، اسمع بِشَرَفك ما كتبَه الشيخ بخطّ مرتجف...

الجزء الثاني

تقويم السنة ما قبل الأخيرة

المفكرة المتربّة في كيسها. الرطوبة قد ضاعفت من حجمها، عدا تلك الصور الشاحبة القديمة المدسوسة بين صفحاتها. أغلبها بالأبيض والأسود. كانت هناك أيضاً أوراق إضافية، حُشِرَت لا على التعيين بين الصفحات فحافظت على بياضها، وقد سقط البعض منها في قاع الكيس. نضعها بين يديك، وقد شُطِبَت كلمة مستقبل منها. نحن لا نمتلك غير مفاتيح لفترة تاريخية صاغَتْها تلك الجُمَل المتقشّفة، تفتح ما هو مغلق بعيداً إلى الوراء، وإلى ما تقدّم.

اختلف الأمر أمْ لم يختلف، فهو تاريخ المدينة التي ركبت بحراً مائجاً على الدوام. لابد من راكبيها المتعددي المذهب والفكر من العيش في الاختلاف والانقسام والصراع واقتناص إما لحظة الانقضاض، وإما الإنقاذ.

إنْ كنتَ ستأسف على ما قرأتَ، فهذا احتمال وارد. ربما كنتَ تتمنى على مَن نقل إليك الأوراق لو أبقى عليها كما هي واكتفى بذلك. كنتَ ربما ستحصل على لذّة مُقَطّرة، لو اقتصر الأمر على نقلها بالقلم الرصاص كما هي، مثل واجب طبعِ خريطةٍ مدرسية عبر ورق شفّاف!

* امتدّ التدوين لليوميات في المفكرة لأكثر من عام، تخلل ذلك انقطاع لبضعة أشهر، عاود التدوين بعدها من جديد وواصَلَ حتى وفاته.

تمّ نقل أيام مدونة من بعض الأشهر هنا. منسوخة طبق الأصل بأخطائها. جرى خلال النقل فقط استعادة تسلسلها الزمني التقليدي، ابتداءً من الليلة الأخيرة للعام 2007، تليها بعض الأشهر من العام 2008

يناير 2008

(الإثنين بتاريخ 31 ديسمبر للعام 2007)

قضيت ليلة البارحة (رأس السنة) عند (ف). كانت لوحدها.

الأربعاء 2 يناير 2008

عدت للبيت صباح اليوم الأول للعام الجديد.

الجـو غائم والرياح جنوبية شـرقية. صحتي لم تكن اليـوم جيدة. وبقيت طريح الفراش الظهر. والمعدة.

اتصلت (ف) تسأل عن صحتي.

استلمت اليوم إيجار شقتي من جميلة.

الخميس 3 يناير 2008

الجو غائم جزئي والرياح شمالية غربية. وأنا أحسن من البارحة.

الجمعة 4 يناير 2008

الجو معتدل والرياح شمالية إلى شمالية شرقية والسماء جزئية.

ليلاً دهنتْ وفاء لي ظهري ونمت جيداً.

أصبحت أحسن حالاً.

السبت 5 يناير 2008

الجو معتدل والشمس طالعة.

سدّد حفيدي اليوم ما بذمته، القسط الأخير من ثمن الموبايل.

استدان راتب أمه، وسأستلم أنا راتبها بدلاً عنه.

الأحد 6 يناير 2008

ذكرى تأسيس الجيش. ذكرى وفاة زوجتي.

أرسلنا اليوم الفرن للتصليح عند حسن أبو جاسم.

اتصلت أسال عن إيجار الدار.

وفي الليل اتصلت بابني نائل في الشام.

ستبدأ الامتحانات غداً.

الإثنين 7 يناير 2008

خرجت ابنتي وفاء مع صديقتها بانْ إلى العشار، وذهبت أنا إلى (ف) وعدت ظهراً.

الجو بارد وشديد البرودة في المساء.

اتصل ابني الكبير وائل من كوبنهاجن. يرغب بزيارتنا.

الأربعاء 9 يناير 2008

إنفلونزا. نمت في الفراش.

الخميس 10 يناير 2008

لا أزال نائماً للراحة والاستجمام.

أضافت شركة أثير لي 2 دولار كهدية منها.

اليوم هو الأول من محرم الحرام لسنة 1429

الجمعة 11 يناير 2008

لا أزال نائماً في الفراش ولكني أحسن حالاً.

أعلنت قناة الشرقية أن الثلج سقط فجر اليوم على شمال بغداد ولأول مرة منذ زمن بعيد.

أنا ذهبت لشراء سمكة وسمعت الناس تتحدث بذلك.

السبت 12 يناير 2008

جيد والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

الأحد 13 يناير 2008

الجو بارد والضباب يلف المدينة.

انقشع الضباب قليلاً.

ليس لدينا كهرباء منذ فجر اليوم. جاءت الكهرباء بعد انقطاع دام 28 ساعة.

دخلت الحمام وسبحت ولكن الماء لم يكن حاراً بما يكفي.

الثلاثاء 15 يناير 2008

الجو بارد. منتصف الشهر.

جاء أبو أحمد وأعطاني إيجار الملحق شهر يناير

لم يعد حفيدي اليوم من عمله في المكتب.

الأربعاء 16 يناير 2008

اليوم السابع من محرم الحرام 1429

الجو بارد.

لم أنم البارحة بشكل جيد. قمت اليوم متأخراً.

الخميس 17 يناير 2008

الجو بارد.

أرسَلَ نائل مساء أمس رسالة يسلّم. كتب مع أن البرد شديد لكنه ذهب إلى سوق الحميدية.

الجمعة 18 يناير 2008

يظهر أن الجو أقل برودة من بقية أيام الأسبوع والرياح ضعيفة.

لم أنهض من فراشي البارحة إلا مرة واحدة.

السبت 19 يناير 2008

اليوم هو العاشر من محرم الحرام 1329
عطلة رسمية. الجو اليوم معتدل والسماء ملبدة بالغيوم.
الحمدلله الكهرباء مستمرة.

الأحد 20 يناير 2008

غيوم متفرقة. الكهرباء مقطوعة.

الإثنين 21 يناير 2008

خرجت ابنتي وفاء صباحاً لترى ما جرى للفرن وللتسوق.
جاء أبو جاسم بالفرن ووضعه في محله بالمطبخ.
دخلت الحمّام وسبحت وصليت الظهر وتغدينا
ذهبت بعدها إلى (ف) ونمت عندها حتى المغرب.
وصلت إلينا الوجبة التموينية، تمن، سكر، تايد، ودفعت أجرة النقل.

الثلاثاء 22 يناير 2008

الجو لطيف هناك بعض الغيوم.
اليوم الغداء من يد (ف). دعَتْني إلى دجاجة محشاة ومشوية بالفرن ظهراً، وكذلك شوربة عدس. تغدينا وشربنا الشاي، علماً بأن غدانا كان جاهز، تشريبة شلغم.

الأربعاء 23 يناير 2008

صحتي ليست جيدة. السبب معدتي. لم أتعش ونمت مبكراً.

الخميس 24 يناير 2008

اليوم صحو والرياح شمالية غربية.
أعاد لي حفيدي 16 ورقة أعرتها لهم لحل مشكلة.
بقيت في الفراش وحدي.
اليوم أبدلنا بلك الكهرباء وشكّلنا عليه ماطور الماء وأخذ يملأ التانكي.

الجمعة 25 يناير 2008

الجو غائم جزئي والرياح شمالية غربية بارد نسبياً.

الكهرباء جيدة. فتحنا الماطور لملء التانكي.

اليوم غدانا سمك مشوي بالتنور لذا تأخرنا حتى الثانية والنصف.

تأخر حفيدي اليوم عن العودة من العمل حتى التاسعة والنصف.

السبت 26 يناير 2008

الجو غائم والرياح جنوبية شرقية تتحول إلى شمالية غربية.

أودع جارنا البارحة سيارته في كراجنا.

الأحد 27 يناير 2008

الجو غائم والرياح جنوبية شرقية رطب.

حلقت لحيتي بعد طول انتظار.

الإثنين 28 يناير 2008

الجو مريخان قوي، حتى إني لا أشاهد بيت (ف) عبر الشارع.

رطب وبارد ولا كهرباء.

الثلاثاء 29 يناير 2008

الشمس مشرقة والرياح جنوبية شرقية.

بدأت أوزع زكاة هذه السنة.

الأربعاء 30 يناير 2008

الجو دافئ والرياح جنوبية شرقية.

انقطعت الكهرباء الساعة العاشرة صباحاً.

خرجت اليوم الساعة العاشرة.

الجو حلو. التقيت بجارنا. جارتهم بنت مشلولة. وعدته خيراً.

الخميس 31 يناير 2008

الجو غائم والرياح شمالية والبرد لطيف.

قررت أن أسبح اليوم، ولكن الكهرباء ظلت مقطوعة وليس هناك ماء حار، لذا قررت تأجيل ذلك إلى الغد.

فبراير 2008

الجمعة 1 فبراير 2008

الجو غائم وبارد.

جاءت الكهرباء الساعة العاشرة والنصف.

دخلت الحمام سبحت وخرجت وصليت الصبح قضاء.

ذهبت وفاء مع صديقتها لزيارة أم الأيتام في المحلة.

عادت عند انقطاع الكهرباء الساعة 11 صباحاً.

غدانا صبور دهين جيد جداً.

السبت 2 فبراير 2008

الجو مشرق والرياح شمالية غربية باردة.

لا يوجد كهربا صباحاً.

أعطيت سجّاد زكاته.

أنزلنا الصوبة الهيلوجوتية الدوّارة للعمل في الممر.

اتصلت ب (ف). المشترك لا يرد.

3 فبراير 2008

الجو لطيف والشمس مشرقة.

رفعنا الصوبة أم الفحم والصغيرة المكسورة.

صعدت وفاء لغسل الملابس.

سقيت الحديقة وملأت البراميل.

اتصلت ب (ف) كذلك. قيل لي المشترك لا يرد وكانت الساعة 12 ظهراً عند انقطاع الكهرباء.

سمع وائل عما يجري. حذرهم عبد الغفور من المجيء للعراق.
حلقت ذقني اليوم صباحاً.
استلمت إيجار شقتي 300.000 دينار.
جاء أبو زهراء وأخذ حصته من الزكاة. أوصيته بخصوص البنت المشلولة، وفعلاً جاء جاره واستلم حصتها.

الإثنين 4 فبراير 2008

قوائم التقاعد لم تأت من بغداد بعد. أدخلت ما عندي بالمصرف.
اشتريت الصمون وعدت للبيت.
مررت ب (ف).

الثلاثاء 6 فبراير 2008 (بخطّ راجف)

بدا المرض والإسهال. أخذت انتروستوب والبيسكوبان واللبريكس. انقطاع البول.

الأربعاء 7 فبراير 2008

عصراً ذهبنا إلى الدكتور. وضع لي صوندة للبول بعد أخذ السونار.

السبت 9 فبراير 2008

ذهبنا إلى الدكتور. رفع الصوندة ولكن ظل البول منقطعاً.

الأحد 10 فبراير 2008

ذهبنا إلى الدكتور في المستشفى وأعاد الصوندة. لم نجد دكتور محمد.

الإثنين 11 فبراير 2008

ذهبنا إلى د. محمد في المستشفى. فحصني وطلب فحص دم. كانت النتائج جيدة وبعضها غير مشجعة جداً. يرغب في الانتظار لمدة شهر.
الهيموغلوبين 117، الترسب 60، ونتيجة الزرع مختلفة بين العالي جداً والطبيعي.

فبراير 13 فبراير 2008

اليوم خرجت بطني ولو أنه قليل.

الجو دافئ مريح.

ذهبت وفاء عصراً للاستفسار من د. محمد عن العلاج ومدّته وكيفية أخذه.

الخميس 14 فبراير 2008

«وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

الجمعة 15 فبراير 2008

الجو صحو والشمس ساطعة.

بعد أن أفطرت مرت بنا بان، وذهبت مع وفاء للسوق ليشتروا سمكاً.

أعطيت وفاء 25 ألف دينار لتشتري لي كارتون 7 أب.

السبت 16 فبراير 2008

بدأ الجو يصفو والغبار يرسب. الرياح شمالية غربية.

في رأسي دوخة. الضغط واطي.

جاءت وفاء، غسلت الكراج وسقت الحديقة وملأت التانكي.

اتصل ابني وائل وتكلّم كثيراً وطمأنته على صحتي.

الأحد 17 فبراير 2008

ترسب الغبار والجو دافئ.

أنا دايخ. لم نستطع الاتصال بالدكتور لذا اتصلت بأمه. أعطتنا ما سألناه بعد أن سألته.

اتصل نائل. يحتاج هويته. سنرسلها له مع وجبة المواد الغذائية.

الخميس 21 فبراير 2008

الجو صحو. قليل الغبار وبارد.

يريد د. محمد أن يبقي الصوندة لمدة شهر كامل، وبعدها إن رفعها ولم ينزل الإدرار فليس هناك أمامي غير العملية.

الجمعة 22 فبراير 2008

ابنة الحجي ستسافر إلى الإمارات.
جاءنا الحاج فاضل ليجمع البطاقات التموينية لتزويدنا بالنفط الأبيض.
اتصل وائل يستفسر عن أحوالنا.

السبت 23 فبراير 2008

الجو لطيف مائل للبرودة. بدا الزرع يورد.

الأحد 24 فبراير 2008

الجو لطيف دافئ. خرجت وفاء إلى السوق.
جاءت (ف) ونحن نتعشى.
اتصل نائل يسأل ويستفسر.

الإثنين 25 فبراير 2008

الجو دافئ والرياح جنوبية شرقية.
لاحظنا وجود جراحة في أنبوب الإدرار، لذا ذهب حفيدي إلى د. محمد للاستفسار. عاد بعد أن طمأنه.
طلب منه فحص الإدرار ليعرف ما سيعطي. فحصنا الإدرار، ولم نجد د. محمد في العيادة.
دخلت الحمام عصراً وسبحت وخرجت وصليت والحمدلله.
جاء حفيدي بالهويات المستنسخة وشهادات الجنسية.
ذهبت وفاء واستلمت راتبها، ولكنها تأخرت نظراً للازدحام وعدم وجود الأموال في البنك.

الثلاثاء 26 فبراير 2008

الجو غائم مغبر ودافئ.

اتصلنا بالدكتور لمعرفة أين سيكون لجلب نتيجة الفحص.

أودعنا استنساخ الهويات لدى وكيل المواد الغذائية.

ليس هناك شيء في فحص الإدرار، ومع ذلك أعطاني الدكتور مضاد حيوي له.

أبدل حفيدي كيس الإدرار.

الأربعاء 27 فبراير 2008

خرجت بطني. حلقت لحيتي.

غسلتْ وفاء الكراج. ملأت تانكي الماء.

الخميس 28 فبراير 2008

الجو دافئ وهناك ضباب في الجو.

في رأسي دوخة خفيفة وضعف.

الجمعة 29 فبراير 2008

الدوخة أقل من البارحة.

جاء أبو ناجي من أبي الخصيب لتصليح حنفية الحديقة وعاين مضخة الماء وسيعود لينقلها بسيارته. ليس متأكداً من إمكانية تصليحها.

اتصلت (ف) تسأل عن أحوالي.

شهر مارس 2008

السبت 1 مارس 2008

استلمت راتبي بعد تعديل قانون التقاعد وهناك خطأ ويجب أن أعترض.

الأحد 2 مارس 2008

الجو غائم جزئي دافئ.

ذهبت إلى الحمام صباحاً. طلعت بطني.

استلمت اليوم الراتب التقاعدي المعدّل بعد صدور قانون التقاعد.

الإثنين 3 مارس 2008

الجو دافئ والرياح شمالية غربية.

أنا أحسن حالاً.

بعد الفطور ذهبت إلى الحمام.

ذهبنا مجدداً إلى المستشفى لإجراء تحاليل دم. ظهرت بعض النتائج والباقي غداً بعد الثالثة ظهراً.

استلمتُ من بان قيمة تنكة التمر.

الأربعاء 5 مارس 2008

جاء حفيدي بباقي النتائج. غير مبشرة. لنر ما سيقرره الطبيب.

الخميس 6 مارس 2008

أعطاني الطبيب التعليمات، ورفع الصوندة.

اتصلت من أجل حجز حلاوة نهر خوز.

الجمعة 7 مارس 2008 (بخط واضح مستقيم)

حالتي ليست على مايرام. حرقة أثناء التبول. الإدرار قليل وأشعر بتعب.
اتصل وائل من كوبنهاجن ليطمئن على أحوالي.
اتصلت بالمصلّح بشأن ثلاجة وفاء.
ذهبت وفاء للبحث عن خطيبة لابنها. عادت مرتاحة من مقابلة الفتاة.

السبت 8 مارس 2008

الجو مغبر.
الدوخة ضاربة أطنابها.
استلمنا نتائج تحليل الدم وبانتظار الزرع.
عادني أبو مظفر.
جاء مصلّح الثلاجة لنقلها للتصليح فكسر مقبض الفريزر.

الأحد 9 مارس 2008

ذهبت إلى د. أحمد. أعطاني ورقة دخول إلى المستشفى الأحد القادم.
شدّ لي صوندة فنزل الإدرار بالكيس.
طلب فحص للقلب وأعطاني ورقة دخول للمستشفى.

الإثنين 10 مارس 2008

لم نحصل على أي طبيب. إضراب بسبب اغتيال مدير مستشفى الصدر.
أخذت حماماً.

الأربعاء 12 مارس 2008

الجو حار.
جاءت الحصة التموينية.
مرّ أبو أحمد. قال وجبة التموين من الأمم المتحدة في دمشق رز وشاي محترمة، كمية ونوعية.
سألت نائل عن إمكانية السفر وإجراء العملية في دمشق مادام هو هناك.

السبت 15مارس 2088

ذهب حفيدي إلى مستشفى الموسوي وتم الاتفاق على موعد العملية. علينا دفع تأمينات مليون ونصف عدا أجور الطبيب الجراح.

ذهب حفيدي صباحاً ليحجز لي موعداً في المختبر. انتظر حتى الظهر.

جاء موعدي فأخذوا لي تخطيطاً للقلب، فحص الضغط، تحاليل الدم. عدنا إلى البيت. سيجهزون التقرير الطبي.

تناولنا الغداء ونمنا.

اتصلت بالعامل المصري بشأن تسليك المجاري. قال إنهم قاموا بذلك وإن انسدت سيقوم بذلك من جديد.

اتصلت ب د. أحمد. أبلغني أن صالة العمليات مغلقة لثلاثة أسابيع.

حفيدي سيسلمه التقرير الطبي غداً صباحاً.

الأحد 16 مارس 2008

الجو مغبر وبارد.

أخذني حفيدي إلى المختبر لمعرفة فصيلة الدم O+ سيهيئ عبوتين دم لإيداعها في المستشفى.

عدنا مشياً على الأقدام إلى البيت.

تبرع اثنان من أصدقاء حفيدي، وتمكنا من إيداع العبوتين في مستشفى الموسوي.

الثلاثاء 18 مارس 2008

بعد الإفطار سأذهب إلى مستشفى الموسوي الأهلي لإجراء عملية رفع البروستات عصراً الساعة الخامسة.

الخميس 20 مارس 2008

صباحاً خرجت من المستشفى.

الثلاثاء 25 مارس 2008

بدأت معركة جيش المهدي مع القوات العراقية[1].

السبت 29 مارس 2008 (بخط واهن جداً)

ملأنا ماء عن طريق جارتنا.

أخذت حماماً.

الإثنين 31 مارس 2008

الماء قوي لذا فتحتْ وفاء مضخة الماء، وملأت الخزان وسقيت الحديقة، وغسلت الكراج.

1- في شهر مارس من عام 2008 شنت الحكومة العراقية عملية عسكرية واسعة النطاق في جنوب العراق بشكل خاص لاستعادة السيطرة الأمنية نتيجة حدوث اضطرابات هدّدت استقرار المنطقة، وسميت صولة الفرسان.

شهر أبريل 2008

الخميس 3 أبريل 2008

بدأت اليوم بتناول حبوب فلوتاميد flutamid. هورمونات 3 حبات باليوم لمدة 6 أشهر.

ذهب حفيدي إلى السوق بحثاً عن الدواء. حصلنا على نوع فنلندي.

الأربعاء 8 أبريل 2008

جاءت (ف) وزرقتها إبرة وعادت إلى بيتهم.

الخميس 10 أبريل 2008

استلمت إيجار شقتي. كما استلمتْ أم صباح من البنك راتبي التقاعدي. ستذهب وفاء وابنها غداً لاستلامه منها.

الجمعة 11 أبريل 2008

عصراً زوبعة ترابية حمراء، بعدها أمطرت حالوب. حالوب كثيف.

الإثنين 13 أبريل 2008

الجو لطيف وصاف من الغبار.

حلقت لحيتي وعبرت إلى (ف).

عصراً داهم الجيش بيوت الحواسم في آخر الشارع.

الأحد 14 أبريل 2008

صباح اليوم قامت مداهمات من قبل الجيش لبيت جارنا جاسم وبيت أبو زكي. خلقوا لنا مشكلة.

اتصلنا بدائرة التقاعد، ولكن الموظفة مجازة بسبب مرض والدتها.

الثلاثاء 15 أبريل 2008

اليوم نهضت بنشاط، حتى إني حرّكت جسمي بحركات سويدية.

الأربعاء 16 أبريل 2008

ذهبتْ وفاء لتقديم اعتراض في دائرة التقاعد. لم يقبلوا بالاعتراض. علينا مراجعة بغداد، لذا سأكلف أحداً ما في بغداد وأتوكل على الله.

قيمة كيس الطحين 8 آلاف دينار.

اشتريت اليوم علبة سجائر.

الخميس 17 أبريل 2008

آخر أيام الدواء.

جاءت (ف) لزرقها الإبرة.

الجمعة 18 أبريل 2008

جاءت (ف) وزرقتها إبرة وعادت إلى بيتها.

السبت 19 أبريل 2008

طلبت من (ف) أن تأتي لأن وفاء تنوي الخروج مع صديقتها.

الأحد 20 أبريل 2008

الجو لطيف.

غدانا كان دولمة.

جاء مرتضى لغسل البطانيات.

الإثنين 21 أبريل 2008

الجو لطيف مع غبار. ملأ حفيدي كل الخزانات بالماء، وأعطى أيضاً لبيت الجيران.

زارنا أبو رشا مع زوجته ومعهم هدية لسلامتي بعد العملية.

وكان ذلك أثناء مجيء (ف) لزرق الإبرة.

الأربعاء 23 أبريل 2008

اتصلت بالتقاعد. البنت الموظفة مجازة.

ذهبتُ إلى (ف).

الخميس 24 أبريل 2008

ذهبت وزرقت (ف) إبرة وعدتُ إلى البيت.

علمتُ أن كلفة الجواز 5 أوراق. مطلوب شهادة جنسية، هوية سكن وبطاقة تموين وهوية الأحوال المدنية.

الجمعة 25 أبريل 2008

بعد التبول صباحاً نزل دم.

ذهبت مع حفيدي إلى الدكتور أحمد. كان ازدحاماً. فحصني وطمأنني. سينزل الدم لمدة 3 أشهر. أضاف دواءً جديداً وطلب تحليل دم.

ذهبنا إلى مختبر «العراق». النتيجة غداً.

أجرة التحليل 140 ألف دينار. السيارة 5 آلاف. والدواء 4 آلاف.

عدنا للبيت.

الأحد 27 أبريل 2008

ذهبت وفاء إلى السوق لشراء حفاضات لي.

وقطعة ذهب كهدية للدكتور أحمد.

الإثنين 28 أبريل 2008

الجو مغبر، والرياح متقلبة الاتجاه، شمالية غربية.

(اشترت وفاء زوج حلق لابنة الدكتور أحمد بقيمة 175 ألف دينار.)

الأربعاء 30 أبريل 2008

بعد أن نمنا الظهر وصحونا عصراً كانت الدنيا حمراء مغبرة بسبب الزوبعة.

ليس لدينا ماء، ولا قطرة في الأنابيب.

الإثنين 31 أبريل 2008

الجو صاف والرياح جنوبية شرقية.

الهدوء يعم البلد.

ذهبت عند (ف) عصراً بدعوة منها. وكان هناك حمّام لذيذ.

شهر ماي 2008

الجمعة 4 ماي 2008

ملأنا الأواني والخزان صباحاً وسقينا الحديقة.

سقينا حتى حديقة بيت جيراننا أم سمير.

سعر الدولار اليوم 122 ألف دينار.

السبت 5 ماي 2008

نصبنا الأسرّة الحديد في السطح.

جاءت (ف). استحمّت عندنا.

دفعتُ 2.450.000 دينار لشـراء أوراق (فئة 100 دولار) للسفر والجواز، مع أجور التحويل. 200 ورقة.

الإثنين 7 ماي 2008

ذهبت للعشار. اشتريت سجائر ونعال.

وصمون وحليب لـ (ف). تعبانة جداً. هي في المستشفى.

الأربعاء 8 ماي 2008

شغّلت الماطور، وسقيت الحديقتين، وملأت تانكي الحديقة،

انطفأت الكهرباء.

نحتاج لملء تانكي السطح خلال النهار

حضر أقرباء عند (ف).

الخميس 10 ماي 2008

حضرت ساهرة من الإمارات، أخت حسام لترعى عمتها (ف).

الجمعة 11 ماي 2008

لم أحلق ذقني.

جاء المصلّح وفحص المجمدة.

صليت وتغديت لوحدي.

حالة (ف) ليست على مايرام.

الأربعاء 16 ماي 2008

خرجت (ف) من المستشفى.

عدت للبيت.

جاء الفلاح وعالج راكوب البرحية.

الخميس 17 ماي 2008

الجو مغبر. الدنيا حمراء، بحيث لا يمكنني رؤية بيت (ف).

الإثنين 21 ماي 2008

ذهبت إلى (ف).

لا جديد تحت الشمس.

الأربعاء 23 ماي 2008

انتقلت (ف) إلى رحمة الله.

شهر سبتمبر 2008

السبت 29 سبتمبر 2008

أواخر سبتمبر. الجو بدأ يبرد قليلاً. أشعر بالتعب.

مقتل اثنين من القرابة بالأحداث. اتصل نائل ثم وائل. يظهر أنهم سمعوا أن أحوال البصرة مريبة.

شاهدت جزءاً من المسلسل. عندي بداية زكام.

ذهب حفيدي وأمه للنوم.

شهر أكتوبر 2008

الخميس 18 أكتوبر 2008

«اتصلتُ بعامر ليعاوننا في جمع التمر بعد قصّ العثوق»،

الجمعة 19 أكتوبر 2008

جاء الفلاح وقصّ العثوق، عاونه عامر في جمعه و النقل.
أجّلنا استلام الوجبة التموينية بسبب انشغالنا.

السبت 20 أكتوبر 2008

الجو لا يزال حاراً والرياح جنوبية شرقية.

الأحد 21 أكتوبر 2008

لست على ما يرام. اشتريت كيلو سمسم في طريق عودتي من الطبيب لكبس التمر.

الإثنين 22 أكتوبر 2008

جاء أبو زهراء. أخبره جاره أن البنت المشلولة قد ماتت.

الثلاثاء 23 أكتوبر 2008

اتصلتُ بجارنا أبو عبد الرحمن أسأله عن كلفة الحجّ بالنيابة عني وعن المرحومة زوجتي، وعن (ف) فوعدني خيراً.
قد اتصل فعلاً، ولكني لم أسمع رنين الهاتف...»

«انتهت»

مانفيستو الحجرة

رواية في مقاطع سردية

ضوءُ طفولة

1

عريـفُ الحفل يطلب من الضيوف الهدوء. كانت طفلة، كلما ردَّدَ عريف الحفل طلبه انغلقت أذناها، كأن ماءً يغمرهما. ضجيج الأصوات في رأسـها وهي نعسـة تحلـم بفِراش. هي مدينـةٌ لحالها، منفصلة، يتيمـة، تائهة في هذا العالـم. قد يكون لها فيـه إخوة وأخوات، أيتام مثلها. مدينـة خَلَتْ من برودة الفجر، نعومة الرمل، وحتى الرائحة فيها تعرّضت للنهب من الشمس والغزاة.

تفاصيل مثل هذه حرصت على أن تنقلها إليه. صوته الشـابّ كان يصلها أبويّاً. لا تأبهي، يقول، لا ضرَّ من الاحتفاظ بجزءٍ لحين. هي لم تكن على يقين إن كان دافـعُ قولِـه الرأفة بها، أَمْ هو محض ملل. تخلّصت لاحقاً من علاقتها الأبويـة المتوترة به. صـارت أقواله ترتبط لديها بالوقـت. جُمَلُ أولّ الصباح مقتضبـة، حيـن لا يكـون الورد قـد ارتجف بعد. لـو تصمت. هـو يريد لهذه المدينة أيضاً أن تظلّ محتفظة بصورتها الأولى التي لا تراها كما يراها هو.

يقصّ عليها، كما في الروايات، هناك نهرٌ، ترتاح على جانبيه بضع وردات وجِلات، مختبئـات مـا بين الأعشـاب الشـائخة العاليـة. يغيضُ فـي الحياة ويفيضُ في الخيال، نائمان، تستيقظ رائحة يده الندية، شيء من الطين، شيءٌ مـن تَبخّـرِ الطحلب الأخضر السـاكن الطافي على سـطح النهـر حين تبعث الشـمس حرارتها فيه. وللنهر، يقول، نبعٌ، ومصبٌّ بالتأكيد، قد يكون بُحَيرة، وقد يكون بحراً. لا تود أن تقاطعه لتسـأل عن مغزى هذا! كان يتقدّم فيه، في ساعات المساء الأخيرة، ذلك الذي يُجزِل في العطاء.

حين تنعسُ الطفلة التي كانتها، وألم ركبتيها يكون سبباً في موجة الغضب التي تسري فيها، يضيق الأمر بأمها وسط صخب الحاضرات والحاضرين في الحفل، ما يضطرها إلى توسّل المُضيّفة محلاً تستلقي فيه ابنتها. تضجّ البيوت العائلية أيام النضال السرّي بالخطب الحماسية. لا ضرر يلحق أُذُنَيها بسبب الأصوات العالية المقترنة بأجواء الاحتفالات، حتى تسقط تلك الجملة على مسامعها من فَمِ عريف الحفل ذاك، قصير القامة، دقيق الشارب، بينما يجول ببصره بعينين تدوران سريعاً إلى اليمين وإلى اليسار بين الحضور وهو يتحين اللحظة المناسبة؛ من أجل أن يفتحَ فمه.

خلل نعاسها في الصالة الضيقة المكتظة بالأجساد الممتلئة والنحيلة، وعيناها شبه المغمضتين، ومن بين غيوم الدُّخَان تتبّعُ خطّاً فَحْميّاً رفيعاً يحاذي حدود شفته العليا الرفيعة المزرقّة، وآخر مفصولاً بما يشبه المجرى يتعامد في المنتصف مع الأول، وتسقط فجأة الكلمة مثل ضربة القاضي بمطرقته: سماعي رجاءً، فتصابُ بما يشبه الصمم!

كانت تلك الطفلة تستحي من الوقت المتأخر، إذ كل شيء يصير هُلامي القوام. وحين يسكر الرجال الكبار تلمس أياديهم الأمكنة الخطأ، يحضنون بعضهم، جِلْدا بِجِلْد، خدّاً بخدّ، يُقَبّلون أطفال بعضهم، يخلّفون بُصاقاً برائحة مُنفِّرة. تستحي الطفلة جدّاً بتقدّم ساعات الليل، حين يلتهمون بقايا المزّات الفاترة، ممزوجة بالرماد في الطاسات المزدحمة على الطاولات الصغيرة المهتزة، حين تتهدّلُ الخصلات ويبطل مفعول مثبِّت الشَّعْرِ للأمهات المتعَبات من كعوبهن العالية، وهنّ ينسحبن لترتيب المطبخ وغسل الصحون، بينما السجائر تُطْفَأ خارج المنفضات، وترُ العود ينقطع، والفمُ بدل الخدّ، النهد المتورِّم للتو بدل الكتف لمداعبة الطفلة.

يتكرّر النداء سنة بعد سنة، الذكرى الـ... لتأسيس الحزب. العيون المكلّفة بالحراسة تظلّ مصوَّبَة نحو الباب خوفاً من مداهمة. لا يُمنَح الأطفال إذناً أو مساحةً للعب مع بعضهم. المساحة يشغلها الكبار بالأكل وبالشرب، بالرقص، حتى لا يعود هناك أخيراً من مكان للأطفال. وهي لا

تريد لهم غير أن يتركوها تنام. الدُّخَان وكلّ السرّية يمشيان يداً بيد مع ذلك الصخب، وهي تعرف كل هؤلاء الآباء، الأبو جميل والأبو تحسين والأبو فولكا، الذين يتحركون مبتسمين ليديروا الماء وغيره في الكؤوس. تصطبغ العيون بالأحمر، ولا ضرر من الأصوات العالية المقترنة بصوت الرفاق عبر خطب الوطن وأغاني النضال، لا ضرر في إيقاع الطبلة، وجِلْد الطار الذي بَرَدَ ففَقَدَ رنينه، ولا رقص الأطفال الخجول، نزولاً عند رغبات الكبار، الذي يحتشد من خلفها، من دون أن تفهم، شيء أشبه ببكاء مُلِحٍّ مُختنق، حتى تقع أخيراً تلك الجملة المفزعة.

سماعي رجاءً!

لا تفقه الكلمة، كانت تظنها واحدة مُركّبة، تسمعها من دون تقسيم لكلمتين، محض ضجيج ذكوري. أجواء لم تفقه باطنها في بيوت ضيقة تكتظّ مطابخها بالنسوة على الدوام. كان عريفُ الحفل يلحّ في طلبه الهدوء من الضيوف، يكرّر الطلَبَ، فتفكّر الطفلة أن هذا الـ «سَماعي رجاءً» لابد أن يكون اسماً نضاليّاً سريّاً للحزب الذي يقطن هذه البيوت خاصة، اسماً مُركّباً مثل أسماء جميع الآباء من حولها. ترقبُ الشِّفاه، والطريقة التي يلفظون بها اسم «الحزب». كان نداءً جماعيّاً مجرّداً مما يليه. الشفاه تطبق عليه، ذلك السرّ المقدّس. القوة التي ستنقذهم. اسم الكائن الخرافي البعيد، المُناجى، الذي لا يُرى ولا يُمسّ، تلك المهابة التي يوحي بها فتخشى الوقوع بخطأ ما تجهله. اسم اقترن لفظه بالبكاء، بالجرح السحيق، بالانكسار والنشيج.

كانت تحبّ أن تنقل إليه تفاصيل مثل هذه، لكنها كانت في البدء حذرة بتعريفه لعالمها. عالمان مختلفان ومتقاطعان. نبرةُ صوتِه تصلها حينها مختلفة. كان غريباً عن بيئتها؛ إذ نشأ في بيت لا يفقه كل ما ترطن به. وما أدراها بأسباب صمته! لعلّ ما تطرحه بالفعل خيال. لعلها تودّ تخريبَ كلّ شيء من دون أن تعلم. لربما يظنها خالية من الوفاء لكل شيء، وذلك ما يضايقه بالفعل. ولكنه لم يكن يفصح عن شيء. ربما كان عليها أن تقبل بعالمٍ، ولا ترفض عالماً آخر في ذات الوقت. أن تصمت. أن تبقي كل شيء معلّقاً كما هو، من دون أن تصدر

حكماً ما عليه. ليس بالضد ولا مع. ربما كان عليها أن تقلّل من عدائيتها، لكي لا تضطره إلى اتخاذ موقف واضح حيال عالمَين. إن لم يكن يعاني من صعوبة حيال ذلك، فهو قد ترك العلاقة سائبة، مثل حبلِ غسيلٍ مُهْمَلٍ أَرْخَتْهُ الشمس. رغبته الأخيرة، بتخمين منها، يقف خلفها مزاجه الليلي!

صَنَعَ الأطفال من سَماعي رجاءً مادةً للخيال. الكلمة التي أَخَذَ الأطفال يرددونها عند اللعب فيما بينهم، تعويذة يريدون بها أن يأخذَهم الكبار على محمل الجدّ، أن ينصتَ الكبار إلى ما يريدون قوله، لأن ما سيقولونه رغم ما يظنّه الكبار، مُهِمّ!

2

لا تقاومُ فضولها رغم الرهبة بداخلها. تحدث أشياءُ لا يعلن الكبار عنها. يغلّف الغموض ما يدور من حولها. خطرٌ محدِق في عيون الكبار. يفوتها في أثناء النوم الكثير. الحَدَث. تتكرّر على مسامعها كلمة «حدث»، تراها وتتهجّاها، «في ظلّ هذه الأحداث»، «حدَثَ ما هو متوقع»، «كان من أبرز الأحداث».. ولا أحد يشرح لها في النهاية ما الذي حدث!

يضرب رجلٌ شابّ جبهَته بالجدار، آخرُ يحمل زوجته ويركض. تهرع جارةٌ الى بيتٍ في آخر الزقاق لتتصل بالإسعاف.

حَمَلَتْها الأم بعد أن أُغمي عليها. مُذ كانت طفلة وهي لا تحتمل مرأى الدم. دارت الجدران من حولها وهي تحاول سَرْدَ ما شهدَتْه. شابّات يجهضن، في عزّ صحتهن. غسلوا وجهها بالماء البارد، شَعْرَها، يديها، قدميها. ما إن تفزّ حتى يقوم الكلّ بتأنيبها. والعمّة أيضاً؛ لأنها لا تكفّ عن ملاحقتها في كل مكان. لأن الكل ينتظر تتمة «الحدث» في البيت. كانت تلهث تحت الشمس الحارقة لتفوزَ بسبق نشر الخبر. تعود من رحلتها الغريبة. تُميز الأصوات بنصف وعي، وهي مغمضة العينين. إنه خيالها الخصب. يسألونها عما حدث، تعرف أربعة منها فقط. ترفع رأسها من على الوسادة قليلاً.

لأن الطائرات كانت تحوم وتقترب من الأرض.

نَقَعَ شَعرُها و كلّ صدرها بالماء البارد.

اتركوها. إنها تهذي.

بإمكان الطفلة القول إن الطيبة لم تكن لها طوابق. تمتدّ مثل الثيِّل، رطبةٌ تعشَّب بطين الجدران. يُسَخِّرُها الجميع. سارَت بعمر الست سنوات بخطوات أسرع قليلاً. عليها على الدوام أن تخفَّ السير. يرسلونها في مهمات مملّة. تصادف بطريقها الولد، فيصيبها الحَرَج، باقتراب وقت الغروب، يعترض طريقها فريق البطّ أيضاً، يتقلّب في سيره، موعد عودته من النهر، تجزع، يقطع المرور ويتسبّب في التأخير.

تدكّ قدميها لتنفضَ عن نعليها ما عَلِق عند العتبة. الباب مُشرّعٌ على الدوام. ورغم الباحة الطينية الفسيحة المفتوحة لهذا الكوخ، ورغم شراسة الشمس، تلفحها رائحة روث الحيوانات المشوبة برائحة البشر. خانقة لكنها تحبها. من علامات الراحة الأبدية، بقايا القشّ المكنوس إلى الزاوية، عربة البناء الحديدية الصدئة المقلوبة إلى الجدار، سقوط شيء ما من السماء، والفجاءة في فرارِ ديكٍ من ديك.

تكون الخبّازة متمددة على فراشِها أرضاً في غرفة الطين المعتمة. إن لم تكن غافية، ستدير حديثا حميماً مع دجاجة اقتحمت الغرفة تحسبها زائرة. تصيح الطفلة في بئرٍ: نريد خبزاً. هذا البيت امتداد أفقي للطريق والبشر والحيوانات، على السواء. من دون باب ولا شبابيك. الغرفة لصيقة بالزريبة، والزريبة امتداد لما كان من قبل برْكة صغيرة، ما زال الناس يتفكّرون في أصلها. جفّت وتمّ ردمُها. رغم ذلك لا تكفّ عن تأكيد وجودها بين الحين والحين. قد تكون مقبرةً من حضارات قديمة، ربما بئر نفط يخشى فتح فمها، وقد تكون النبعَ الموصِلَ إلى البحر الذي سَمَعَتْهم يتحدثون عنه. لم يعد له من وجود، أو أن أحداً لم يعثر عليه بعد. يجيب الصوت من عمق البئر: نفد الخبز لهذا اليوم. تَحُفُّ الأسرار بهذا العالم. البقرة، الذباب، القطط. تبتسم، تنحني وتمسّد ظهر إحدى القطط سريعاً وتستدير. تهمّ بالخروج مسرعة، فَرِحةً بانتهاء مهمتها، وبخُلُوِ البيت

مما كان سيعترضها، يكفيها التأخير الذي حدَثَ. إلا أن الخبّازة تسلّلت من الخلف وقَنَصَتها. تضمّها بقوة، تقبّلها، ثم تضربها مازحة كالعادة ضربتين على مؤخرتها. تفعل تلك الحركة البليدة كل مرّة لتُذكّرها برأسها العنيد، وكيف أنها حرنت، حتى في مجيئها إلى العالم. ضحكتها، المرأة العجوز لا صوت لها تقريباً، تتمطّط الشفتان تحت شاربها الكثيف وتبرز اللثّة الخالية إلا من بُرصين بلون بني. والطفلة تحاول التملّص بحياء، مختنقة من لفح أنفاسها.

هي لا تراه عِنْداً، هو قصورٌ في الفهم لدى الآخرين على الدوام. يرسلونها للقيام بالمهمة مع توقيتِ بثّ المسلسل المصري. وقت تجمّع الكلّ في بيت الجَدّ، بنات العم والعمّات والجدّات والجارات والأولاد والبنات. الزحام لأقصاه الآن. لن يبقى لها مكان وسط اللمّة لِحَشْر جسدها ومتابعة الحَلَقة التلفزيونية معهم.

تنطلق راكضة. تنزلق كلُّ أصابعِ قدميها خارج نعليها بفعل التراب والعَرَق. في حسبة صغيرة للوقت تفكّر أنّ كل ما فاتها حتى الآن هو أغنية المقدمة فقط.

3

يُخَيَّل إليها أن هناك حياة أخرى إذا ما نامَ الأطفال. انتظرتْ من دون صبر أن تكبر، فكلّ ما فيه متعة يحدث في غفلةٍ عنها، في أثناء النوم. متى عادَ الأب لتنبطح آلة العود على سريره. متى زارَتْهم الجدّة لتتخلّف رائحة زيت الشَّعْر المعتّق في الممرّ. متى حَضرَ الجمعُ من هؤلاء البشر لتتكدّس كلُّ هذه الصحون في حوض غسيل المطبخ صباحاً!

وكيف لهذين الاثنين الزائرَيْن ألا يتناولا شيئاً! هما لا يغادران غرفة الخُطّار. قد تلمَحهما حين يتوجهان إلى المرحاض، في الطرف القصي من البيت، يعبران مثل لِصّين من الجهة اليمنى، وبذلك يمكن تحاشي المرور بمن يشغل الجهة اليسرى من البيت، شبه الفارغ في الغالب.

ذلك كان البيت الأول، بيت الطفولة المتنائي في البصرة القديمة، في بقعةٍ عبر الضفة الأخرى من النهر، التي أصاب الجميع اليأس من إيقاظ شيء

فيها. تقاعست السماء عن غسلها وتركتها البلدية في عزلة غريبة مقصودة، رغم أنهرها وجسورها القديمة ومعاملها. حيث العمال المحتمون بالفيء على الدوام لا يكملون واجبهم فتعترض عِصِيُّ مكانسهم الطريق.

يغادر قاطنوها صباحاً، طلاباً وموظفين وباعة، يتلمّسون في سيرهم كلَّ يوم أقربَ موقفٍ ينقلهم إلى أماكن عملهم، مدارسهم ومحال تسوقهم. كأن الطريق، الذي تتناقص الخضرة في نهاياته، إذا ما بلغوا نهايته، سيُنْسف الأمل في داخلهم. شبح ما يحوم فيبتلع خطوط السير، السيارات ويذيب أجساد الركّاب المنتظرين.

الأم موظفة، لا عدّ للمسافة في عودتها من آخر نقطة للباص مشياً على الأقدام وحتى باب البيت. الطريق حفرةٌ كلما غرفتْ منها ازداد عمقها. تصل وقد عبّأت في جيوبها من الشمس الحارقة ما يكفي لتقذفَ الثوب في الحال على أرضية الحمّام. تهرع لتُقَسِّطَ الماء الذي في الدلو. قليلاً تصبّه على رأسها، قليلاً على صدرها، والقليل الباقي تحاول فيه أن تزيل التراب النابت ما بين أصابع قدميها المطلية باللون البني.

تسأل إن كانوا قد غَسلوا المناديل والجوارب التي تركها الزائران عند باب الغرفة؟

أما الأب فلا يعود إلا مساءً. يكون حينها قد أنهى تدريباته مع الفرقة. يسير قاطعاً الطريق الترابي الطويل الملتوي هو الآخر، والذي احترقت أغلب مصابيح أعمدته الكهربائية التي تعود إلى الماضي. يتأكد في حلكة الليل من كل خطوة من خطواته، حذراً من أن يدوس ذيول الكلاب السائبة النائمة.

تسمع دندنته من البعيد، تسبقه متهادية لتبدّد صمت الطريق. والطفلة بفضل التقاطها للحن ما، نالتْ عنده حظوة، حين لا يتذكره في اليوم التالي.

يداها الصغيرتان كلّابتان وهما تقبضان على يدي والدها. لفضولها المأثور تهبّ لتلحق به، في أثناء دخوله على الزائرَيْن للتحية الصباحية. النوم اللعين. عليها أن تخفّ لنَفْضِ التيه عنها وارتداء الصحو، قبل أن ينفضَّ الجمع من حولها بين العمل والمدرسة. قد يحدث ما يحدث، مَنْ يدري؟

وحين تمرض لا مانع من أن تكون قريبة من هذين الزائرَيْن للاعتناء بها. كانت تتلكأ طويلاً واقفة خلف ستارة الدانتيل التي تفصل غرفة الخطّار عن غرفة الطعام، تشتمّ الغبار الذي تشبّعت به الستارة، تبقى بالانتظار حتى ينادي عليها الثاني مشجّعاً لتدخل. الأول كان صامتاً في الغالب، الرأس منحنٍ، يكاد الوجه أن يكون غائباً، ينوب عنه الصوت الخفيض لمذياعه الترانزيستور الصغير. لا تتذكّر غير تلك القهقهة التي تتكسّر وهي تنطلق من مكان قصي فيه، ولكنها سرعان ما تُحسَب من ضمن العدم. كان يرتدي قميصه وبنطلونه المُسجييَن على الأريكة، حال ما يستيقظ ويربط الحزام. يحرص على النهوض قبل استيقاظ العائلة باكراً ليشغل المرحاض. يكون قد ثنى الشرشف وأوكأ الفراش إلى الأريكة.

كانت ترقب من خلف الدانتيل طقس انشغاله وهو متربعٌ على السجادة، منهمك بإعداد أدوات الحلاقة على طاولة صغيرة خفيضة أمامه. كيف يُنزل المنشفةَ من حول رقبته ليضعها على أحد فخذيه. لا يمكن لها ألا تراه حين يعبر خَطْفاً لطول قامته، لِلَوْنِ شَعْرِه الأسود الفاحم ووجهه النحيف الذي يقترب من شكل مثلثٍ قاعدته غائبة في انحناءته الدائمة إلى الأسفل.

كانا سِرّاً غامضاً ممنوعاً البوح به خارج حدود البيت. الثاني لم يكن يستيقظ باكراً. كانت خطواته أبطأ بكثير حين يقطع غرفة الطعام متوجهاً إلى المرحاض. تراقب صلعته من أعلى السُّلَّم، مع بضع خصلات ملبّدة دهنية احتلت الجزء الأكبر من جمجمة رأسه البيضاوي. كان طويلاً، بطيئاً، وبطيئاً حين يلوك اللقمة، وحين يتحدّث. لا يغيّر فانلته البيضاء المهترئة ذات نصف الكُم، هادِلة على بنطلون بيجامته الزرقاء من البوبلين. طيلة الظهر وحتى المساء، أو قد لا يغيّر ثياب النوم البتة، مستغرقاً مع الكتابَيْن أو الثلاثة التي كانت لصقه على الدوام كوسادة. إن لم يتسلّل ضيف ثالث أو رابع إليهما آخر الليل في زيارة لا تسمع منها غير حسحسة. كان يناديها بلطف. تدرك جيداً أنها الوحيدة، وهي آخر العنقود التي يُسمَح لها بالدخول والتكلّم معهما. تعدّها حظوة أخرى، فقد حفظت عنه نِكاتٍ عن ظهر قلب، كانت تتندّر بها أمام إخوتها وأخوالها. ذكية! تسعد لطبطبات على الظهر، إذ رغم كونها فاضحة الأسرار، حرصت على ألا تذكر مصدرَها. حظوتُها الثالثة،

وهي الأثيرة، كانت تلك القصص الشعبية العجيبة التي يسردها لها بطريقته المدهشة. تذكر كيف كانت تنصت جيداً، لتدعه يبقيها فترة أطول. وتذكر أنه كان يطيل بالمقابل الحكاية وينوّع عليها، لتمكثَ بقربه فترة أطول. تلك كانت البدايات، حين انشقّ سقف الغرفة وفجأة امتلكت القدرة على رؤية سماوات شتى. وإن كانت في سجن، ستراها، هو من قالَ لها ذلك، وستمطرها بصورٍ وحروف، ومع كل كتاب سيضيء نجمٌ جديد في السماء. ذلك بعينه مما جعلها تعشق الأدب! هو مَنْ أهداها تلك اللوعة، كلوعةِ تذكّره.

اختفاؤه كان صادماً لها. كما توقعتْ حدَث في أثناء استغراقها بنومةٍ طويلة. متى تُرِكَ البيت لترى الجدران بهذا الشحوب؟ كيف سمحوا بفتح ستائر البيت هكذا؟ طيلة الأشهر التي أقام فيها الرجلان عندهم، كان ممنوعاً عليها سحبها جانباً، سيتعرّى شيءٌ ثمينٌ، لا تدري، ربما كالجسد. فجأة لم تجد للاثنين أثراً. ها هو قد حدث، الشيء الكبير الذي لا تفهمه. ليس كبيراً فقط، لكنه محزن جدّاً. الموت، لغز الاختفاء إلى الأبد.

بدا البيت السحيق ذاك فارغاً من الأثاث. كان وكراً للخارجين عن العدالة، جميعهم. فَرَغَ فجأة من وظيفة التخفي التي انشغل بها. تغيرتْ هويته. أنّ مِن الجَلد والنبش. تفطّرت كلُّ زجاجة فيه. البيت الذي تركوه مثل البَطَل في قصصِهِ رغم الوشاية، صامد، عنيد، ملتزم الصمت برأسٍ متدلٍّ.

حزنٌ مضاعَف؛ متى استلم والداها مرتبيهما لترى ثوب العيد على السرير صباحاً بغير اللون الذي اختارته؟!

4

ولكن الكبار أنفسهم في مأزق لا يرونه. رفوفُ كتبِ هذه البيوت لم تكن تحتوي على غير ما يدور في أفلاك بعيدة. ليس فيها الكثير من القصص الشعبية، ولا الحكايات الخرافية من ألف ليلة وليلة، ولا كليلة ودمنة، لولا العمّات والخالات. القليل من روايات نجيب محفوظ، وبعض من كتب التراث. الكثير عن ماركس ولينين السوفييت، «الأم» و«كيف سقينا

الفولاذ؟»، كاسترو، تشي جيفارا وكوبا البعيدة. وكتبٌ أخرى لم تُفتَح صفحاتها، لم تُفْقَه غير عناوينها.

انتهى تاريخ الكبار في صفائح مدفونة تحت الأرض، في بيوت متجاورة، لكنها في قطيعة، لا يسمع بعضهم بعضاً، من بينهم ناقلو أخبار، مدونون، نظرات مريبة وتقارير، أبواق تصرخ في آذان بعضها. هروب أو بقاء سريان، أو اختفاء.

كان هناك شيء غير واضح للطفلة، ستائر غير مرئية، أضحت شيئاً فشيئاً جدراناً انتهت بسجون.

سماعي رجاءً كونه بدا ذَكَراً غامضاً، متشنّجاً له كرشٌ كبيرة، زرٌّ فالتٌ عند السرّة، وعيون حمر زائغة، فقد رافقَ طفولتهم لفترة طويلة ككلمة سحر سرّية، يستخدمها الأطفال، وهم يلعبون دور الأشرار للتسلّط والتحوّل.

ما الذي حدث؟ السقف ينزل، الجدران تضيق، عمى وقد ضلّت الناس الطريق فأخذت تسير في دوائر!

ربيع

1

تَشعرُ بِيُتْمِ الصغيرات. تخشى التفكير بتماثلها معهن كليةً كمراهقات. حلمتْ بهنّ فخافت من السبب الذي زَجّها معهن في الحلم. ولكنهن حضرْن في كوابيس متكررة، كانت تفزّ إثر الكابوس بقلبٍ خافق.

آمال، هي مَنْ أعارَها حبيبها صوراً بورنوغرافية ليابانيات عاريات، وهي مَنْ أعارَتها بالتالي لأختها ليوم واحد فقط. صغيرات مشدودات بحبال متينة، مجدولة، بأوضاع مختلفة، بعُقَدٍ مبتكرة مختلفة، بدَوْن بمثل أعمارهن، مراهقات لم يتْمِمْن الخمسة عشر عاماً بعد، أو خالتْ ذلك.

انتظرتْ، ضمن سجلّهن الحافل بالسذاجات، أن تمرَّ صديقتها نُهى بعد المدرسة كي يتفحّصنها معاً. نهى اختارت إعدادية التجارة كسلاً وانفلاتاً. نهى نفسها مَنْ يقول ذلك، من نبع روحها التهكّمية. بينما فُرِضَ عليها هي الفرع العلمي من الدراسة الثانوية. تفرّقتا وصارت لقاءاتهما تقتصر على بضع ساعاتٍ أو تنعدم، بعد أن كان يحدث أن تقضيا اليوم بأكمله معاً.

أختها كانت قد قلَّبت الصور سَلَفاً مع آمال على عجلةٍ في الصفّ. اقترحتْ، وكسباً للوقت أن يرينها لابنة خالتهن التي تكبرهن ببضعة أعوام. أقامت معهم لفترة بسبب ظرفٍ نفسي يتعلّق بارتباطها بعلاقة حبّ، ولأنها العلاقة الأولى فقد هدّت كيانها، حال توضّحت نهايتها.

تسترجع أجواءَ مختلطة ضاجّة بالحياة والانبثاق، مرّت وتلاشت. لقاءات طلبة شباب، تقدميين لانتمائهم إلى اتحاد الطلبة، ليست متأكدة من أنهم كانوا من الجمع المتحرر، ولكن الملتزم!

كانت مُراهَقَة من دون فلترة. اندفاع كلّي نحو الآخر. حدّ هوس صديقةٍ بصديقة، وصديقٍ بصديق. صداقات تشكّلت تلقائيّاً، من دون تطابق ولا تناقض، قد يخلقها الطريق الذي يجمعهم من البيت إلى المدرسة، أو إثر نشاط مدرسي ما، أو اندفاعة في تنظيم حفل سرّي. علاقات حبّ أيضاً، قوية ساخنة، تنتهي فور ما ينتهي بعضهم من دراسته الثانوية، أو الجامعية. قد تتدخل الأم فتُفشِل بعضها، ولا يبقى غير ذكرى الخلوات التي تجمع المحبّين في غرف الخطّار، على مصطبات الحدائق وجذوع الأشجار الساقطة في البساتين. من دون رطوبة التفاصيل الحسية التي للعفوية لا يجد الناس مضضاً في مساررة بعضهم بعضاً، أو المجاهرة بها.

ابنة خالتهن، وكان الدم على الدوام يجتمع في خدّيها، بقعتين في بشرة وجهها الصافية، تقضي فترة نقاهة خاصة من نوعها، استمرت لأشهر في بيتهم. كانت هناك حيرة في الإشارات، بين الحبّ والخجل. لا تذكر إن كان بقاؤها معهم قَسْراً أَمْ خياراً. مُنِعن من حضور المباحثات، دارت حوارات بين الكبار في الغرفة، لا يجب أن يكون لهنّ شأن بها.

إن تأخرتْ صديقتها نُهى، فستشعر بالأسف لضياع فرصة التفرّج معها على هذه الصور. ذلك يعني أن والد نهى المدمن لم يخلد للنوم في تلك الظهيرة. يتعين على نهى حين يكون لوالدتها الموظفة مناوبة متأخرة في المعمل، ملازمة البيت لحراسته. ذلك ليجنّبوه التعرّض لأذى الأولاد في المحلة.

جنان، صديقة ابنة خالتها في زيارة. كأن مهنتها هي ترتيق كل شيء، حمالة ثدييها، عباءة أمها، قمصان إخوتها. اعتدْنَ أن يطللن خفيةً على سطح بيتهم عند الغروب. ترى جنان مستلقية على الفراش الذي فُتِح أيام الصيف ليبرد ساعة النوم ليلاً. كعبا قدميها أسودان لأنها حافية طوال الوقت. يكون أخوها قد صعدَ السطح إليها بصينية تحوي كوبي شاي وإناء ماء. يعرفْنَ أنه كان متخفّياً. يجلس على طرف السرير، على الحافة عند قدميها على الدوام، كأنه حارسها. كانت صفته أنه لا يفارق الكتاب هذا الأخ، ليل نهار. متعاكسان وهو يقرأ لها، أو يتناقشان بحماس هامس في مسألة ما. كان طويلاً نحيفاً، يرتدي عوينات بإطار ثخين أسود، وقد طالت لحيته الكثّة التي ملأها

الشـيب. لا يعرف رقم تسلسـله بين الإخوان في عائلتهم الكبيرة جدّاً. لربما يكبر جنان أو تكبره، لكنهما متماثلان بطول جسديهما. يُدني يده، على مهل، يرفع عن وجهها شَعْرَها المتناثر الطويل الدهني، يمسّج قدميها، قد يدغدغها فتنقلـب علـى بطنهـا، وقد يشـدّ عينيها بعصابة لتـدور بين الأسـرّة بحثاً عنه، وأحياناً يقصّ أطراف شَعْرِها المتقصّفة. صور الأسرَّة الكثيرة على سطح دار جنان، المتوازية، المفروشة بالشراشف البيض، الفارغة جميعها عدا سريرها المشغول بهما، والضوء والحرارة المنكسران على شفا الغروب، هو ما علِق في الذاكرة، مثل صورة فوتوغرافية جوية، فنية بامتياز.

وبـدلاً من أن تأتي نهى إلى بيتهم دخلت أسـماء، صديقـة أختها، مرتدية العباءة. انفردتا بالغرفة وحدهما. آهات عبد الحليم حافظ تتسـرّب من فتحة باب الغرفة. كان لابد منها ليتم المشـهد الضـاجّ بالأحلام والكركرات: ليتَ كل قطعة أثاث في البيت، كلَّ أداة من أدوات المطبخ تسمى باسم مَن يحلمْن به! كانت أسـماء تُعـرّج في زيارة لأختهـا كالعادة بعد اللقـاء بالحبيب. خلو الأزقة، لمعان أسـفلتها، وصمتها المريـب صيفاً، نقيض فضفضات الظهيرة، السـتائر الباردة المسدَلة والمساررات النعسـة داخل البيوت ونقيض الرائحة المنبعثة من جسـدها. ابن الجيران الذي يستقبلها في بيت أهله، ينفرد بها في غرفتـه. عَلَّـقَ على باب غرفته لوحةً كبيرة باسـمها، بخطّ الثلـث. أمّه بحنانها المطلـق تصيح به فضحتَ البنت. وقد اسـتمر بتدرّبه على «أسـماء» بالقَصَبة المنتقاة وحبرها الصيني بمختلف الخطوط، كما لو أنه يصنع أغلاله بيده.

لو تلحق صديقتها وتمرّ! لِمَ تأخرتْ؟ تطلُّ برأسها من البلكون فتلمحُ الشابّ المسـكين الذي أرسـلَ لها رسـالة الحبّ إلى عنوانها في المدرسـة المتوسطة. نكايـةً بهـا، رعونـةً، أمْ وَلَهاً سـاذجاً منه؟ ذلك أمـرٌ لم يسـتطعن أن يجزمْن به. انعقدَ إثرها اجتماع هام مع أولياء الأمور في إدارة المدرسة. المعاوِنة الضخمة ذات الصـدر العارم والصـوت الرفيع ومقاس الحذاء الصغير، أرسـلتْ بطلبها مـع والديهـا. أحاطت إثرها بالموضـوع وقفَلَتْه، لكن ولي أمـر الولد المراهق، وهو الأخ الكبير، البعثي مسوؤل المنطقة، أبى إلا أن يقدّم حينها للمحلّة عَرْضاً مجانيّاً سـاديّاً منتصف السـاحة، أمام والدها، بفرجة الصبيان والشبابيك. نهض الولد متوجعاً وغاب، بين صفع ورفس وكلمات مُهينة نابية.

ذلك كان تحديداً قبل أسبوع من مغادرة والدها الفجائية. البيوت حينها، كثيرٌ منها، كما لو أنها فرغت. ترك والدها الوظيفة على الفور منتصف دوامه. كان معلّماً في الدير، وهي ناحية في شمال البصرة، خالت الطفلة بُعْدَ مسافةِ نفيه إليها لا توصَف. قد تمّ نقلُه ذلك الصيف كعقوبةٍ غير مُعلنة بتهمة ممارسة نشاط معارض. استقل سيارة أجرة من هناك مباشرة إلى بغداد، من دون حقيبة ملابس ولا وداع. دخل مديره الصف لاهثاً في أثناء تدريسه لينذره بأنهم قادمون. وهو نفسه الذي حرص أيضاً على إيصال خبرٍ للبيت سِرّاً.

الشيء المُنذِر هذا الذي يعصى على الفهم يقتضي الحذر، في كل نظرة، وفي كل حركة، وإن لم يكنّ يشعرن بأنهن يشكّلن جزءاً منه. صار للغياب حجم وتاريخ. وصارت له أكثر من صورة. كان عدّاً تنازليّاً لحدوث الكسور الصغيرة المتتالية. هو الاختفاء التدريجي لحياة ظنّوا أنهم يعرفونها. الأشياء التي كانت منفرطة قَبْلاً، صارت أكثر فتاتاً منذ ذلك التاريخ.

تطبقُ باب البلكون وتدخل. تسمع تكسّر الضحكات. تنصتُ إليهما، أختها وأسماء. الباب موارب. تستهجن أسماء رؤية صور اليابانيات. تقذف كعادتها بالمجلات من هذا النوع. لحضورها نكهته الخاصة. عجيب كيف لأسماء أن تثير النفور فيهما لتلك الصور. تدفعها بيديها جانباً، من أجل أن تواصل كلامها عنه. معاني وجهها مستنكرة، بينما أسنانها البيض تسبق عينيها بالضحكة.

وصلتْ نهى أخيراً لحسن الحظ. أنقذَتها من دورانها وحيدة في البيت. أن ترى نهى تلك اليابانيات المشدودات بشكل مؤذٍ وغريب بالحبال، قبل أن تُعاد الصور في الغد إلى آمال. غريب أمر تلك الأوضاع، وعُقَد الحِبال وضغطها على أجزاء الجسد المختلفة من النهدين حتى القدمين. تنتظر بشدة تعليقاتها، مضحكة حدّ بكائهن. حضورها فقط ما يشيع الفوضى والمرح والمخالفة في حياتهن. كنّ يحاولن ألا يفكرن كثيراً بأنهن شيء مدفوع جانباً، أو مؤجل. ما كان المفرح يظهر في يومهن إلا ليختفي باللحظة التي تليها. مذ اختفاء أبيها وفرط الحذر يكتسب تعريفات لا تعنيهن بالضرورة. كان الهواء الذي يستنشقنه مُلغّزاً. ومزاج أمها يزداد حدّية في البيت، إثر كل تحذير في العمل أو استدعاء من دائرة الأمن. وما بناتها المراهقات في عين

المحيطين إلا هَمّ زائد يدعو للقلق. قلّ كلامها بازدياد الضغوط والوصايات التي انبثقت من كل صوب.

نهى علاوة على حضورها الصاخب فقد جلبت معها حبّات «الجكليت ماكنتوش»، التي حَمَلها عمّها من الكويت. آه، قد تذكّرن، اليوم هو الخميس الرقراق، يملك هذا اليوم أكثر مما تملكه بقية الأيام. كأن يعلّق كل واجباتهن البيتية والاجتماعية المملّة، ويسمح لمُتَعٍ أخرى باحتلال مساحة أكبر. الأكل، اللقاءات والأصوات الملتاعة وهي تغني. وهو موعد قدوم البضاعة المستوردة من الكويت، على يد الأصدقاء والجيران، المقيمين المحترفين والهواة إلى البصرة. تمتلئ أزقة المحلّة الضيقة في البصرة القديمة بسياراتهم الفارهة، التي ربما كانوا يستعيرونها بقصد الاستعراض والتباهي، أو اللهو أو من أجل الاقتران بفتاة. عمُّ نهى يقيم في بيتهم يوم الخميس ويقفل راجعاً بسيارته الشيفروليه يوم الجمعة بعد الظهر. تحضر النسوة (الدلّالات) ليأخذن البضاعة التي تكاد تكون المصدر الوحيد لرزق بعضهن. مهنة شاقة، ما زالت، وكلما استحضرتِ اسم إحداهن تملّكها العجب لقدرة هؤلاء النسوة على التحمّل. لا تدري إذا ما كانت تلك الحوانيت المتنقلة تعود عليهن بالربح الواسع. يتطلّب فيها عرض البضاعة فكّ البقجة الكبيرة التي يحملْنها، ثم نَشْر الملابس المصفّفة على الأرض ليتسنى للمشتري فحصها، يقمن في النهاية بإعادة ثنيها من جديد، بصبر وأناة، قطعة بعد قطعة، في كل بيت يطرقن بابه.

كانت البنات يتحلّقن من حولها، يلتقطن هذه القطعة وتلك للتجريب، لكن الدلّالة كانت غالباً ما تنهض خالية الوفاض بعد ساعات من تعب اللسان وإجهاد الأيادي.

اجتمعت الصديقات الأربع في الغرفة. كان سقف الشقة المتهالكة يمطر رقائق من الجبس عليهن فيطفقن بالضحك. وحدثَ أن سقطت قطعة أسمنت كبيرة أدّت إلى ثلم زاوية طاولة الطعام في غرفة المعيشة. بسبب اختفاء الوالد تأجّل مشروع بناء البيت المخطّط له على مساحة الأرض التي حصلا عليها من جمعية المعلمين. لكن نهى تابعت سردها القصة، بينما كن يلتهمن الجكليت. عَمُّها كان قد صعدَ إلى غرفتها مع الدلّالة زوجة أستاذ

جاسم، جارهم المعلّم الشيوعي الخجول. النوم على سرير أُستُعمل مِنْ قبل اثنين هَرِمَين كان أمراً مثيراً للقرف لِنُهى.

لا تدري، وهي تتذكر تلك السنوات لِمَ كانت تلك الغرفة الرئة التي يتنفسن بها. لِمَ هواؤها، الذي تداخلتْ في جزيئاته أنفاسهنّ يُضحِكُهُنّ إلى هذا الحدّ، وإن لم يبخل الجميع عليهن في تمرير الأخبار الصادمة طوال الوقت.

انفرَطْن مثل عِقْد. كانت أدوارهن حصراً، ومِن دون علمهن، أن تُخْرِج الواحدة الأخرى من تيهها في مآزق العالم! امتلكْنَ روح تضامنٍ صميمية، كونهن، وهو شعور غريب إلى أقصى حد، يتيمات منبوذات.

يقرع الجرس فجأة. هل يصعب عليها وحتى اليوم تفسير الهلع الذي يصيبهن إثر رنينه؟ ما زالت أصوات الأجراس على اختلاف نغماتها تُلقي ظِلّاً ثقيلاً حتى اللحظة على روحها. وحدَها الحيطة من مجرد مداهمة رجال الأمن، أو حتى الاستدعاء الأسبوعي لوالدتها، تستلزم وقتاً لتخليص اليوم من اضطرابه واستعادته إلى ما كان عليه.

تهمّ أختها بإخفاء الصور، والباقيات يعتدلن في جلستهن. لم يكن الطارق غير الأخ الصغير. التزَمَ بواجب عودته إلى البيت حال انتهاء دوامه في المدرسة. أنزلت الوالدة قبل أيام عقوبة قاسية عليه هو وصديقه. عثرتْ على فيلم نيجاتيف في حوزته، شريط لم يتم تحميضه، رفيع جدّاً تلوّى وتلفلفَ بين يديها، شفّ بالكاد عن صور تَبيّنَ أنها كانت إباحية. مِن أين؟ لأنها كانت محلّة نجّارين، ما إن تدخلها حتى تهجم عليك رائحة الخشب المنشور الطازجة تلك، والـ «سبيرتو دامالوك». يتابع الجيران والمارة مراحل تَخَلُّقِ كلّ قطعة أثاث تُنجَز بين أيديهم. ورش النجارة تحتلّ النصف من عُرْضِ الأزقة. وكان أثاث غرفة النوم كافياً ليمنح باكتمال القطعة الأولى تصريحها بالتعدّي على جزء كبير من الفضاء العام. أقسَمَ الأخ الصغير أنّ النجّار بسيم كان قد دسّ الفيلم في جيبه. كان يودّ أن يوقعه هو وصديقه في ورطة. صديقه الذي كاد يفقد أذنه المجرورة أقسمَ بروح والده الميت أن بسيم النجّار حاول، معهما الاثنين، أكثر من مرة، ولكنه لم يتمكن من مؤخرتيهما.

الأربعة؛ نهى وأسماء والأختان ينفجرن بالضحك، لماذا قالت نهى إن صور اليابانيات تذكّرها بزجاجات الرضاعة![1]

2

لم يُعرَف إن كانت الحرب قد اندلعت. توقيت إعلانها الرسمي جاء لاحقاً. بدأت السنة الدراسية بهذا الشك. بضعة أخبار متفرقة سبَقَتهم في الدخول إلى بوابة الجامعة. لم تحلم الشابات الصغيرات بأكثر من تلك الفسحة الصغيرة للعيش والتنفّس، تسيّرهن الأغنيات، هواء الحرية النقي المرح الشذا. الحبّ. من شأن نسماته أن تجعل الحياة متنزهاً وأشجاراً، تعرّفن على أغاني الحرب لاحقاً. ورغم ذلك كذبٌ كل ما كُتِب وتمّ تبادله. تكرار ببغاوي. لن يجرؤ كائن على القول إنهن لم يكنّ سعيدات! ما خبّأن تحت القميص كان شيئاً من غبطة فتية وشوق لملاقاة الشارع، مصافحة الحياة اليومية، الشجر، الموج الهادئ للشطّ، وشاي نادي الجامعة.

لكنها ظلت تبحث عن ربّان الموت. الشطّ الأخضر حدود بهجة المدينة. ضوءُها في ليلها، ضبابها في النهار. كان من السهل ضياعها حين كانت طفلة. صغيرة الحجم وبفضولها ذاك لابد من أن تمرّ بتجربة التيه من أجل أن تخاف وتحترس. يكبر الطفل على التحذير من حدوث مكروه إن لم يلتزم بما ينصحونه به، ولكنها كانت تصرّ على رؤيته. هل كان بهيئة شبح؟ لِمَ لا يمكنها أن تراه؟ تفزّ من نومها في السطح في موسم الصيف بفمٍ ناشف.

1- يُتْمُ مَشاهِدِ «عبيدات الحبال» ظلّ سِرّاً مُلغزاً، قادَ متأخراً إلى الاطلاع على تفاصيل فن الـ كينباكو، أو الكينباكو بي، كما يُطلق عليه.

Kinbaku (緊縛)

In Japanese Kinbaku (緊縛) means «tight binding» and Kinbaku-bi (緊縛美) is «the beauty of tight binding». It is a Japanese style of bondage or BDSM as a symbol of power. The word Shibari came into common use to describe the bondage art Kinbaku. Shibari (縛り) means «to tie decoratively». Wikipidia.

بَسْـمَلة قادمة من عائلة مجـاورة لا يفصلها عنهم غير جدار منخفض. حوقَلة مِن على سرير من الكرتون المقوى. شتيمة تخدش الأذن من الأرض الخربة البعيـدة. تبحـث عن عيني سـائق العبّارة الذي سيوصلهم إلى الجنة. الشـطّ الأخضر هو الذي يفصل المدينة بالنسـبة إليها حين كانت طفلة عما لا يمكن أن تتخيله. كل شيء كان يبدو بعيداً جدّاً، والضفة الثانية لم يكن يبين منها غير صفوف من النخيل المحتشد.

تديـر وجههـا ليلاً وهي محشـورة بين النائمين. تراقـب وجوههم. كانت علـى الدوام تـودّ التأكد من حياتهـم أو موتهم. تصيح، فتسـكتها كلمة هِشْ، أنتِ تحلمين، عودي للنوم.

العبّـارةُ مـن دون مجذاف أيتهـا الغبية، عبّارة «ابن ماجـد» تروح، وعبّارة «ابـن فضل» تأتـي، هل انتبهتِ؟ الوحيـدة التي التقطتْ يوماً مـا كان مكتوباً. كان في أحد مشـاويرها وهـي طفلة لتعبر إلى الضفة الأخـرى مع الخالة إلى التنومـة. لوحة متواضعة صدئة أكلت الرطوبة والملح أغلب حروفها. أم أنها التقطت الأسماء من حوارات كل تلك السطوح التي لا تكفّ عن الثرثرة؟ لا تدري لِمَ شعرتْ بأن فستانيهما يقصران ويقصران هي وخالتها وهما تسيران، وربمـا سـيصعدان إلى ما فـوق الركبة في أثنـاء العبور وسيكشـفان عن جزء كبير من جسـديهما. خافَت، بدت الخالة غير مكترثة بالدرجة التي تسـتدعي الاكتـراث. لم تخـشَ أن تلفِتا الانتباه، وقد يأتي مـن يخطفهما بتلك الحجّة، ويؤكد تهمة المعارضة.

ولكـن كيـف يحمل الشـطّ ثِقَـلَ كلتـا العبّارتيـن المكتّظتين بمـا عليهما مـن روائح بشـر حية وأمـوات؟ خالتهـا المنهمكة بمتابعـة الطريق لا تنصت إلى أسئلتها.

الرحلـة القصيرة في اختراق الشـطّ، من الكورنيش إلـى التنومة تجرّدت مـن واقع ولبسـت واقعاً ثانيـاً. بعد أن كبرت صار معبـر الجامعة هو الهدف. مصادفات لا عدّ لها. ضباب الرياح الشرقية الكثيف، مناداة فلاحين، منبّهات

سيارات مخنوقة، الشَّعْر الذي فَقَدَ تسريحته قبل ملاقاته، بعد أن أمضت وقتاً منذ الفجر في تصفيفه. تستندُ إلى أقرب عمود في تلك العبّارة التي توافد الناس إليها من دون عدّ. المقيم فيها إلى الأبد، ذلك الطويل المجنون الذي لا ينظرون في عيونه، فتنظر إلى العمّال بإعجاب، كيف كانوا بثقة ومن دون جهد يرخون الحبل فيهبط اللسان ويصير قنطرة للراكبين؟ صوت الاحتكاك والالتحام مثل اصطكاك أسنان، بين حافة العبّارة وحافة المعبر. تنطلق العبّارة متماوجةً، مخترقةً ستارة الرطوبة الثقيلة فوق الشط. يُخفي سائق العبّارة نفسَه. تتبدى صورة الواصل من جانب التنومة. الراقد في تابوته الملفوف بالعَلَم، مُثَبّتاً بحبل على سطح سيارة تاكسي رابضة على أرض العبّارة. تمتمة الشفاه وهي تطلب الرحمة الغامضة. أحدُهم وقد بدا تائهاً، يسأل وهو يترحّم، مِن عبادان؟ المحمّرة؟ لا، لا، نقطة تسليم الشلامجة.

الحبلِ الذي يُرخى متين، واللسان ينزل ببطء كأنه يردّ التحية قبل أن يُطبِقَ على حافَّة الضفة الأخرى. يُبعِدُ الهديرُ الأليف لانطلاق العبّارة الأصوات. يصعد الدخان ورائحة احتراق الديزل فتكاد ركبتاها تخوران لفرط اللهفة. تنظر إلى الماء كسيارة إطفاء. والله ستقع، وسيقولون؛ وقعتْ بسبب الحب فعلاً. تعيد قراءة آخر رسالة حبّ منه عشرين مرة. لا تراه. في كل المرّات التي حاولتْ، فشلتْ في تقَصّي مكان ربّان عبّارة الموت. يرافقها الهاجس حتى تدخل بوابة الجامعة. صديقتها تسارع لسحبها جانباً. تضامنتْ معها على الدوام، وهي مَنْ أرادَ الإصرار على أنّ (لدينا ما يفرح، دعينا لا نكثر من قصص انكساراتهم المختَرَعة).

لم تكن لديهم موهبة تُذكَر في فن الاستشراف، لكنها كانت تقصد ثرثرة الناس، القلق الآخذ بالظهور، ومن الجانب الآخر ملاحقة المتهمين بالمعارضة، واستدعاءات أستاذ الثقافة القومية وابتزازاته لها. لم يقترب منها. كان يدرك جيداً أن جهازاً أمنيّاً برمّته يمكن أن يكون موظّفاً لمراقبة طفلٍ!

قامت الحرب. ستُهوّن عليه. ما الحرب غير الذي قَرَأْتُه في الروايات. عليها الاحتراس فحسب، على الأخص تجنّب تحرّش الجنود الملغّمين

باشتهائهم المخيف. قالوا: وقوع الحرب هو الواقع الوحيد. لماذا هي أقلّ خوفاً وتحسّباً؟ هل لأنها تشعر بالحبّ؟ لا، بل لأن روايات الحرب التي قرَأتها مُسبّقاً، كلّها لم تكن عن الموت، إنما دارت جميعها حول الانتظار.

تعاليْ من هنا. تمسكُ صديقتها برسغها وسط زحام العابرين، تشدّها بعنفٍ لتخرجها من سرحانها، قبل أن تتوجه إلى لسان العبّارة الذي امتدّ.

فجأة يُفْسَح الطريق أولاً للموت لكي يمرّ!

3

تلقمُ الهاتف العمومي بالمزيد من الدراهم. كان يبتلعها بسرعة هائلة. يحدث أن يبتلعها كلها دفعة واحدة وينقطع الاتصال. ولا يمكنها استرجاع النقود بعدها. تحاول فيتدخل أحد الجنود من خلفها في الطابور، من دون أدنى استئذان. يزيحها وقد نفد صبره ليركلَ الهاتف ببسطاله المُطيّن. ركلة قوية تجعلها تهتز في مكانها. تلك كانت طريقة ناجعة أحياناً، لا تلبث الدراهم إثرها أن تكرّ نازلة. يفيض الحيز محل استعادة الباقي من المبلغ. تدفع بأصابعها الراجفة الباب الصغير. تجمع العملات وتتحرك من مكانها. لا تجرؤ البتة على إدارة الرقم ثانية، رغم حقها في ذلك. الطابور الذكوري من خلفها قطار بخاري، يفرزُ عَرَقاً مغليّاً ودخانَ مَراجل. تتحرّك من مكانها داخل المقصورة فيتقدّم الجندي الذي من بعدها بالحال.

يندر أن تمطر السماء بهذه السَّيَّابية! يُمّه! يوم! أمّه لا تسمعه جيداً، يُمّه! والوقت يفلت منه، في مناداة الأم بطيئة السمع والحركة، ليتحدث مع زوجته والأولاد. ودّ سماع أصواتهم قبل انتهاء القِطَع المعدنية التي في حوزته. يصفق السمّاعة بغضب. يبدو أنّ الخطّ انقطع معه أيضاً. لم ترجع إليه باقي العملات. يكاد أن يقلع السمّاعة من مكانها. أوشكت أن تمدّ له يدها ليتناول ما يريد من الدراهم، لا رحمة للجمع الغفير في الخلف، يصيح محتجّاً على دَكِّهِ الجهاز ببسطاله، فيستدير ويغادر الطابور بهيئته المعفّرة بالطين.

الفضاء خلف الكابينة كان مبنى قديماً للبريد شبه مهجور، احتمى به

بعـض المنتظرين للدور أو مرافقيهم. حذوه تلّـة خربة موحلة، فَتَح نَقْرُ المطر المتواصـل قنـواتٍ فـي منتصفهـا وجرت السـيول إلـى حـدود الرصيف في الشارع. لم يكن باقي الجنود مهذبين، وقد يتقصّد البعض إسماع آخرين كلاماً سخيفاً لمضايقتها. العملات من فئة الدرهم ومئة فلس في يدها. يحدث لسوء الحظ أن يصيب الهاتف العمومي العَطل قبل أن يحين دورها. رائحة أنفاسـه تلفـح خدّها عبر الرسـائل المبللة التـي وصلتها مع أحدهم فـي إجازة. الرقم بغدادي طويل، ولكنها تحفظه عن ظهر قلب، كل يوم جمعة، موعد نزوله من المعسـكر، كيلومترات عن بغداد، عند بيت أقربائه، السـاعة الخامسة. الوقت غير مناسب لها لصعوبة استئذانها، وإلحاح الخالات والعمّات على مرافقتها. تضطر للاستسلام أحياناً، بدلاً من ضياع الفرصة لسماع صوته.

كان المطـر يخنـق صـوت المدفعية فـي البعيد. رأسـها محنـي وجبهتها تلامس حافـة الجهاز الحديدي. رائحة البلاسـتك للمقبض خانقة. السـلك المبروم لكثرة الشـدّ والانفعالات ارتخى. تهدّل في أكثر من مكان، ويوشك أن ينقطـع. ما هذا الصوت الذي يجب أن نسـمعه؟ ما القلق الذي يبعثه فينا؟ مـا سـرّ هـذه الحاجة الملِحَّـة المبكيـة؟ ولماذا حينهـا لا نبالي بمَن يسـمع؟ يلتصق البعض من الجنود بزجاج المقصورة تحرّشاً: أقسمُ بشرفي هذه الفتاة المرتجفة لا توافي إلا حبيباً بقبضتها تلك على سماعة الهاتف العمومي.

4

إقامـة وقتيـة في مكان آمـن. حين تعلو الأصـوات كنتُ أحـدِّق مِن على السـرير في الدش المنتصب فوق رأسـي. ينتابني الإحساس بأنه سيقطر عليّ شـيئاً أخضر صدئاً، صديداً مخاطيّاً سـيلوّث جسـدي المُتَلحِّف حتى حنكي فـي أثناء استلقائي. أسـمعُ إيقـاع القطرات رغـم التغليف المُحكَـم للرأس بكيس من النايلون، ورغم غَلْق الفم داخل الكيس بشريطٍ لاصق عريض.

لا تغمـضُ عينـي بسـهولة. قامـوا بتسـليط فوهتـه فوقـي تمامـاً، وكلمـا دفعتُ رأسـي أعلى الوسـادة تحاشياً لما سـينهمر عليّ كنتُ أصطدمُ بخلّاط الحنفية من خلفي.

مـكانٌ عانـس. لا يمكن لزنزانةٍ إلا أن تشـي جدرانهـا بالرائحة والصور. يافعـة، لا يكـفّ جسـدي عن الرجفة طـوال الليل، ليس خوفـاً فقط. لفرحي به، كنتُ أنظر في المرآة الصغيرة إلى جانبي. جسـدي وهو يُهدى إليه. تروح أظفـاري تُقشّـر طبقات طـلاء الجدار حذو السـرير، مثل قطـة بيتية لا تملك وسائل أخرى لتنعّم مخالبها. ترتسم أشكالٌ غريبة. كيف ترين كل هذا؟ الفن فـي الرؤية. أرواح مخنوقة تلـوذ بالزوايا! رؤوس اقتيدت من شَـعْرها، هناك فـي الزاوية، بين السـقف والجدار، مجنونات معلّقات فـي الهواء. لم تدخل هذا البيت بنات غريبات قبلكِ. لكني أرى نسـاءً، أقفلْن الباب على أنفسهنّ، ونُسيّ أمرهن. ليس غير العنكبوت المُسنّ من يسندهن.

قـد اعتنوا قـدر الإمـكان بتنظيف المـكان. لا تتجـاوز مسـاحته المترين المربعين، وجرى تجهيزُه بسريرٍ منخفض امتدّت عليه حَشيةٌ لم تكن سميكة. وزني لا شيء، وقد صَفَّ لي في الجدار إلى يمين الباب خِزانةً حديدية طويلة ضيقـة، تحوي قسـمين، كتلك التي تسـتخدم في الدوائـر الحكومية. دخلتْ عبـر البـاب مثل عمـود كهربائي وانتصبـت أمامي. ذرور مـن الصدأ الأحمر تهمـي من أدنى احتـكاك. رائحتها تعلق بقوةٍ في أشـيائي القليلة كلما فتحتُ أحدَ بابَيْها الضيقين. قميصان أبيضان، زوج جوارب نايلون، منشـفتان، وماذا بعـد؟ مكياجـي لم يكن يتعدّى قلم الكحل وأحمر الشـفاه. يستلّه من جيبي ليستنشقه. شهيقٌ بطيء وعميق.

ظـلال. حيزٌ صغير رطب مهمـل وقديم، تهتز جدرانه فـي كل مرة تدوي قذيفة على أسـفلت الشـارع، أو تنفلق في الجو. الباب ضيق، لا يُفتَح إلا إلى الخـارج، أقْفلُـه عليّ من الداخل بقفلٍ رخوٍ من نـوع أنثى وذكر غير متحابين كثيـراً؛ يظلّ ذلك الشـقّ الطولي الرفيع يسـرّب ضوء الخـارج الذي ينحجب لثوانٍ ثـم يعـود: أزواجٌ مـن عيـون نصـف مفتوحـة، متلصّصة فـي رواحها ومجيئها، خارجاً في فضائهم المنسي.

مـواءٌ متواصـل. حين تهيج أصوات القطط يتحرك شـيء فـيّ. أعرف أن

حركـة ما تكون قد اقتربـت من الباب الجانبي للمطبـخ المطلّ على الحديقة وموقـف السـيارة. يكون قد انفتـح ودخل أحدهم أو يكون قـد غادر. أتخيل حالة الاسـتنفار التـي تصيب الثلاثة. ولكن قد يكون لمجـرد إعدادهم وجبة سـمك أفقدت القطط صوابها، أو يكـون طقس فتح أفواه جِرار الخضراوات المخلّلـة. كانـت تُلْطَش بالطين لمنع تسـرّب الهواء. ألصـقُ أذني في الجدار فأسـمع البسبسـة وهنّ يقرأن الأدعية التـي تقي الجرار من الإصابـة بالعَفَن. أحيانـاً يصلني صوتُ تسـلّقِ القطط وخربشـة مخالبها للشـبكة الناعمة على البـاب الأولي الذي يُركَّب ليصدّ الذباب والناموس، أسـمع صوت مناداتهم للقطط بأسماء الاثني عشر إماما، أو زجرهم.

ظهور وقتي. يتعبُ جفناي ويسقط الكتاب على إيقاع حساب أيام الإقامة فـي المـكان الآمن الذي وجَدَه لي. لـم يجرؤ أحد علـى معارضته، ولم أكن مرئيـة حتـى يتّحد بي فأظهـر. أنهض لأطفـئ الضوء أعلى فتحـة الباب، ولا تسـلَم أصابع قدمي كل مرة. تزرقّ بعد ضغط الزرّ على يمين الباب لإطفائه. أنسى حتمية الاصطدام بالحنفية المدفونة أسفل الجدار قريباً من الأرض إلى اليسـار. ألعن، بالضـد من الهذيانات التي تتسـلل إليّ مـن الفتحات. صرتُ أعـرف الآيات التي يطيّرونها في فضاء هذا البيـت. لم تكن الحنفية لتخيفني حين يسـقط عليها القليل من الضوء ليلاً، لكن أسـفلها كانـت هناك البالوعة ذات الفوهـة المربعة. رغم أنه قام بغلقها بقطعةٍ من ورق مقوى ثبّتها بشـريطٍ لاصـق عريض، ظلَّ الصوتُ الذي يطلع منها يشـبه نواحـاً أجوف، له رائحة عطنة. منعني من فتحها ثانية وتسليط ضوء التورجلايت بداخلها.

ضحك وخوف. ينامون مبكراً جدّاً. أطفئ الضوء وأعود لمكاني. أمارس اسـتذكار الدهشـة في تخيّلـي لقاءنا، لمرتيـن، ولمرتين متتاليتيـن قام بتزوير إجازة النزول، نضحك وخارج المحرّم تنسحق في قُبلَتِه حبّات الرمل الناعم ما بين أسـناننا، وهو لـم يأتِ إلا قبل أن يستحمّ في النهر، لكنه يعود ليرتدي الملابس العسكرية المطيّنة ذاتها.

دفاعـات. كيف يمكن للجدران ألا تبوح بالسـرّ؟ ألا يمكن أنها تودّ ذلك وبشـدة؟ كانت سـتتنفّس؛ لذا كل تلك التصدعات، تلك الكسوة الثقيلة التي تنـزل علـى هذا البيـت المكعّب وتسـدّ منافذه. اختـاروا الحبـس الانفرادي بداخلـه. ربمـا لـم يكن اختيـاراً محضـاً، مثل مذهبهـم أو طائفتهـم. عادات فحسـب يصعـب التخلـص منها بمـرور الوقت. وجـوه خاليـة إلا من رعب الحيـاة. يتصادى الصوت ويتشـوش. هم يحذرون من تبـادل كلمات تخرج عن المقرّر للحوار، ولا مجال للسؤال عن شيء، أو جدوى من فكّ الأسرار. لا أتلصّص. لا يهمني إلا الجزء الذي يوضّح علاقتنا وصلته هو بهذا المكان.

آب. منتصـف تـلاوة مـن القرآن بـثّ المذياع بيانـاً هامّاً فـي المطبخ. لم أعـرف فحواه. تسـلّل مع رائحـة حمس البصـل عبر المشـبك الصغير أعلى الجـدار في الحمّام. أعمـى العنكبوت الهَرِم أغلب عيونِ المشـبك لضجره. أطفِئـت النار وفـرغَ البيتُ بعدها، علـى غير عادته. انقطعـت الأصوات. في العادة لا يغادرون غرفهـم إلا في الوجبات الثلاث اليومية، وأوقات الوضوء الخمسـة. بالإمكان ضبط سـاعات العالم وفقهـا. كل ما يفعلونـه هو التهيئة اللازمة لموتهم، تتخللها تدريبات على إسعافات أولية بسيطة.

تجـرأتُ وخرجت. فتحـتُ الغرفة المجـاورة لي. الفتحـة الضيقة تحت الباب تسرّب ضوءاً ساطعاً يثير استغرابي على الدوام. لم يكن الباب موصداً كمـا ظننـت. انفتح بمجـرد إدارة أكرة البـاب، كأنه الكون بأسـراره، بامتلائه وفراغه، بضجيجه وسكونه: أشياء كثيرة تتفتّت بمجرد لمسها، أخرى اختفت بعد ثانية من اسـتدارتي لرؤيتها. الأشـياء أصلاً تضيع هنا في هذا البيت. قبل يومين افتقدتُ أحد سـراويلي التي نشرتها على حبل الغسيل المخصّص لي. كان مُتاحـاً لـي التحرّك في باحة صغيرة، ذات سـقفٍ نصفي ذي خشـب بالٍ تحتمي تحته قططهم. يتركون حنفية الحوض الخفيض تقطر لهم الماء خوفاً من شرّ حرارة أشهر الصيف.

ينفتح باب الغرفة أمامي على مساحة مترامية شاسعة، بتأثير الحيز الضيق الذي حُشِـرتُ فيه، كما لـو أني أتنفس من داخل حكايـة خرافية. الضوء كان

وهّاجاً، خلاف كل البيت، أغشى بصري، قادماً من جهة الشبابيك العارية. الغرفة خالية من الستائر التي كانت سميكة مبطنة محكمة الإسدال في باقي أنحاء البيت. زجاج عارٍ من أكياس الرمل. طبقة سميكة من التراب تغطي سطوح كل الأثاث القليل في الغرفة. أثرُ أقدامٍ ليس بقديم. طبعة موحدة ومقاس واحد، غطّته طبقة من ترابٍ حديث.

تماسّ. يدخلُ فجأة بعد غيبة طويلة جدّاً. أفزّ من مكاني. لابد أن شيئاً ما حدثَ في العالم الخارجي. استحمّ في النهر، وزوجةُ فلاح أعارته ملابس، عوض ملابسه العسكرية. كان رطباً لزجاً متعجّلاً وقد عَلِق شيء على جسدِه مني فأنذَرَ بهروبنا. في الحال ومن دون إشعارِ أحد، قال. ذلك كان بعد أن أخبرته بما انسفح على أرضية الغرفة المجاورة من دون قصد مني. امتلأت المساحات الفارغة بتلك القناني والعلب الزجاجية، أرض الغرفة الواسعة بأكملها. أحجام مختلفة، ألوان مختلفة وسدّادات وأقماع شتى. كانوا يشربون من هذا السائل الذي يملأ كل تلك القناني والفوارغ التي رأيت بعضها على رفوف مطبخهم.

حَفْر. مدينة مهجورة مثل تلك الأجساد التي أذكرها. أحدُهم تَعَمَّدَ أن يترك الباب مفتوحاً لتلك الغرفة. لا أذكر الآن بعد مرور كل تلك السنوات المعمل الذي يديره الأحفاد، إن كان في الركن على يسار الباب أم يمينه.

5

الصبية العروس مفتونة معجبة، تتأمّل جسدَها في المرآة لأول مرة فتُفاجَأ بما ترى. يباغتها. يا لجمال هذا الجسد، ويمنعها من ارتداء شيء. الغرفة التي تمّ حجزها لم تطلّ على البحيرة كما تخيلت. لمحتها عبر نوافذ بهو الاستقبال من بعيد. كان لون الماء الساكن رمادياً، والأسمنت غلبَ على الأخضر في كثير من زوايا المنتجع. يعوم بضعة أفراد، من الرجال، في مساحة صغيرة قرب الحافة، وهناك حرّاس بملابس عسكرية يروحون ويجيئون. ولكنها

كانت غرفة عروسين لم يتركا فيها ركناً إلا واختبراه في غضون نهارٍ واحد. أحبّت طقم السباحة الذي اختاراه من محل الهدايا قبل صعودهما. مُلقًى على قطعةٍ من الساتان بلونه البَصَلي من خلف زجاج الفاترينة. أسودُ لامع بقماشةٍ من الجلد، وحلقةٍ ذهبية صغيرة تجمَعُ كوبَي الصدر لقطعة البيكيني الناعم. فاتهما الغروب الذي كانا سيشهدانه. ولكن لا بأس، سرير واسع، ستائر مخملية وسجاد أرضية وثير. تحوّطهما المرايا، والجسدان شُهبا في أول يومٍ من وصولهما. في غفلةٍ عن العالم، حين شعرا فجأة بجوع وقد حلّ المساء - كاد أن يُقعدَه على الأرض.

ارتدَت ملابسها وارتدى ملابسه على عجل. عليهما أن يتأكدا من قفل باب الغرفة. تنام ورقة السماح بالنزول لثلاثة أيام أمامهما على الوسادة، موقَّعة بمعجزةٍ من قبل الرائد في شعبة الأشغال لمعسكر الشعيبة. هل يضعها في جيبه، أم الأفضل أن يتركها في جارور الطاولة جنب السرير، أم يخفيانها داخل حقيبة السفر بين طيّات الثياب؟ لا، سيحتاجانها في أي لحظة. لم تسعفهما الخبرة الباكرة باتخاذ قرار سريع. عطّل المغَصُ دماغَه عن التفكير. تقدّم الوقت، والسماء من خلال شقوق الستائر الثقيلة قد ادلهمّت فجأة. الخوف لم يكن مؤرِّقاً بسبب انتظارها الممضّ لتلك الورقة فحسب، بل كان رعباً حقيقيّاً دفعها إلى أن تُسارع بوضعها في حقيبتها الصغيرة وهي مغمضة العينين.

ينزلان بكامل زينتهما السلّم إلى صالة الاستقبال. يخبرهما الموظف من دون اكتراث بأن المطعم قد أُقفِل. الوقت متأخر والصمت يخيّم على بهو الفندق. سَقَطا في الحيرة. تنظر إليه بوجه خائبٍ، ترفض التحرّكَ من مكانها، ما جعل الموظف الشاب بزيّ الاستقبال المكوي يتنازل ليقترح عليهما أخيراً التوجه هناك إلى الصالة، أقصى الرواق. تتبع اتجاه ذراعه الممتدة. الرواق طويل خافت الأنوار، لا يُرى في نهايته البعيدة غير بابٍ هائل مُقفَل وقد تماهى مع الجدار. كانت واضحة، عدم رغبة الشاب بالإشارة إلى المكان. لكنه استدركَ، بالإمكان أيضاً طلب الوجبة من هناك إلى الغرفة، ثم أردفَ بكلفةٍ أعلى قليلاً. ما تزال بنشوة عروس، والعاشق المنهك، قد احترقت كل طاقته، كما يبدو لن يتمكن من الوقوف على قدميه، أو يصعد إلى الغرفة ثانية،

أو يفكّر، إن لم يأكل شيئاً. لم يكن القرار سهلاً، وبوجهَيْن مُترددين حَسمَت المواجهةَ واقترحتْ عليه التوجه إلى تلك الصالة ذات الباب الموصد.

مغارة تنفتح على فضاء شبه مظلم، وخيم لكثرة الأنفاس، مُضاءٍ بمصابيح ديسكو. عزفٌ موسيقي صاخب وراقصة بدينة تتقافز على دائرة صغيرة مرتفعة قليلاً عن الأرضية في الزاوية الأقصى من التجويف الصخري الضخم. أشار رجل يشبه الزرافة بتطوّحه إلى طاولة فارغة وسط الظلمة. يدُ العاشق امتدّت برجفةٍ لتعصر يدها بقوة. فرّت من على الطاولة حشرات بفزع. هما بانتظار ما طلباه من لائحة الطعام. ليس بإمكان الطبّاخ إعداد صحن في ساعة متأخرة كهذه، قدَحَي عصير وخبزة. نعم، يضحكان للنادل الذي لا تكاد ترى ملامحه، يؤكدان له طلب العصير. تمنّعت بادئ الأمر، لكنها شاركته أخيراً دُوارَ الويسكي الوحشي ظهراً في الغرفة. تلك كانت أول مغامرة مدهشة ذَهَبَ بها الجسدان بعيداً!

بدلات زيتونية، مسدسات، بدلات مدنية، لافتات بخطّ الرُّقعَة بالحجم الكبير لشعارات، يبرز اسم الرئيس من بين سطورها بخطّ النسخ باللون الأحمر. أقمشة لمّاعة، ضحكات أفلام مصرية، مكياج مفضّض صارخ، رائحة كحول وعَرَق أجساد رغم الجو الشديد البرودة. لكنها كانت تنظر بلهفة إلى القضمة الأولى، وهي تدخل فمه لتشعر بسعادة كبرى. تمتدّ يدها من تحت الشرشف إلى يده الندية تضغط عليها. كانا مكهربين، سعادات متتالية كأن بَرْقاً يمسّهما بكل نقطة تماسٍّ بين جسديهما. لم تكن ترغب بأكل شيء. لا ترغب إلا في النظر إليه، بينما هو يمضغ الخبزة الجافة، وهو يشرب من بعدها العصير، وهو يجفّف فمه ويعاود ليلتَهِمَ قضمة أخرى. متوجسة خيفة أيضاً للكائنات الغريبة من حولها، بلهفة للصعود بأسرع وقت إلى الغرفة. لهما الحق في التصرّف ببعضهما كما يشاءان. كلٌّ منهما بكليته للآخر وحده. كانت ستقولها، لنصعد، لولا خجلها، حتى إنها خفضت بصرها خشية أن يظن أنه حريق الرغبة في معاودة الإثارة والهمهمة والالتهام.

من أين حطّ هذا الكائن؟ تساءلت في سرّها. بدا حبيبها متفاجئاً بحضوره. شكّت للحظة إن كان يعرفه حقاً. لم يستأذن حين سَحَبَ كرسياً من الطاولة القريبة وانضمّ إليهما. كان ضخماً جدّاً، حتى إنهما بدوا قزمَيْن أمام عملاق يرتدي الدشداشة والنعال. كان يحمل أعلاماً ورقية، تتدلى من جيبه حلقة معدنية كبيرة تحمل مفاتيح ضخمة شتى. شعره كثيف أسود أشعث. لم يكن وجهه واضحاً، سحنة داكنة جدّاً، كأنه كان مطليّاً ببثور غائرة زرقاء. تعصف ريح فجأة بالطاولة الصغيرة الغضّة. تستدير لتتتبّع مصدرَها فلا تفلح. ضَحِكَ وهو يضرب على كتف الحبيب يسأله عن الرحلة. يستدير صوبها ليقول كان هو مَنْ حصل لهما على هذا الحجز السريع في هذا المنتجع الخاص كهدية. عيناه تتحركان من خلف قناعٍ جامد، تقوّر ما حول العينين والفم، يبقى محملقاً في وجهها بانتظار رد فعلٍ، لا ترى غير دائرتين من بياض لامع وسط العتمة، ولم تعرف ما يتوجب قوله. لم تعلم شيئاً بشأن الحجز. تستدير، تستنجد بحبيبها لكنه كان جامداً في مكانه.

شابّتان بشَعْرٍ فاحم مسحوبٍ بمكواة انضمتا إلى الراقصة الأولى، كن يرقصن مثل حشرات طويلة السيقان بقفزات غريبة لا تتسق مع إيقاع الموسيقى الصاخبة. تستمع إلى أنفاس حبيبها، قصيرة، تكاد تسمعها متقطعة. لا تظن أن نبضه منتظم. هناك خطأ ما من دون شك في هذه المغارة المقفلة. الهواء مسحوب، قليل جدّاً في داخلها!

أي صدفة! قال ورحّب بكليهما. فاصل للاستراحة. فمه يظل مفتوحاً. يرتخي ويفيض في مكانه، الصدر يعلو ويهبط والصوت الصادر من الفم المفتوح مزيجٌ من لهاث وصفير رفيع. ويسود الصمت لحظات يقطعه بمناداة النادل الذي له هيئة زرافة. يستدير بعض الشيء ليتمكّن من متابعة ما يجري من حوله.

الشمبانيا على شرفكما، وتهنئة أخرى مني بالزواج. ثلاث كؤوس كبيرة طافحة تموج الفقاعات فيها وتصعد. شيءٌ منها داعَبَ خدّها وبغفلةٍ ابتسمت. تسمّرت عيناها تتابع صعود تلك الفقاعات الفضية التي كانت

تومض مثل نجوم في ليل حالك، صعودٌ عسلي شفّاف بطيء متلاحق من القعر، لا يكاد يلبث على السطح حتى يفقأ، تتشمم الرائحة، لكنها لم تكن راغبة بشرب شيء، لم تلمسه. شيءٌ ضخم يشبه مفرّغات الهواء يشفط أصوات حيوانات تمارس الجنس، تتغير غلاظة الصوت ونحافته ببطء قبل أن تتخلل مسامات الجدران وتتلاشى. شعور ما يصعب التخلّص منه. ينزل هواء ثقيل من أحد الأنابيب في السقف. تنبهت إلى وجه حبيبِها فجأة. كان متعرّقاً. أدركتْ أن المغص لم يتوقف. تتأمله بقلق. نهَضَ، وقف لثوانٍ، عدّل من قميصه تحت السترة التي كان يرتديها، همَّ بقول شيءٍ لها، ولهذا الجالس أمامهما الذي كان يتابع الراقصين. شَربَ القليل من العصير، نَظَرَ إليها ثم تركهما مستأذناً ليقصد التواليت.

مرّ بموظف الاستقبال الذي كان وجهه شديد الصفرة. أشار إلى طريق الحمّام. لم يستطع التغلب على ألمه فَخَرَّ على الأرض ما إنْ أغلقَ الباب من خلفه في التواليت. فتح إبزيم الحزام بِرَبْكة، ومن ثم أزرار البنطلون، جرّ جزءاً من طرف القميص وأبقى البنطلون مفتوحاً والحزام متدليّاً.

لم يشأ أن يكون متطوعاً، لكن ذلك سيَضمَن له راتباً أفضل، برأي العائلة. سيبعده عن السواتر الأمامية برأي الأب. تخصّصه في الأشغال العسكرية هو الأفضل برأي صديق العائلة القريب الذي كان برتبة مقدّم. هو من تبرّع بالوساطة له. وتطلبُ حبيبته منه أن يصبر على كل ذلك.

باعدَ ما بين ساقيه لعله يتخفّف من الألم الذي هاجمه. حرّكَ ساقيه ليبدّد الخدر الذي أصابهما. وكأنه مُصاب بحُمى. سَمع نباحاً في البعيد. أخذَ الألم شكل موجات عنيفة تشمل كل جسده، ترفعه وتكوّره في مكانه.

أُجْبِرَ على تسليم صفيحةِ تَمْرٍ للنقيب. كان في طريقه متوجّهاً إلى معسكر خان بني سعد يومها لإجراء قرعة التنسيب. شَعَرَ بضيق شديد في صدره، ونارٍ تحرقُ أطرافَ قدميه في البسطال. لو لا صوتها المستعطف الحاني في مكالمتها ما تغلّب على التواء عضلات بطنه. تلك حالة لازَمَتْه ولم يجد لها علاجاً، منذ ذلك التاريخ. شيء صلب يتحرك في بطنه. تَمْرٌ من أجود

الأنـواع، مُنقّى باليد ومشـطوف حبّةً حبة، مكبوسٌ بالسِّمْسـم والحبّة الحلوة في صفيحة تمّ خياطة غِطاءٍ من الخام ليغلّفها بأكملها، مع تحيات العائلة.

وهـو متهالـك على أرضيـة الحمام الواسـع المعطر، سَـمَعَ جلَبـة ودبكاً فـي الخارج. ثـم ضرباً قوياً أهـوج على الباب قبـل أن يندفع مفتوحـاً. كانوا يتدافعـون، يدبـرون ويقبلـون، تتضاعـف أعدادهـم، يزمجـرون لوهلـة ثـم ينطلقون بالنباح. فجأة كانوا جميعهم قد وقفوا عند رأسه بانتظار نهوضه.

نَضَحَ العَرق من تحت ملابسه العسكرية الخشنة حين دخل غرفة النقيب، وأنْـزَلَ الصفيحة التـي يحملها بيده اليمنى عند البـاب. وضعها على الأرض بحـذر جانباً كي يؤدي التحية، كما تقتضي التقاليد العسـكرية. تخيّل النقيب وهو ينهض ويرفع ساقه ليبول عليها.

كان ممـدّد السـاقين فـي الحمّام على الأرضيـة الرخامية البـاردة. حاول النهـوض من مكانه، اتكأ إلى جدار السيراميك واهنـاً، يهرع صرصار صغير يحتـار في وجهتـه، ويختفي أخيـراً خلف مقعـد التواليت. تغيـم عيناه. يرى عروسـه باقـة بالونـات بألوان فرحـة تصعد عالياً في السـماء وتختفي، شـيئاً فشـيئاً. اللهفة لم تترك لهما حيزاً للحذر. الفرح بالفرصة أشبَعَه فلم يعترض. يجتاحه شوق. بكى من شدة ترف الالتحام بها.

مَـنْ هُم هـؤلاء؟ النباح يهدأ ليعـاود من جديد بقرب أكبـر. يلفحه الرذاذ المزبد. ترتفع الحرارة في جسمه الذي رَكَس وتكوّم في مكانه.

تأخَّـرَ في العودة. تزداد شـدة برودة الصالة فترتعـد أوصالها. بقفزةٍ انتقل الكائن الضخم إلى الكرسي الملاصق لها. لَفَحَتها أنفاسه كالعَصْف. تضخّم كل شـيء فيه؛ وجهه، أذناه وكفاه. تسـقط الكلمات من فمه غير مترابطة. يودّ أن يقبـل قدميهـا. اخلعي حذاءك. هيّـا. ظلمة لا تتبين منها سـوى مباغتة يده وهـي تمسّ من تحت الطاولة بوز حذائهـا الصيفي وطرف أصابعها. يريد أن يلعـق أصابع قدميها. تبحث عن مخرج للطوارئ. إنهم قادمون. الباب الذي دخلا عبره اختفى. لم ترَ سوى جدار. دعينا ننطلق إلى بغداد. سأسألُه. لا، لا،

الأهم هو موافقتكِ، أنتِ. ولكن هذه ليلتنا الأولى هنا. بالإمكان مرافقتي، لنْ تَرَيْ حرباً في بغداد، بغداد عروس، مثلكِ، مجرد شائعات وبضعة صواريخ تائهة. لا عليكِ. سأدللكِ، أوفِّر عليك عناء الطريق ومضايقات مفارز الجيش والأمن. هاكي. كأنها الريح تهبّ من فمه برائحة لثّة كريهة. التفتت يميناً ويساراً. لا تعرف كيف استقرت على سطح الطاولة ضبّات نقود ورقية داخل أكياس بلاستيكية، فَضّها من ربطات من المطاط العريض، مجعّدة مدموغة بطبع أصابع بنفسجي غامق. عملات بنقشات غريبة ملونة، دَفَعها بيده نحوها وهو يتنخَّع، تساقطَ منها على الطاولة وعلى الأرض. تهرع جرذان لتسحب أوراقاً إلى جحورها. يريق الشمبانيا. من أجلكِ، كلّه من أجلكِ. ألا تتذكرينني؟ ألم تعرفيني؟ يده تلعب بكعب قدمها. ملامح وجهه ذابت وساحت على بعضها. حتى وإن توقّف عن الكلام، يظلّ فمُه مفتوحاً، يعود ليبلّله ببصاقه الذي يتجمع رغوة بيضاء على الزاويتين، لا ينطبق الفم، ولن ينطبق بسبب الأسنان الصفر المنخورة المتراكبة المدفوعة إلى الأمام.

الأقنعة تتجوّل من حولهما. شرعت الألوان الجيلاتينية تذوب وتسيل، شيئاً فشيئاً، على الصدور، الطاولات، من السقوف وأنابيب المجاري المعلّقة فيها.

الإجازة التي انتظراها طويلاً لم يحصلا عليها إلا حين سافَرَ وحيد القرن الذي كان يملك مؤخرة كلب، حينها نابَ عنه كلب رعاة من الاحتياط، هو مَنْ مَنَحَه ورقة عدم التعرض تلك لثلاثة أيام فقط. كلبُ رعاةٍ لا يُعرَف له شكل. كيف حصل ذلك؟ كان ذلك شبه مستحيل بسبب إعلان حالة تأهّب في القطيع. مضافاً إليه عِناد الكلب منذ مدة. يتحكم وحيد القرن هذا بمصير جنوده وضبّاطه في تلك الشعبة، صنع له جمهوريته الخاصة به التي لا يتسرب بشأنها خبر، وحده يقرّر نزولهم من عدمه، أشكال عقوباتهم، حبسهم أو إطلاق سراحهم. إنها على العموم تربية معتمدة في الحظائر.

يختضّ جسده خضّاً على الأرض الصقيلة الصلبة الباردة. نوبات

قشـعريرة ورجفات عارمة. يرمق حوض المغسلة. يبغي الوصول إليه ليغسل وجهه، لكنه يلغي الفكرة. الضوء يغيم ويتوضح. تَنَحَّوا قليلاً جانباً، لا يدري ما الذي كان يدور من لغو بين تلك الحيوانات الضارية بشـأنه. لم يفهم تلك اللغة التي كانوا يتبادلونها. ينتهز فرصة تداولهم النقاش ويحاول الفرار.

أعلنوا زفافه، المهندس الخرّيج، عاشـق فتيّ، حمَلَه الجنود على أكتافهم وأطلقـوا الزغاريـد. وضعـوا فـي عهدته عقـود مشـاريع البناء التـي تتولاها الحظائر، وحدته من قامت ببناء ملحق المنتجع الخاص بالنخبة، على ساحل البحيـرة الوديعـة القديمة التي حلما بهـا. تبين أنها صارت حِصراً للعسـكر. يرتفـع صوت الموسـيقى عاليـاً. شـقاؤه في تلك الموسـيقى النافـرة، مزيج مـن طبول الحرب والديسـكو ودفوف الزفّـة. دفعة واحدة. شـاحنات النقل الثقيل كانت تسـدّ الرؤية عليه حين زحف تجاه المدخل. لم يكن باسـتطاعته الهـروب. كانت دائـرة الكلاب التي تحيط بالمبنـى والبحيرة، تضيق وتضيق متوثبة تكشّر عن أنيابها.

في النُّزْل المؤقت

1

سيكون اسمها منال، لأن والديها رغبا باسمٍ سهل منساب. من دون دلالات عربية بالغة، أو تعقيد في اللفظ. اختيار في محلّه. هل كان استشرافاً؟ ها هي قد حطّت في بلادٍ من أقصى القطب، حيث تصطفق الحروف العربية ببعضها، وتتحد لتطلق رنيناً واحداً يقترب من الحَفْحَفة في الأذن الإسكندنافية.

لم تسألهما عن مدى رغبتهما بها هي ذاتها- سيتساهل الوالدان إزاء السؤال. سيحسبانه من شطح خيالها. تتدفّق تلك الأفكار شيئاً فشيئاً ولا تتركها في سلام. تدور برأسها أسئلة غريبة مثل: لِمَ قررا إنجابي؟ سهلة سليمة، ولكن كلّ خَرقٍ لجلدِها شديد الوجع، وإن كان ناعماً، وهي تتحسّس من أدنى اقتراب تتوجّس فيه جرعة مشاعر إضافية، وإن كانت بحاجة إليها، وإن كانت كلمة حب، وإن كان توصيفاً عابراً لعجوز، خبراً عاجلاً، أو إدلاءً عامّاً من داخل شاشة ما. إنها حتى صارت تتأوه ألَماً للاشيء، هروب ومطاردة ولهاث في داخل رأسها يجعلها تشعر على الدوام بإحساس يقترب من الإجهاد العصبي. ألمٌ حياتيّ لا تفهمه، فكل هذا الجسد المتورم المزْرَق يكشف لها، وقد ذَهَبَ الغوص بها إلى حدود بعيدة عن لا حكمةِ كل شيءٍ في هذا العالم.

تُكشِفُ لحبيبها «أَوْحَد» عن جانب فخذها لتريه البقعة الزرقاء المتجلّطة. راح عبر طقس غريب أضحَكَها يتحسّس باقي فخذها، مغمض العينين وبيدٍ، ذات رعشة مكهربة، يلامس جلدها، مثل بوذي بقدرات خارقة.

لا تظنه يفهم. تورّمَ بمرور الأيام كلّ موضعٍ في جسدها. لم يعد هناك من مجال للحقن، لدسِّ مصلٍ ما، رأيٍ سديد أو موعظة. لكنه بمداعباته، أظهر رغبة صادقة في التعرّف على الأمكنة المجهولة فيها في كل مرة.

تجهد منال لترى الأحداث مجرد أحداث، غير مهمة، كما عاهدا نفسيهما. الكلّ غرباء على هذه الأرض، لهم حروف لغات مختلفة لا يتقن الآخرون نطقها. شيءٌ من قبيل ارتخاء ومعرفة الحداثة، الصراع من أجل الإبقاء على التوازن بالحد الأدنى، إبعاد تأثيرات الأجواء المحبِطة لهما، والامتنان كل الامتنان لدولة تحتضن بؤسهما وتعينهما على دفنه. ذلك ما اقترحه هو عليها كاحتمالٍ عليهما تجريبه. إن فَلَحا في ذلك فسيكون بإمكانهما أن يعيشا حياتيهما بهدوء ورضا.

صباحاً حين تقف في الطابور لتستلم فطورها ستلعب من جديد دور السائحة من خلف نظارة شمسية، ولكن ليس من دون فضول يفضحه شيء من نشاط وحيوية. تقفُ بأدب جمٍّ وتَحضّرٍ من أجل ملء صحنها بما اعتادت عليه من المعروض على المائدة الممتدة طويلاً للفطور. هي في كل الأحوال لا ترى في صحنها إلا خبزاً وماءً، كأن أصلها طائر سَيُميتُهُ كل هذا العطف غير المدروس.

انفضّ الجمع الذي سار في الطريق حتى المفترق فتوزّع أفراده. تفادى أوحد اللقاء بأحدٍ منهم، بشكلٍ رأته منال صارماً، ومُخجِلاً. صار لا يتحدث بلغته بصوت عالٍ، إن صادف وتواجدوا في مكان واحد. كلّ الاحتدامات التي جمَعَتهم ودفَعتهم للمغادرة فرّقتهم. لا تعرفُ ضمن أي موجة نزوح هي. وهو لديه قدرة تصفُها بالغريبة، في مروره السريع على الماضي.

تعلّما من هفوات مَنْ سبقهما. اكتسبا مهارات جديدة. حاولا أن يتذكرا أشياء أقلّ حزناً قدر الإمكان، بروحِ هزءٍ ودعابة. الدفاتر المفتوحة تنام على وجوهها. تلك كانت ثمار الأسبقين. نجاحات عابرة، مجازفات صغيرة. حرصا على تطبيق النظام وأظهرا امتناناً للضيافة والاحتواء.

تشاغلوا بحروف العلّة الجديدة، بامتحانات إجازات القيادة، الحصول على مجال تطبيق في شركة ما. تحدثوا عن أول دخول لغرف العمليات، باحَتْ بعضهن عن ممارستها الحبّ مع رجال غير مختونين. وصَفَ البعض نومه مع نساء لأجسادهن زغَبٌ غريب كثّ، أقسموا، بلا لون.

خواءُ القصة، قيمة الخزين المتراكم بداخلهما متوهَّمة، تتجلى في مجرد جملة واحدة بسيطة تسقط على مسامعها. يضحى التخفُّف من العبء الذي حملاه معاً ضرورة. يضحى إفراغها تماماً أمراً مفروغاً منه نظريّاً. قسوة مفتعلة. ولكن من أين جاءت بهذه المرونة؟!

مرونة، أم ضعف كما يتصورونه؟ ذلك من أجل ألا يظهر عنادها للآخرين. أقرّت أنها تعاود لتبدأ من الصفر. تصفير حسابها، جسداً ورأساً كلما امتلأ. هو بمنزلة منح فرصة لهما. تنظر إلى العدّاد بهبوطه البطيء، كما تنظر إلى شحوبها بالمرآة كل صباح أول استيقاظها.

هل هي حقاً غريبة؟ هل يشغلها الأمر بقدر ما تشغلها أمور أخرى؛ الإقامة، اللغة، الشقة، الطفل، العمل، الشراشف وطلاء الأظافر.

متابعات لا نهاية لها. هذه طريقة عصرية في العيش. لكاتب العرائض وجود في كل مكان في العالم. يكتب طلبات استئناف بعد الإبعاد، طلبات عمل، إقامة، ويحرّر صيغ طلاق شرعي ولمّ شمل.

هل ستنتقي الآن من جديد شيئاً تظنّه أكثر عمقاً؟ لم لا تظلّ على السطح؟ لا عيب بالسطح. عليها أن تفتح العجين، الحياة مربعة الشكل، أن تعمل خطوطاً متوازية. ما جدوى العمق؟ يفلت صوت من فَمها المُقفَل؛ هل الحكمة هدف؟ ما الحكمة الشرسة هذه التي علينا أن ننطوي عليها؟ فيديو بثلاث دقائق: كيف تصنع حكمة في عالم متقلّب؟ صدى ضحكات مفبرك، ثم تسمع صدًى سماويّاً صديقاً يردّد من بعدها: يا عزيزتي، وما الحكمة في الحكمة؟

تخيلـي العالـم طوابق هذه المرة. هذه الطوابق انبنـت، الواحد تلو الآخر حـول جذع شـجرة ضخمـة وحيدة، كمـا في الأسـطورة، عَثَـرت عليها إلهة خسـرت معركتهـا فآثـرت النزول إلـى الأرض. قطعت آلافاً مـن الأميال في مساحة شاسعة من أرض خالية جرداء، دليلها طائرٌ كان في الأصل رسولاً قد ضاقت بقصة عشـقِه السـماء فبنى له عشّـاً وعاش أعلى تلك الشجرة وحيداً. أخلى الطائر لها مكاناً فأكلتِ الإلهة بِنَهَمٍ من الثمَر، صارا نِصْفَيْ بشـر تساكنا فـي تلك البقعة التـي كانت حدودها هـوّة عميقة غامضة لا يجـرؤ أحدٌ على التقرب منها. بعد أن حبَلَت تلك الإلهة تكاثر البشر وارتفع البنيان. هل كانت الشـجرة هي المركز، أم الإنسـان؟ قد يكون الإنسان شجرة في الأصل، وقد تكون الشـجرة إنساناً حوّلته الآلهة عن قصد أو لأجل اللهو فحسب، كلاهما يمرّر همّه ويَظلّ مُلاماً.

2

هضمـت منال، بعُسْـرٍ، هويتهـا كلاجئـة. الطفلة كبرت وصـارت عيناها ملونتيـن برغبة عميقة غامضة. تنقذف قسـراً بذاكرتها إلى تلك الأزقة الترابية البعيـدة، كمـا لو أنها تقترب من عتبـةٍ من تلك العتبات اللانهائية، مكنوسـة، مبرية الزوايا، وغير مقدّسة، تدكّ عندها قدميها الفَرِحَتَيْن لتنفضَ عن نعليها ما عَلِق من تراب. كيف كانت أي جارة، خبّازة، أو بائعة خضراوات تملك الحق في أن تسخَّرَها؟ كيف بمقدور أي عجوز مسنّ في الطريق أن يلحس بشرتها، وبإمـكان بائع الحلويات أن يقنصها، يضمّها قويّـاً ويقبّلها؟ انتصاراتها كانت في الهروب، طوال طفولتها. في كلِّ مرة وبحرية تامة يذكّرونها برأسها العنيد. تتملّص بحياءٍ مختنقة لتفلت من قبضتهم، من أنفاسهم وروائح ملابسهم.

صمـت يوحي لهـا بطُرق أسـفلتية فارغة تقريبـاً. كأن البثّ قـد انقطع. تعـود إلى التذكّـر. بعيداً إلى الـوراء. طفولتها في ذلك الحـي بأزقته. حين تصل من المشوار الذي كُلِّفتْ به، تنحشر بجسدها بين أجساد الأهل وهم يتفرّجون على المسلسـل المصري اليومي. تختفي لحظّهم السيئ الصورةُ

أمامهم من على شاشة التلفزيون. تنطلق أفٌّ كوراليـة، مع زفير بطيء من كل الأفواه. ما الذي كانت تفعله في تلك اللحظة غير أن تغطس في مكانها لتخفي نفسـها، لئلا يكون دورها ثانية بالصعود إلى السطح وتوجيه اللاقط الهوائي القديم؟

أضحت منال نزيلة فندقٍ مستديمة، تجده بسبب الإهمال المأوى المثالي للغربـاء، حين تضاءلت المسـاحات المأهولة الأمينة. يـأسٌ فاجع يتنامى في العثور على بيوتٍ لإيواء البشـر في العالم، رغم كل الثراء. شـيء عصيٌّ على الفهم. يُعْلَنُ عن قرب خلو الخزينة في العالم. تُختزل المسـاحات الشاسـعة ويضيق الحيز الذي يشغلونه. قيل لكثرة موجات نزوح البشر التي لم تنتهِ منذ بدء التاريخ: في كل مرة تُثوّر جهةٌ ويكون هناك سبب.

لا تلبـث الغرفة أن تفرغ ويتم تنظيفها من رائحةٍ ما؛ حتى تمتزج مكونات الرائحـة الجديدة بالتي سـبقتها. في هذه الغرفة قَطَـنَ عددٌ ضخم من الرجال والنساء والأطفال، في تعاقب منذ سنين.

تتشـمّم ورق الجدران المتقشّـر، إنها روائح البشـر، وهي قوية في إثبات هوياتهـا المختلفـة، يكاد يكـون لها ملامح ولون. قـيء أطفال جاف، حيض امـرأة، بلغم سـعالِ رجلٍ مسـنّ أفرط في التدخين، حشـيش وحِبْـرُ خيانات عظمى، وحليبُ عنزات مُسْكِرِ.

تخيليه فندقا عملاقاً، بسـبب ذرق الطيـور والحمام لم يُعرَفْ لون طلائه. تخيلي أن ما بين الطوابق محيطات، نيران، أو أسلاك شائكة صاعقة. افترضي أن المجاري تحته قد لا تكون سالكة وعمّال الصيانة محتالون، وأن المواعيد الغراميـة قـد لا تكون مُحلَّلة فيلجأ العشـاق إلى الشـمّ واللثـم في ظل غصن غـضّ قوي فقَعَ الأسـمنت ما بيـن البلاطات في فنـاءات الطوابـق المختلفة واشرأب. تخيلي لو أنّ تلك الإلهة سَنّت لعالمها العصري شرائعه وزمنه!

تقـف بالطابور متأملـة كل مَنْ يتقدّمها، ومَنْ هو مِن خلفها. لغات بألحانٍ

مختلفة. بعضها يمرّ مروراً سهلاً، والبعض تلتقطه الأذن لتجري عليه فحصاً. يا له من برجٍ بابلي صاخب هرطوقي. قد وضع البعض الكمّامة فجأة على فمه من دون أن يفهم الباقون السبب خلف ذلك. يتلفّتون يساراً ويميناً. خمسة، عشرة، عشرون... أين تمّ توزيع تلك الكمّامات، والألوان مختلفة، وفق الأجناس؟ كيف حصل هذا وذاك عليها؟ هل فاتَنا أمر؟ هل غمطوا حقنا؟ تحدث أمور كثيرة لا علم لنا بها. الماء يجري من تحتنا، وقد نغرق ونحن غافلون. هل للكمّامة دور في تأخير أو تقديم البتّ في معاملات إقاماتنا؟ مخططاتهم لا تنتهي، شأن كل الدول التي تدّعي الحضارة. صارت الكمّامة علامة الجواسيس والمخبرين. قلّة من حصلوا عليها. إجراء متعمد. يخشى البعض الاقتراب من البعض الآخر. هناك تقارير، تجسس، أقلام سرّية ووشاية، لمصلحة هذا، وضد ذاك. نعم إنها دولة مخابراتية، رغم كل ما يدَّعون. ليس هناك من استثناء. تنعقد لجان من الغرباء، أقسام تحليل سياسي متخصصة، تطلق تقاريرها، يحصل البعض على استضافات القنوات الفضائية المختلفة في العالم ليشرح الأمر. استقرار كلّ دول العالم يعزونه إلى قوة أجهزتها المخابراتية. يحذّر بعضهم بعضاً. ينخس بعضهم بعضاً. يتصلون بعضهم ببعض. يتصاعد القلق ليلاً فيصبح له صوت يشبه همهمات الكوابيس، والصراخ المنطلق من العلّيات. الطبيب المسنّ في الشارع الخلفي القريب من الفندق، إن لم يغلق بابه، فليس له غير أن يصفَ الحبوب المنومة والمسكنّات التي تحول مرضاه إلى جثث هامدة.

أول أوقات الصباح، الطابور ورنين جرس المدرسة وصرامة القوانين غير المرئية. يصطفّ البشر وفق ألوانه، ألسنته، مراتب وخطوط كتقسيمات الضباط والجند في استعراضهم العسكري. ومن أجل ضبط ألسنتهم يتوجّب عليهم نقع شرائط الضفائر البيض بالماء والصابون.

شيء في داخلها ارتاح رغم غرابة التصنيف. انفعالٌ يصل درجةَ العصف، لِما ترفعُه وتهدّه الريح. روحها تنحو نحو نضو لباس شتوي رطب قديم

وفحص ما يمكن أن تبدأ به من جديد. الحروف جديدة، ستضع لغتها جانباً، أو أنها ستودعها رهينة على الطراز القديم، باتفاق بين الراهن والمرتهن الذي تُعْرَف أمانته.

ترمّش عينيها لتذهب بالغيوم التي تمنعها من رؤية الأشياء بوضوح. خشي أوحد أن تشتكي عينها من شيء. تلك هي البقع الصُّفْر الباهتة التي سقطت على شبكية عينيها من ضوء نيون غرفة الولادة في مستشفى طوارئ البصرة آنذاك. ظلّت تدور معها بعد موت الطفل، ملتصقة على الجدران، في السقوف، في السماء، تراها في كل مكان. ألا تراها أنتَ أيضاً؟ إنها الصدْفة التي كانت تبحث عنها. هي التي اختارت أن تُفْقِدها طفلها. ألا تعرفها؟

تخيلي، ليكن خيالكِ خفيفَ الظلّ، نزق هذه الآلهة التي تحترف التحويل، شيئاً فشيئاً وتحت ضغط شعورها بالملل تُقدّم لنا وصفة كعكة تَحضُّر، سهلة الاستنساخ، لا طعم شديد التميّز لها، غير مُكلفة، سهلة الإعداد، مع ختم ضمانٍ، يعرفها كل مَنْ في العائلة، ستوحّد البشر برمّتهم، قد لا يتقن صنعها، لربما تكاسَلَ بمرور الوقت للكشف عن الجديد المبتكر، ولكنها كما يُروَّجُ لها تماماً، الوصفة المعصومة الخطأ.

و... تخيلي أنثى وذكراً يفلتان من كل الذرائع لتنظيم هذه الحياة!

3

تضع اليابانية أمامها على الطاولة نبتةً سوداء مجففة، إلى جانب مَقْلَمةٍ مستطيلة بلون أسود. كانت قد غيّرت مكانها من الجهة المقابلة للنافذة، لأن الضوء يتعب عينيها.

في حلقة القاعة الصغيرة لكورس تعلّم اللغة جلست منال في الزاوية عند إحدى تلك الطاولات العارية الباردة التي أخذت شكل مستطيل ضلعه المفقود طاولة المُدرّسة ذات الشَعْر البلاتيني.

جمعت زوجة السفير الإسكتلندي بصفّها إلى اليمين وصفات طبخ وقامت بترجمتها إلى الإنجليزية وببالها عملُ كتابِ طبخٍ إن توفر الوقت. تخلع أحد قرطيها. ماسة صغيرة. تشير إلى قفل القرط. تخشى عليه من الضياع.

البلغاري ابن رجل الأعمال، ذو الشعر المجعد الطويل إلى يسارها عَرَضَ عليها سعراً لشرائه. يملك والده حصانة دبلوماسية، لولاها ما تمكّن من متابعة الكورس بعد حادث السير المجنون. قالها بضحكة هستيرية.

هجوم شرس على خصوصية منال في النقاش. تتمنى لو تتوارى. لا توافقهم الرأي، وهي بسبب التحاقها المتأخر بهذا الكورس، والذي تبين لاحقاً أنه كان نتيجة خطأ في الكمبيوتر، شعرت بأنها لا تشبه الموجودين، ولا تشترك معهم في شيء.

كان في اقتراح المُدرّسة إنقاذ لها بشكلٍ ما. اختارت المدرّسة أن يُنقَل كل ما قيل بخصوص الثيمة كتابةً لتقدِّمَ كلُّ مجموعةٍ رؤيتها فيه. هويات تجمعها غربتها في المكان، خليط من الجنسين، جنسيات مختلفة، أعمار مختلفة، أديان مختلفة.

تدين المدرّسة بِدِينِ التنوع والتعددية. تقترح بغبطة تقديم مانفيستو خاص بهذه الحجرة. أسمته بدهشة اكتشافها «مانفيستو الحجرة» وهي تشير إلى طلابها داخل هذا الصَفّ.

تجهد منال من أجل أن تغذّي ابتسامتها بمسحة من الصدق كلما التقت عيناها بعيني تلك المُدرّسة. كيف ستتقارب افتراضاتهم؟

هَمَسَ البلغاري بأذنها في أول حصة: هذه المدّرسة نسوية جدّاً، بسبب الأصفر الذي ترتديه.

تحاول منال على الدوام أن تتحكم بانفعالات وجهها، وأن تُظهرَ في الوقت نفسه دليلاً على تفاعلها مع الآخرين. قيل إنّ نهايات الأعصاب الحرّة تجتمع في المنطقة حول الفم والرقبة، وبذا ليس من السهل على الإنسان أن يخفي الانفعالات أو الضحكات الصادقة. أمامها عالم متطلّب يحثّها باستمرار على الاكتشاف.

لمـاذا الـ «آنتيناتاليزم»؟ لماذا تدخل غريزة الإنجاب كمادة؟ ما الذي يهمّ في درس اللغة، إن كانت تلك غريزة أساسية، أم ثانوية؟ ضدّها، أم معها؟

الألمانيـة، كان صوتهـا أقل حدّة بكثير، يقترب إلـى صوت رجل، انبرت صائحـة مـن مكانهـا: أن يكـون لـي رحم لا يعنـي وجـوب ملئه كأنه شـيء مفروغ منه.

تحدثت الشـابة الإسـبانية بصوت مؤيد، عـن لقائها بالشـاب الذي صار زوجها بعد أن كشف لها عن عدم رغبته بالإنجاب، وقد أقنعها بالفعل بذلك.

الشابّ الهولندي إلى جانبها يؤكد على حقّ الرجل المساوي لحق المرأة بالقرار.

تسأل المدرّسة التي أمسكت بالطبشور عمن يشاركه الرأي.

نظرت إلى الأوكرانية التي ظلّت صامتة.

بـدت المدرّسـة لمنال كما لـو أنها تتعمّـد محاصرة البعـض. إنها تضمر شيئاً. كأنها تخطّط لمشاريع خفية كبرى.

يسـود الصمت لفترة زمنية لا ينظر خلالها طلاب اللغة إلى أحد أو شـيء أو سـاعة. تسـتدير البقعة الصفراء لتغطي اللوحة. تكتب مصطلح: استلاب. مـاذا بعـد؟ ترتفع الأيـدي الواثقة مـن لغتها. وجوههـم في ظهر المُدرّسـة: أمومـة. تسـتلّ الكلمات مِـن الأفواه المتلجلجـة. تعود لتتابع الاسـتجواب. تـدوّر الطبشـور مرتين مـن حول الكلمات، تسـأل عن مِنَح الحيـاة، الهدف، الضمان الاجتماعي، العدم، البيئة، وترسـم حول الفقر دائرة أخرى. تسـتدير المدرّسة صوبهم لتطلب رقماً تقريبيّاً عن عدد سكان العالم.

تمتلـئ ورقـة منال بالمصطلحـات. تدفن وجههـا أكثر فأكثر فـي الدفتر. يمسِكُ صداع قوي بها، فتتمنى لو تستطيع المغادرة.

تنظر المدرّسة إلى الساعة أخيراً وهي تطلب من طلابها إدراج الأسباب. ستكون تلك مادة امتحان كورس اللغة.

لغة التعبير عن الألم جديدة في كل مرة لمنال، مثل دخولها القاعة كل مرة. ولا يكون الحال أسـهل مرة بعد مرة. عدا غثيانها السحيق من اللون الأصفر،

الـذي تملـك منه المدرّسـة ثياباً بـكل تدرّجاته. كانت هناك درجـة معينة من اللـون الأصفر، السـبب ولا يزال، خلف نفورها من اللـون الأصفر كلّه. هي لا تحـب الورد ولا طلاء الجـدران ولا الأواني أو الثياب باللون الأصفر. مذ وحامها الشـديد قبل بضع سـنوات وتقيؤها خلال تلك الأشـهر؛ مما جعلها تشيح بوجهها بعيداً ما إن تقع عينها عليه. وللمفارقة قرأت بالصدفة أن الكثير منه قد يثير بكاء الأطفال.

تعـود منهكـة مسـاءً إلى غرفتها. تُلقي بنفسـها على السـرير مـا إن تدخل الغرفة. يضربها خرس خانق مضاعف كلما دفعها الموقف لكي تقول شـيئاً. كان أوحـد مـع طريقـة العمـل الجماعي التـي تؤمن به المدّرسـة أيضاً أشـدّ الإيمان. يبرّره عبر قناعته بإمكانية التغلّب على مصاعب التواصل عموماً مع الآخرين، أو العمل مسـتقبلاً معهم - فيما لو تمكنا من الحصول على عمل! المستقبل كلمة جديدة، غامضة ومغرية.

لا تستطيع توضيح شيء من كل ما يلمّ بها. يرى أوحد أنها تسيء استخدام كلمة ألم ومرض.

والجديـد أن الأمـر لم يكن يسـتدعي الكثير ليثور أوحـد، أو لتحتدم هي خلال يومهما.

المسـتقبل شـيء مجهول، لكنه على الأقل يحمل بين طياته ضوءاً. تشير المدرّسة إلى أهم ما ينبغي التسلّح به في هذا المجتمع.

تحاول أن تُظهرَ صلابةً أكبر. ستفزع زميلتها اليابانية لو شعرتْ بتعبها، لو شَـكَتْ لها منال لغة الأطفال التي تستخدمها، وطاولة الدراسة التي يجلسون عندهـا، وتلـك التربويـة التي تفيـض بها روح المدرّسـة. هي لا تـرى أنّ كلَّ ذلـك يجعلهـم يبدون أقزامـاً، وفق منـال. رغم أن تعلّـم الدنماركيـة بدا من المستحيلات لهما.

البلغـاري الـذي يصغرهـا بأعـوام، نصحهـا بالسـهر ليـلاً فـي المدينـة؛ لمخالطـة النـاس. الطريق الأقصر لاجتيـاز مرحلة اللجلجة فـي اللغة- أنتِ شابة وجميلة و...

صارت منال تلتقي بالمجموعة خارج أوقات الكورس، بشكل يومي، وربما لساعات طويلة أحياناً. يمتدّ الحديث، لعبة شائقة اكتشفوها كسببٍ للقاء. يبالغون في ادعائهم المعرفة، في إظهارهم للقناعة، بتبنيهم لمذهب الإنسانية، يسرفون في القهوة، وفي التدخين والنبيذ حين يتأملون معنى حبّ الأطفال، ومعنى الخصوبة والإنجاب، منهمكين في اجتياز الامتحان معاً. وحتى ينزلق المساء ومعه الحديث بالتدريج ويبتعد.

كل هذه الفنون، كل هذه الآداب، كل هذه الأنشطة التي هي من أجلكِ، ولا تفقهين ما هي. كل هذا الرُقيّ الذي لا تفقهون منه شيئاً أيها الغرباء المتطفلون المضيَّعون الجَهَلة. تبقون في الماضي. صوتُها يَقرأ المكتوب فيما يصادفها من إعلانات ولوائح على طريقة البيانات في تلفزيون بغداد الرسمي، تضحك في سرّها، مرضها الخَفي قد حرّرها من علاقة الاستعباد هذه. جعلها تستلذّ أقصى ما يمكن بكل ما يطرحونه من أعراض وتتبنّاها. يسقطُ أمامها وجه المذيع المحمرّ البشرة الذي تنحنح في الثانية الأخيرة ليشير أنفه المتضخّم المتقرّن الجِلْد إلى حجم الحدث. خرجت البيانات العسكرية من بين شفاه المذيعين المُعَلَّمين كالبراغيث. وقد قطعَ البيانُ الملعون المسلسلَ المصري في منتصفِهِ، ولم تتم مواصلة بثّ نصف الحلقة المتبقي من المسلسل حتى بعد انتهاء تلاوة الإعلان عن بدء الحرب. قد نسي مدير الإذاعة والتلفزيون في غمرة الاستدعاءات المشاهدين، هَرْوَلَ بعد أن ضغطَ الزرَّ بطيشٍ على شريط الموسيقى الكلاسيكية المهتوك، مغادراً المبنى على عجل.

4

لا تدري ما سرّ هذا الشارع الساهد. كأنه محجوز للغرباء، لنزلاء الفندق فقط. يزعجها إنذار سيارة كان يصوّت كل ليلة، يستمر لخمس دقائق ثم ينطفئ. يأتي من جهة واجهة الفندق. يحول دون نومها. مصابيح سيارة تلمظ حتى الفجر من دون أن يتقرّب منها أحد. تقف على طولها هناك في الفسحة

الفارهة بين السلالم التي تطلّ على الشارع الرئيس عبر شباك ذي طراز قديم. تتأمل ما يدور في الخارج. زجاج النافذة مغبر معتم وقديم ينقسم إلى مربعات واسعة بفواصل من حديد صدئ. تظل واقفة في مكانها تبحلق عبر الزجاج. لماذا لا يسمع مالك السيارة ذات الطلاء الفضي نداءها المتواصل؟!

لا تنام. تصعد الأصوات إليها من القاع. ما زالت تسمع الشكاوى الهستيرية من نزلاء يتركون مصراع النافذة مفتوحاً تحت الأرض. تفتح هاتفها النقّال وتروح تتصفح المواقع المختلفة بلا تعيين.

أحدهم يضرب الباب بقوة تمنع الباقين من النوم طوال الليل. أصوات رجالية صدئة. تكرار أخبار وطن وثورات تلخّصها شاشات التلفزيون. بلحظةٍ يشتدّ الصياح. صوت قضبان حديدية مهتزة. كانت تتوقع حدوث ذلك. نزل أوحَد مسرعاً ليستوضح الأمر. قُطعَت اليد التي امتدّت إلى تغيير القناة، وقد نادوا على الإسعاف.

وكلما ابتكرت الحكومة قانوناً جديداً للنزلاء كتبوا طلباً وجمعوا تواقيع، تعكس اتفاقاً عبر الطوائف: «لا يريدون لأحد إيقاظهم صباحاً»

5

كان من الممكن أن تكتب منال عن الضرر النفسي الذي ألحقَهُ هذا الكون بهما. هي اعتادت أن تكتب حين يصعب توصيل ما تريد. حين تزداد جدية الأمر وتزدحم بمشاعرها. ستمنع الدهشة أَوْحَد ربما من فتح الرسالة. كان يقول لها إن رسائلها تسبّب له دوخة. يضحكان- الخَدَرُ كافٍ. وقد تتيه الرسائل طويلاً في دهاليز الأمن الوطني للبلد المضياف هذا، قبل أن تحطّ بين يديه. تفكير من هذا القبيل يثير استغرابها، حين تسمعه من قبل آخرين متطرفين باعتقادهم هذا، ولكنهم ببركة ربّ اليقين يقِظون لذلك.

كتبت تَفَجُّرَ الحبّ في البدء. كتبت له على أطراف أصابعها، بعنفٍ وبخفَرٍ، عن تلك الرغبة المتفتحة التي ترغب باحتكار أُوارها لها وحدها. كتبت له

بِحِبْرِ عطشِها. كانا يغنيان أحياناً معاً، ما إن يبدأ حتى تستلم منه المطلع. يشبه الفعل سَحقاً للمعايشات السخيفة المفضّضة بالحجر اللاكريم، إنهما يداً على يد، حول المقبض، يدوران بتلك الطاحونة الحجرية القديمة، يبصقان بفمها خفيةً ما يقطّره العالم عنوةً في فمهما من لقاح. ينامان على وسادة واحدة، يستخدمان شفرات موسى واحدة، ويتبادلان الهدايا في غير موعدها كاعتذارٍ خفي عن أخطاء اقترفاها، عن خبث، عن ودّ، عن انصراف تام لما حواليهما، أو تدعيم لجهاز المناعة لديهما.

لكنها امتنعت عن الكتابة فجأة. صارت تعوي ليل نهار. الفناء معتم جدّاً في المساء، لولا تلك النوافذ التي تبثّ إشارات خافتة للحياة داخل الغرف. ليس هناك من قطّ يقفز من برميل قمامة، ولا شِجار بعيد لسكارى، ولا جرذ من تلك الجرذان ينتهز الظلمة ليسحب له طفلاً، أو يغتال امرأة. لا جدار أزكم أنفه بول الرجال، ولا إطلاقات شبه مكتومة. تجرؤ على القول إن بإمكانها النزول في هذه الساعة لتلقي بالأوراق الممزقة في الحاوية الكبيرة من دون تحسّب. تفلت منها على الدوام هه مخنوقة. كانت تحرس سلّة المهملات في الغرفة نظيفة على الدوام. تودّ على العموم أن تُبقيها خالية من كل رسائل المنظمات المدنية، من تقاريرها الطبية، وكل ما يحمل ختماً ملوّثاً على طوابع تشي باقتحامٍ ما يستفزّ وجودها.

تتنبّه إلى خِصال فيها لا تعرف كيف تعرّفها. خِصال ليست حسنة، ولكنها ليست سيئة كذلك. خِصال متأرجحة مثلها، شأن كثير من الأشياء تخصّها وتنظر إليها مِن على مسافة، من خارجِها، بكثيرٍ من حرج، بقليلٍ من إعجاب. لا شيء ثابت، شأن النهر ذاك الذي حدّثها عنه. ما الذي يجري؟ هل كان الحال أفضل بكثير من الآن؟ لا، لا تظن. ذلك هو ما كانت تشعر به من قبل أيضاً. كما لو كانت كتلةَ كائنٍ مؤجل بكل ما فيه، يسير بصوت مكتوم، ويوفّر ما يرى بعينيه ليبتّ في أموره بعد حين، ليقول كلمته، هي بانتظار أن تحين الفرصة، متى تحين الفرصة، ومن أجل ماذا؟ ليس الآن، هل هناك من مستقر

لشعور ما، لهدف؟ لِمَ لا تريد لشيء أن يكتمل؟ لم لا تريد أن تسمع نهايات القصص ولا أن تضع خاتمة للأفعال!

يضايقها صوت صفارات الإسعاف وهي تقترب. ولابد أن الشارع مليء بكبار السن المرضى والمراهقين اليائسين وعيون الأمن الساهرة على راحة ساكني هذا العالم ودكاكينه التي توفر الخدمة لأربع وعشرين ساعة. قبل يومين كان لوقوع الرجل لاصِق الإعلانات من سُلّمِه المعدني ذي الدَّرَجات الثلاث صوتٌ مدوٍّ. استقرّ دلو الغراء والفرشاة العريضة في بقعةٍ من الغراء الحليبي. فزّت وهي تلهثُ في السرير. أيقظتْ أوحد. لم تعرف حقيقة ما حدثَ قبل نزولها صباح اليوم التالي إلى الشارع لتشاهدَ آثاره. كان يمكن للعمود أن يتهاوى أيضاً؛ لكثرة ما حَمَله من طبقات الملصقات التي تتراكم واحداً فوق الآخر خلال ساعات الليل والنهار. ولكن ما كل هذه الإعلانات التي تتراكم بعضها فوق بعض، يوماً بعد يوم، كما لو أنها إعلانات تفصل ما بين البشر، كأنها تعني فئة، دون فئات أخرى لا تفقه فحواها؟ تمرّ بها منال بخشيةٍ أن تكون تعنيها. «احذروا هؤلاء».

غرفتهما حائلة اللون، خرائط محفورة بحدود متعرجة على الجدار، بمفتاح، أو شوكة أو سكين، وخريطة مطبوعة للعالم مُعلّقة ضمن إطار عتيق تسللت الرطوبة عبر الزجاج فيه إلى حواف الملصق في الداخل. بلدان مجهولة، ربما لا وجود لها، مُتَخيلة تتحول حدودها ليلاً إلى أنهار ضوئية. متاهات مُغرية لا تصل بالعين إلى مدينة أو ميناء. أنهار يسري فيها ما يشبه الجمر مثل سوائل البراكين، إلى اليسار وإلى اليمين!

ينسدل على النافذة ستار من القماش المخملي الخفيف، وقد صار أخفّ كثيراً بفعل الزمن، حتى اللون الذي تعرّفت على أصله في ثنية الجوانب والأذيال كان ترابيّاً، كأن الصبغة قد سقطت عن مادة الصبغ ذاته التي تعود إلى عصور سحيقة. النافذة تطلّ على سلسلة من العمارات المتباينة

في طولها، وتحت في الأسفل هناك ذلك الفناء الخلفي الواسع الفارغ، لا يحوي غير بضع مصطبات وأشجار ضخمة في مساحات صغيرة تُرِكت خالية من التبليط كحديقة. لا يوحي مدخل الفندق بهوية البناية ولا بوظيفتها الحالية. ينحشر بين عمارات قديمة على امتداد الشارع المكتظ. لا يبوح بشيء ولا يمنح الفرصة للداخل بتخيّل انفتاح الفندق على تلك المساحة الخالية الهادئة في الخلف. إنه جزء من هوية المكان وناسه، ادعاء التواضع عينه، التقتير فيما يعكسه الداخل، إيحاء بإنسانية البنايات الظاهرة جميعاً على امتداد الشارع. لا فرق فيما هو ظاهر بينها، وهي حرّة بتخيّل ما تشاء من خلف الواجهات والوجوه والحدود التي تمرّ بها كل يوم!



من عمق المدينة

1

كوبنهاجن مدينة لا يصيبها إعصار ولا زلازل وحتى الفيضان يتوقف عند منسوب معين باقترابه من الكارثة، والوباء له طاعة وسلطة تخدمه. كم تعشق هذه المدينة. تشتركان بالأسرار واللهفة لقدوم شيء. لا أجداد لكوبنهاجن، ولا حمايات! ولو سمعتْ إحدى العمّات أو الخالات الآن ما قالته منال لَبَسْبَسَتْ إحداهن في سرّها متعوذة من فعل الشيطان الذي سيتنبّه إلى هذه النعمة، ويفقرها مِن كل الدلال الذي هي فيه. لا تخشى الناس من حول منال عاقبة ضحكهم في هذه المدينة. الخير في الضحك ذاته. لكن الحياة برمتها تكاد تكون سلسلة عواقب لحدثٍ ما، لا تعرفه منال، والعمّات والخالات غير مُحصَّنات من الأخطار، يُفكّرْن بالابتلاء قبل وقوعِهِ، ومنال كانت ترقص على أغانيهن بينما كن يطبّلن لها.

إنها بانتظار الفرصة لقول ما تريد قوله بالطبع. بإمكانها أن تقول ما لا تعرف من الأشياء. سيقول لها إنها تبالغ بتقدير حجم ما تودّ قوله. بل إنها لا تستطيع تقدير حجمه على الإطلاق، هذا الكلام الذي تظنه يملؤها.

– كم تعشقين الدراما. بانتظار الفرصة على الدوام، لتجرَحي حياتنا.

لم تجبه.

– لا تودّين غير أن يفورَ الدم.

ودت لو تقول له من أجل أن يُسْتَنْفَرَ الجسد بأكمله. ودّت لو قالت له ليتعافى. تصمت وتؤجل الردّ، لحين يكون الوقت أكثر مناسبة.

أليس هذا غريباً؟ ألا تعرف ماذا، ومتى، ولماذا؟ قد يجيب عن كلِّ ذلك ما هو مذكور في البطاقة الزرقاء! البطاقة الأنيقة من البلاستيك القريبة من قلبها خشية ضياعها. المفتاح الذي استُحدِثَ بدلاً من القديم. البطاقة التي يتيح الحصول عليها حياة كريمة تحفظ للنزلاء الغرباء كبرياءهم. وما معنى أن تكون غريباً؟ الأرض ليست مِلْكا لأحد. ما أضداد الغرباء؟ المألوفون الموافقون المكشوفون!

النضج! أوان الشيء، أم التأجيل؟ تسأل وتجيب بِعَتَهٍ، نيابة عن كتلة الكائن فيها. شيء يكاد يصعب تصديقه حقّاً. إنه لوعي صلدٌ ما ولّدَهُ مشوار الحقنات، اختياراً وفَرْضاً. حُقَنُ السلامة والوقاية، حُقَن الرزانة، حُقَن العادية، حُقن الوطنية، الخصوبة. وأما حُقن التعقّل فهي حُقن جاهزة معقّمة متوفرة وبأسعار مدعومة تضمنها دول الرفاهية.

تسقط في وعاءٍ من النيكل فتُحدث رنيناً رفيعاً سحيقاً في أذنها، الإبرة السميكة، الرفيعة، الطويلة، القصيرة، وحتى المغلّفة الحديثة ذات الاستعمال لمرة واحدة. توشكُ أن ترى الأمصال كلها، كَبرت فيها ونمت وصارت شيئاً تخاله معدنيّاً، مُجسّداً مثل كائن بالإمكان فصله عنها. هل بالإمكان الإمساك بيده، أو طلب صداقته؟ هلا أعِنْتَني أنت أيها الكائن الخُرافي في هذه الرحلة!

2

تدخل بهية حاملة شموع عقمها إلى العربة. إنها بهية بلحمها ودمها. ليس هناك في القطار من يعرف بهية. المرأة بجسدها الممتلئ وعظمها الضخم، التي نزلت إلى النهر في أول أحد من شهر شعبان بالمفكرة الهجرية- التي لا تجيدها. وجدت لها ممراً طينيّاً زَلِقاً على الضفة، بعيداً عن الجموع، منزلقاً غرينياً للنزول، يختفي بين سعفات متدليات وأغصان صفصاف طرية حزينة. ممرٌّ طبيعي شقّه الأولاد للسباحة قادَها إلى النهر، بعيداً عن المدرَج الصغير

الذي تجمّع من حوله الباقون محتفلين. ابتعدَ صوت الفرح، صوت الدفوف، الأبواق، ماتورات المراكب التي شَرَعَت تُبحِر في دوائر في الماء، ابتعدت عنها صيحات الأطفال والنساء المرفلات بسلّات الطعام وكَرَبِ النخل. توارت عنْ أنظار المتنزهين، رفعتْ من جانبَيْ ثوبها ودسّتهما تحت حَدّيْ سروالها وخاضت في الماء، غاصت قدماها في طين الجرف الرخص، وبارتفاع منسوب الماء بخوضها تبلّلت أذيال الثوب الذي انتقته بعناية ليليق بتضرّعها. أعمق في كل خطوة، رافعة ذراعيها وهي تتقدّم ممسكةً بالشمعة بيد، وبنعالِها باليد الأخرى. كان جسدها يتوغل أبعد وأبعد مع الشعلة المشتعلة، تمشي على الماء، خفيفة بوزنِ روحٍ لا أكثر، ليس من ورائها أحد ليوقفها، متبتلة إلى الله ورسله. أن يهبها الولَد. لم تتخلَّ عن خالقها يوماً، ولا ساعة، متوسلة ألا يتخلى عنها. ليس كافياً أن يأتي بها للدنيا، تريده أن يسندها، ويعينها في محنتها. الماء يطهّرها، ولن تعارض لو بَلَعها، هناك من ينادي عليها، لا قاع تحت قدميها، كلها ذاهبة إليه، جسدها الرسالة لتثبتَ له عوزها. يتوهّج النداء الحارق طافياً يموج على سطح الماء. قاربت الشمس على الغروب، والنسوة عند الجرف من بعيد، يدفعن بالشموع التي ثبتنها على الكربات. تتغلغل بهية، تحملها الأنهر التي قدمت، جاريةً جرياً متهيباً لتصبّ في الشط، تتسع الضفاف إجلالاً، تُبحِر الشعلات مدفوعة بحرقة الآهات المكتومة، تتباعد عن بعضها، تبتعد تتفرق صاعدة الموج الهادئ، منصرفة كل منها في تيّار، إلى البحر، صوب نور الكون، لتوصيلِ رسالة.

صامَتْ بهية صيام زكريا لسنوات. كانت تضيف يومين لتصوم عن الكلام أيضاً. كانت تعدّ من الفجر صينيتها كل عام، بحلوها وغصنها الأخضر. طحنت ذلك اليوم السكّر بالسمسم وسحقته، وقبل أن تتذوقه ردّدت بسرّها بعض التلاوات، والتهمت ما في الملعقة. عَجَنت الخبز وعقدت له السُّكّر، ومن قبل ليلة طلبت من الجارة القليل من ماء المسجد استعاضة عن ماء البئر. قرأت ذلك عبر إحدى منصات التواصل الاجتماعي. سورة مريم جاهزة قبل أذان المغرب، ولكنها لا تملك إلا أن تتلوها في سرّها المرة تلو المرة. وحتى إبرة الخياطة أحضرَتها. إضافة أخرى حديثة لتدسّها في الشمعة

التي ستوقدها عند الإفطار في الصينية. غرفة المعيشة مُزينة مُبَخَّرة كل عام، ولا شأن لها بتضاحك البنات اللواتي يشاركنها الاحتفال. يومهن محض لقاء مكياج وفرح ووليمة، ويومها كان النذر السنوي، إن تحقّق مرادها!

القطار على سكةٍ لا تتوقف في جميع المحطات التي يعبرها. يمرّ سريعاً. تهتزّان. لقد أوصلها النهر بالخليج بالبحر حتى قذفها على رصيف هذه المحطة. هل قرّت عينها، أكلت وشربت، وقد تكون صامَتْ عن الكلام مع الأنس إلى الأبد؟ ما الذي في حُضنها؟ ذبلت نظرة العين. ليس سوى منال مَنْ يعرفها. كانت تجلس صامتة إلى جانبها في مقدمة القاطرة، تلمّ شَعْرَها المتموج المفروق من المنتصف إلى الوراء في عقدة وقد شحبت صبغتُه. تقرض قطعةً جافة من الخبز السويدي، من دون أن تتعرّف عليها.

3

تحاول أن تُهدّئ الرجل الذي صادَفَته. كلٌّ هَرَبَ إلى جهةٍ فخَلا الشارع. كانت كأنما تسحبه بعناء كبير لثقلِه وهو يسير. غريب، لا تعرفه. بدا رجلاً مُضنًى، يُمسِكُ فردةَ حذائه الروغان اللامع بيده، تائهاً، تحثّه على الإسراع إلى زاوية، بحالة هلع، خائفة لئلا يُقبَض عليهما. غرُبَت الشمس. المكان مريب، ربما ساحة قتال، أو نقطة تجمع لمظاهرة ممنوعة. ربما مدينة ضرَبَها الوباء فَخَلَتْ، إلا من رجال يطاردون مَنْ يحمل الجرثومة. رائحة عتيقة خانقة وقطة جائعة تسرع بالقفز إلى داخل أنبوب مجارٍ أسمنتي. هو، سكران؟ حَدَثَ ما حدث، ولن يعود كل شيء إلى مكانه. لعله حبّ قاهر، ثورة فاشلة، خيانة عظمى، قنبلة يُفْقِدُ انفلاقها الرشد. اضطرت أن تخنقَ صوتَه بيدها. شَعّت مصابيح سيارة اقتربت ببطء ثم تجاوزتهما. يدقّ قلبها بقوة. ترطّبت راحة يدها. تُسرع لتجرّه جانباً إلى عتبة دكان مغلق، ولضخامته وقصرها تتركه يسقط من بين يديها على الدكّة. أفلحت بالانزواء به بعيداً عن الأعين، وجلسَت إلى جانبه. أخذت تُربِّت على ظهره الذي كان حامياً مشتعلاً، أششش، راحت يدها تدور ببطء على ظهره العريض المثني إلى الأمام، تمسّد راحتُها الجذع، دوائر ودوائر، كبيرة، صغيرة. كفُّها تصعد إلى

أعلى الكتف وتنزل على الظهر حتى الحزام وإلى الجانبين الممتلئين. رأسه منحنٍ، رقبته منكسِرة إلى الأرض. تتحسّس فقراته وهي تمرّر أصابعها من خلف القميص الذي تبقّع بعرَق جسدِه والتصق بجلده، يهدأ، الخرزات بارزة رخوة، من الأعلى إلى المنتصف، من المنتصف إلى الأعلى، تنتظم أنفاسُه ويمضي الوقت تاريخاً طويلاً من شعور مشوب بالذهول. يشمل الهدوء كل جسده، صامتان، تدنو منه قليلاً على الدكّة، ثم أكثر، قد أخفى وجهه، تحاذر لئلا يشعر بها وهي تتشمّم قميصَه. تحبّ اكتشاف رائحة الغرباء. تتشمّم مثل كلب رقبته، يديه، كوعيه. جسمُه حامٍ، يداها تتطاولان تلتفّان لترفعا إليها رأسَه المدفون بين يديه، وقد انحنى جذعه تماماً إلى الأرض، تدير وجهَهُ نحوها بصعوبة: مثل تسلّق جبل تحاول أن تمتدّ بكل جذعها لتصلَ إليه، تميلُ بكل جسدِها إليه لتنوشَه، يقابل أخيراً فمها فمه، وحيد مستسلمٌ مثل مقاتل مهزوم اندحرت سريته، تدنو أكثر لتُقبّله وقد قررت أن تصحب هذا المقطوع من شجرة إلى بيتها. بهوس، بهمهمة، بشغفٍ، بحرارةِ شفتين منفرجتين. تنفرجُ شفتاها وترتجفان، مجروفتين بفعل الحبّ.

من دون أن تعي تبتسمُ لصورتها في المرآة. تأخذ رشفةً حارة من كوب القهوة الورقي، وهي تراعي ألا تُفْتَضَح ابتسامة سرحانها الحارّ. تسحب يونا عربة الحِلاقة وتقف من خلفها. تنزع المنشفة عن شعرها المغسول وتروحَ يداها تلعبان في شعْرِها الذي جهز للمقصّ. والموضوع الأسهل للمشاركة، حينما يكون الصيف على الأبواب هو السؤال عن خطط الإجازات.

- هل تزورين بلدكِ في العطل الصيفية؟

سألتْها يونا، الدنماركية من أصل فيتنامي صيني. تحاصِرُ نفسها بالمرآة أمامها، بينما الحلّاقة منشغلة بمقصّها ولا تبدو مهتمة كثيراً بالجواب، أو هي لن تتوقع جواباً غير تقليدي. كان من الممكن أن تكونَ سورية أو فلسطينية فتختصر الجواب ولن يكلّفها ذلك الكثير من العناء، تماماً كما اعتادت من قبل أن تجيب. لا ليس بالإمكان هذا، والناس كانت ستتعاطف حتى قبل انتهائها من جملتها. السؤال بحد ذاته كان يكفي لتحرير الطرفين من ثِقل ما بعده. يكونان قد قاما بواجبهما تجاه بعض، مُعْربين عن توفّر درجة ما من التفاهم والاحترام. لكن بلدك قد «تحرّر» وقد تمّت «دمقرطته» فما المشكلة

إذن، وما الجواب الأسـرع الذي يُنهي هذا النوع من الأسئلة المحيِّرة، ويفتح حوارات لا رغبة لها فيها؟

نعـم، زرته مرة واحدة مذ أن غـادرت. أو، لا، لم أزره مذ أن غادرت. لا، بودي، لكن الظروف لم تكن مناسبة والفرصة لم تحن بعد. لا، لم يبقَ لي في الحقيقة أهلٌ هناك فالجميع قد غادر. دعينا منه، في خبر كان. أو، لا، ما ترينه على الشاشة وتسمعينه في المذياع لا ينقل لك ما عليه الواقع هناك.

- نعم، سافرتُ مراراً.

الكذب المقيت كحلٍّ سريع غير مؤذٍ للطرفين.

- وأنتِ؟

وجهُها الباسم على الدوام يجعل حجم قامتها الناعمة يبدو أكبر، ابتسامة متحركة حيوية سـريعة، فَـمٌ متكلّم من دون انقطاع بتقسـيمات صينية بالنطق ونَبْرٍ بالحـروف. صـارت زبونتهـا من فتـرة؛ لأنهـا فهمت شَـعرها وعلاقته بوجهها، بشيء من المرونة، مقارنة بالصالونات الأخرى. لَماحة أو نباهة غير متوقعة. بشـرتُها أكثر اصفراراً وشـعرها أكثر سـواداً. اقتربا إذن. خبرة المهنة المتوفـرة ذاتهـا، مـع عطفة خفيفـة بدافع المرونـة والارتخاء. يمكن للشـعر الأسـود أن يصيـر أشـقر، بالإضافة إلى أسـرار الخنـادق والبسـاطيل وطرق الفـرار والقتال بسـلاح أبيـض والخيام والمعسـكرات والخيانـات. بإمكان الاثنتيـن القول بصوت عالٍ أو بحروف كبيرة: «أمريكا دمّرتْ بلدي». هي لا تملك بلداً لتعود إليه؛ لذا هي تفتح سيرة طويلة وتنتظر جواباً أعمق منها. جدُّ جدّها الذي انتقل من الصين واستقر وتزوج وأنجب وشارك في حرب فيتنام ظلّ صينيّاً، وشَـمَل ذلك كلَّ مَنْ خلّفهم من بعده في فيتنام. بعد حرب فيتنام اندلعـت حروب أهليـة، وخلاف على الحـدود بين الصين وفيتنـام أدّى إلى رمي حكومة فيتنام لكلّ الصينيين خارجاً، ولثلاثة أجيال رجوعاً.

- لا الصين تعترف بنا، ولا فيتنام.

ليس هناك من دراما في صوتها، مـن دون بكاء، دون حنين، يدخل زبون شابّ.

- هاي ميكيل.

تحية مستفسرة.

- أتيتَ مبكراً؟

- كثيراً؟

- نعم، مبكراً نصف ساعة. أكيد هي إعدادات حفل زواجكَ التي لخبطتك.

يونا تقهقه أكثر من أن تضحك.

- تفضل، ارتخِ، سأعمل لكَ قهوتكَ. تلك إشارة إلى حاجتكَ لهذه نصف الساعة، ستحصل على مساجٍ خاص لفروة رأسك اليوم مجاناً كهدية.

تضحك ولا تلبث ملامحها أن تستعيد جديتها. تستأذنها لدقيقتين. تتوجه إلى مكنة القهوة.

تنظر إلى ميكيل عبر المرآة، كما نادته يونا، انعكست صورته أمامها وهو واقف بقامته الضخمة الطويلة قبل أن يختار ذلك المقعد من خلفها تماماً في الجدار المقابل. تتأمله بغفلةٍ. بدا شاباً في نهاية العشرينيات من عمره. ما لبثت القهوة أن صارت بين يديه، قبل أن يغطس في كرسيه ويفتح جهازه النقّال.

تعودُ يونا إليها.

- لا حنين عندي لوطن. ما الوطن؟ إنه صدفة في الغالب لعينة. لا تقويكِ، بل تضعفك، هي أمكنة تتبدّل فحسب! ألعاب حدود، مثل سكك حديد، وإن شئنا الحق، العالم ملكنا جميعاً!

تضحك بقهقهة ميكانيكية وبصوت عال وتتابع:

- اللغة؟ أنا أتحدّث الصينية باللهجة الكانتونية، ولا أستطيع التواصل مع أغلب الصينيين من زبائني هنا. هل بمقدورك التمييز بين الصيني والفيتنامي؟

- لا، أبداً.

- قضينا سنوات طويلة في معسكرات اللاجئين في هونغ كونغ لحين حصولنا على اللجوء في الدنمارك. اعتدنا الحياة المؤقتة لسنوات. إن فكرتِ هكذا فسيسهل كل شيء. تذكّري أن شعوباً برمتها بعيدة تمام البعد عن هذه العوالم، لا داعيَ لإزعاجها!

قهقهتها ذاتها، تحاول خلالها أن تُشركَ زبونها؛

- الروعة هنا أن لكِ هوية واحدة لا غير، وبتقديري أنها عادلة وكافية، وهي أنكِ أجنبية. أنا أظن الغرباء سعداء، ما رأيك ميكيل؟

- آمل ذلك.

- أعني أنهم على الهامش، غير مسؤولين عن شيء.

- لا أعرف.

- هل تميّز يا ميكيل بين المطبخ الصيني والفيتنامي؟

- قليلاً، نعم.

- هل رأيت! الفارق ليس مهمّاً.

- نعم.

- مع أنه بالمناسبة غَدا مطبخاً إكزوتيكيّاً، وأنا لا أجيد وصفة منه.

تضحك والعجلة في تنقّلها، واليقين ما يميزها بشكل لافت، لا تعيد الشيء إلا في مكانه مهما كان حجم انشغالها. السطوح لامعة وما عليها محسوب بدقة. الهواء منعش والمحل مفتوح مضاء. شعرها مصفّف بالطريقة ذاتها، لا تتبدل. شذا عطرها ينتشر في المكان مسالماً بارداً هادئاً، لا يبقى الشَّعْر المقصوص على الأرض طويلاً، ولا شيء من انفعال ظاهر على محيّاها الضاحك، تنظر إلى زبونها عبر المرآة أمامي، ثم تستدير بكليتها موجهة الحديث إليه.

- الأجيال المدلّلة هنا لا تعرف ما معنى الحروب، أربع عشرة سنة وهم لا يعرفون أنهم في حرب، وكما رأيتِ كيف تراكضَ الأولاد الدنماركيون للالتحاق بالجيش للقتال في أفغانستان. هههه.

يرفع الشاب رأسه من شاشة نقّاله ويبتسم بحياء. تذهب يونا إلى أبعد من ذلك في حديثها وتتجاوز الحدود من دون تردد ظاهر عليها.

- أليس هذا صحيحاً يا ميكيل؟ ظهر في الأفلام، كيف انهار الواحد تلو الآخر، لمجرد مرأى السكاكين، للقنابل الحية، لمرأى الدم، للمخ المتناثر والجثث الحقيقية.

تنظر إليها في المرآة موجهة الحديث إليها بصوت مسرحي خفيض:

- ميكيل جندي سابق حاربَ في أفغانستان، لم يطع الأوامر فأرسلوه إلى بيته.

قهقهتها العالية ثانية.

- هل ترغبين بقدحٍ ثانٍ من القهوة؟

يعمّ جوٌّ من الحرج. المأزق هنا حين يتجاوز الناس المسموح، ولكن حدوده يصعب تحسّسها جدّاً. لا يبدو على ميكيل أنه راغب في الحديث. اكتفى بهزّ رأسه، وما لبث أن نكّسَه بعد ذلك وغطس أكثر في شاشته.

- لا، أشكركِ.

- من ناحية ثانية لا أفهم انضمام الشباب الدنماركيين إلى القتال مع داعش.

تلتفت إليها.

- أنا لا أعرف عن الإسلام شيئاً، ولا أفهم أزمات الشرق الأوسط على فكرة. بعيدة عني تماماً.

- موضوع صعب.

- أليس كذلك؟ ولكن لا يمكن أن يكون الملل دافع الدنماركيين، ولا يمكن أن يكون المال.

لم يدل ميكيل بتعليق. واكتفت هي بالتعليق:

- لا أظن.

- هل هي هواية القتل؟ يبدو لي أن غالبية العالم تشترك في الهواية هذه، القتل. الرجال على الأخص.

لم ينطق ميكيل بحرف. لم يرفع رأسه. استمر غارقاً في مكانه متشاغلاً بهاتفه النقّال.

- ولكننا نحن مَن علّمَ الفيتناميين القتال، والعمل، الصبر، انظري إلى محلّي، ادخرتُ من أجله الفلس، سنة بعد سنة، مجازفة، لا تأسياً على شيءٍ ضاع، ماذا تعمل الآن يا ميكيل؟

تذكرت الرجل الذي في الحلم الذي كانت تنوي سحبه معها إلى شقتها. بعض اللقطات كانت شبه حية أمامها. كان يحمل في جيب قميصه قلم حبر،

رَسَمَ بقعةً كبيرةً على جيب القميص عند الصدر. لابد أنه قادم من زمن بعيد. لم يعد أحد يحمل قلم حبر في جيبه.

يسحب ميكيل ساقيه اللتين تمددتا وانفرجتا، يلمّهما ويعتدل في جلسته من دون أن يرفع رأسه من على شاشة النقّال.

- أبحث عن عمل حاليّاً.

فزّت لِطَبْطَبةِ يونا على كتفها تحضّها على النهوض.

كانت تود الإسراع بالدفع والمغادرة، لكنها تعرف طقوس يونا حين تناولت المرآة لتريها قَصَّة شَعْرِها من الخلف. هي الخطوة الأهم لديها من أجل إتمام عملها على أتمّ وجه.

- أقول لكِ شيئاً، إن كان الشيء العزيز قد أصابه مرض خبيث فلِيَمُتْ.

4

شحبت الحقيبة وتطعّجت. كان هناك الروب الأبيض الذي لا تدري كيف وصل من دون قميص نومه.

هل يعقل أن تتجشّم عناء حمل طقم من الدانتيل معها عبر تلك الرحلة؟ ولكنه من هدايا العرس. الهدية الأشدّ حَفْراً في الذاكرة، ومن ضمن عشوائية الخيارات التي كانت مصدر ضحك ودهشة لها.

لو سألها حتى اليوم أحد، ماذا تتمنين لعيد ميلادك ما عرفت ما تريد.

ظلّت الحقيبة مركونة جانباً رغم مكانها الذي تغيّر أكثر من مرة. لم يكن مظهرها القديم يحمل جمالية قطع الأنتيك، ولم تكن كذلك حديثة تنسجم مع ما حولها: بضاعة صينية رخيصة متربة ومستهلكة، تحرّضها على إفراغ محتوياتها وكبّها بأقرب وقت. حجمها كبير قياساً بنفعها، وهي قد صارت أكثر تحسّساً ضد الأشياء الخالية من الجمال والذوق. أما هو فلم يكن يعترض يوماً على رميها لكل ما ليست لها علاقة ما به، سواء كان قطعة ملابس، أو كوب شاي.

تلك الحقيبة كانت مركونة للضرورة. كانا يقومان بدفعها أعمق كلّ مرة تحت السرير. أقدامهما انزلقت في دهاليز غريبة ما كانت تميل للتمهّل

والوقوف. هل سيسحبها هو من تحت السرير. تتلفّتُ سرّاً، تتلفّت ولا يدرك ممّن حولها أنها كانت تطمئن عليها أيضاً، بين الحين والحين. أربع أيادٍ تعنّف بعضها، تُمسِكُ ببعضها خوفاً من أن تمتدّ سِرّاً إليها لتخطفَها وتهرب.

لا تملك تلك الحقيبة أن تقترح عليهما وجهة، فهي مجرد حقيبة، مركونة جاهزة عند الحاجة. لا تذكر ما في داخلها، لم ينظرا قطعاً إلى الشَّرَكِ المنصوب من قبلهما. هي أيضاً لا تدري ما الضروري كان لأخذِه معها في هذه الحقيبة، لو آن الأوان، ولكنها كانت ستغادر، من دون عودة.

يُنادى على النخلة فتأتي صاغرة عند خرخشة السمّاعة في الخارج وقت صلاة الظهر. هل أدَرْنا وجوهنا للنعمة؟ نحن لا ندير وجهَنا للنعمة. نُقبّلُ وَجْهَيْ كِسرة الخبز التي نجدها في طريقنا، نرفعها لنضعها جانباً، مذ كنا صغاراً، هكذا علّمونا، حتى لا أدري لِمَ غادرنا، وحين كان يعمد إلى الهرب بعينيه إلى جهة أخرى لإلحاحها الغائم، لم يكن هناك من مفرّ غير الإكثار من الأسئلة والافتراضات لدفن إحساس ما بتغيّر ما بينهما.

حدث شيء ما، ولكن ما هو؟

قلْ لي ما الحبّ أقلْ لكَ عن وجوهنا التي تغيرت.

تقول: ستغادر، لا تقول: ستعود. يعرف كل الأصدقاء الغرباء هذا، لا يمكثون في المكان، ولكن العودة ربما تدخل في قصيدة وتبقى هناك. الفكرة لم تكن تطيل المكوث. مجرفة الحياة عملاقة. حرب داخلية. تُحمّلها كل الأطراف مسؤولية عطل هذا العالم. إنها منذ سنين طوال وهي تعمل جهدها لتفي بتسديد ما هو مترتّب عليها من ضرائب لهذا البلد، وتخطّط لحفل وداع بهيج راقص هائل.

ما الذي خطّط هو له؟ الحدث وقَعَ بعد وهمٍ كبير باستقرار كل شيء. محاولات مستمرة لكنها لم تأتِ بنتيجة للفوز ببطنِ الشابة خارقة الجمال التي مرّت بهما للتو. بتكويرةِ الجالسة هناك في زاوية من المقهى التي

طلبت حليباً ساخناً. كتلك التي في الفيلم أمامهما بفستانها اللصيق على شاشة السينما.

5

اكتفَيا بعدد أصدقاء لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، أصدقاء حميمون ليسوا من ضمن أسعد شعوب العالم، كما تؤكد الإحصائيات- ذاتهم يمقتون الخبر الذي يتصدّر صفحات الفيسبوك والإنستغرام والتويتر، بل يسارعون لتغيير جانب الحديث في الغالب، تحت تقاطع الضحكات المتطايرة هنا وهناك على الطاولة. لكنهم لا يعانون من فوبيا السعادة. لا مكان لهذا المعتقد في ثقافتهم. يرفعون الأنخاب لسِحر هذا الكون، وحظوة العيش فيه، يكرِّرونها حتى الفجر الفاصل بين الالتباس والوضوح، وهم متضامنون روحاً وقلباً، تفيض كؤوسهم إنسانية، رغم أنهم قد لا يعرفون معنى للعدالة بالمقدار الذي يعرفه كل من عاشَ حياته مسحوقاً من دونها!

لبعض الأصدقاء من الدنماركيين عذوبة لا توصف، ولكنها من النوع الذي يستدعي الحفر لاستنهاضها. بالمقابل تصاعدت الحساسية من الطرفين حيال موضوعة الرجل الأبيض. وَصَلَ الخوضُ فيها إلى مصافّ التقليعات الأخرى. لم تخل اللقاءات إثر ذلك من حرج وخجل وندم واتهامات متبادلة من دون المجاهرة بها. أقرب الأصدقاء وأكثرهم وفاءً ونبشاً للتاريخ كان لارس؛ المحامي المتقاعد المرح الذي تطوّع للتدريس في أحد الكورسات الملحقة بتعليم اللغة والتأهيل. لم يملك غير أن يقترب وتتوطد بينهم علاقة عائلية قوية ممتدة. بادَر بدعوتهما للعشاء في بيته. للدقة كانت زوجته خلف الدعوة. مَلّت من سماع أخبار منال على لسانه المُعجَب بها، فاقترحت التاريخ والوقت للدعوة. بعثتْ لهما يومين قبل الموعد تفاصيل الوجبة التي ستعدّها مع زوجِها بالمناسبة، على أمل أن تكون موائمة. كان يمكن أن يكون تخوّفاً من لحم الخنزير، أو لئلا يكونا نباتيين. الاحتمالان واردان جدّاً. مع ذلك شعرت بضيق وإحباط كبيرين من السؤال. دخلتْ كلمتا الحلال والحرام بقوة إلى المجتمع وأربكتاه، اعتادهما الدنماركيون. كانتا صادمتين لهما.

لـم يسـمعا بهما من قبل. دفعتـا أوحد ومنال إلى القـيء. وجدا الحلال كلمة تجارية فضفاضة، لا يعرَف مَنْ يمنحُ رُخَصاً بشـأن علامتها ويصدِّق عليها أو يُبَسْمل! وعلى الرغم من قرارهما رفض الإجابة عن ذلك النوع من الأسئلة، يُغضِب كلاهما نفسَه، كضيفٍ، على رسم ابتسامةٍ تقبّل عندما يُسأَلان بشأنها.

اتفـقَ أوحـد ومنـال أيضاً علـى أن زوجـة لارس ربما كانت هـي الوحيدة بشخصيتها المتعاطفة المرتخية الواضحة مَنْ تتهم الدنماركيين بفقدان الذاكرة. لم تسـمع على لسـان منال وأوحد قصة أو عادة قديمة أو معتقداً، إلا وتذكرت مثيـلاً له في حياتها، لأن الماضي القريب جداً، تقول: هو واحد. شـيء فطري أن يتشـابه البشـر بسـلوكياتهم وعاداتهم ومخاوفهـم وإيمانهـم. كانت ترخي عينيها، وكما لو كانت تحدّث نفسـها بصوت ضاحك: البشـر أسرة واحدة لها تاريخها بتنوعاته، كلٌّ له حلّته الخاصة فحسب، تقولها بخالص عفويتها.

مرضـت فجأة. وفي الليلـة التي قربت فيها من لفظ أنفاسـها الأخيرة، لم يتـردّد لارس فـي أن يطلـب من منـال مرافقتـه. كانت غرفة المستشـفى غنية بأشـعة الشـمس بشـكل غير معقـول. غرفة واسـعة جـدّاً يحتل السـرير فيها الطرف القريب من النافذة في الطابق السـادس. الزجاج لامع صافٍ والمنظر مفتـوح أمامهما على أفق لانهاية له. ذلك ما جعل نسـيماً مالحاً يرسـب على الشفاه أثر اللعق.

الممرضـة منهمكـة بهندمـة الزوجـة. قامـت بضـبّ اللحـاف مـن حول جسـدها. صفّـت ذراعيهـا خارجه وقـد قرّبتهما إلى جسـدها مـن الجانبين، ثم أسـرعت بسـحب الكرسـي الثاني لتضعه على الجانب المقابل للسـرير. امتنانها للسـماء بدا جلياً في لمعان عينيها، قالت: المرء لا يتمنى إلا أن يغلق عينيـه علـى ضوء كهذا، وهي تشـير إلى النافـذة: أي وداع رائـع! لمعت عينا لارس بالدمع مبتسـماً لها ومؤيـداً. كانت الطبيعة، الجمـال والضوء وكل ما يسـميه بالشِـعْرية غذاءه ودليل صحته. مسّـدت الممرضة ظهـره لثوانٍ وهي تشاركهما تصويب النظرات إلى الجسد الممدّد أمامهما. أحنَت رأسها لمنال تعزية، وحيّتهما وهي تغادر الغرفة وتغلق الباب من خلفها برقة.

جلست منال عند السرير لساعتين بعد موتها. وظلّ هو حاضناً يد زوجته. كان حزناً عميقاً جليلاً صامتاً. وحين اضطر فجأة للذهاب إلى التواليت، طلب من منال أن تنوب عنه بحضن يدها ريثما يعود.

حاولت أن تبلع دهشتها. لم يمهلها طلبه التفكير. لا مفر منه فنهضت من مكانها لتستدير إلى الجهة المقابلة من السرير.

لحظةُ اقتراب مهيب من الموت للمرة الأولى، جعلها تشك في الرعشة التي سرَتْ في جسدها، منه أم من جسد الميتة؟

- لم تبرد يدها بعد!

قال لها حين عاد واتخذ ذات الوضع كما كان من قبل حاضناً يدها!

ألحّت ليلتها ليعود لارس معها إلى الغرفة. أوقدت شمعتين واشترت باقة ورد صغيرة، ونشرت شرشفاً نظيفاً على الطاولة. حرص لارس على شراء بوميرول، النبيذ الفاخر والمفضّل لدى زوجته.

جلس الثلاثة عند الطاولة. دردشة عامة، اختيارات مقطوعات موسيقية من قبله، إثارة لمواضيع لا يمكن ألا يتطرّق إليها حتى في مناسبة كهذه: أسئلة متتابعة عن الوضع في العراق والأهل والسياسة. غارت عيناه تماماً تلك الليلة وازداد خدّاه احمراراً، لكنه تحدّث بصوت حيادي عن خطَطه للغد. حرّك يديه أكثر من المعتاد ليجمع شتات تفكيره وليتذكر ما يريد قوله أو إدراجه. الاتصال بالكنيسة لتحديد الموعد، والتهيئة لمراسيم الدفن، حجز صالة استقبال لما بعد الدفن وإعداد قائمة لحصر عدد تقريبي للأصدقاء والضيوف المعزّين.

كانت تشعر بألم جارح في بلعومها. تمنّت أن يفلح أوحد في فتح قنينة النبيذ الذي جلب لارس اثنتين منه. فتّاحة النبيذ قديمة، اقتناها من محل للمواد المستعملة وقد لاحظت جهده في فتحها. ارتسمت على وجه لارس ابتسامة. كانت زوجته تنحدر من طبقة عمّالية، بينما تمتعت عائلته الثرية بامتيازات صفوة المجتمع في طريقة حياتهم. تحدّث عن ولع زوجته بالنبيذ. العمّال، ووالدها من بينهم، كانوا قد عُرِفوا بإدمانهم الكحول بسبب الفقر وظروف عملهم السيئة. كان نضال الحركة العمالية في أوجه في أواخر

القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ من أجل تحسين ظروف العمل وظروفهم الحياتية، لذا تأسست حركة الاعتدال النقابية: مع أني أجد ذلك مناقضاً لما بشّرت به الثورة البلشفية، من حيث حرية العمال بالتحكّم بحياتهم الشخصية، يقول لارس بصوت ضاحك ويتابع: ولكن عموماً قيل إن الحركة كان لها دور فاعل في مكافحة الإدمان بين العمّال. ثم يرشف رشفة صغيرة أخرى من الكأس ويعيدها بهدوء إلى مكانها، يجفّف زاويتي فمه، وقد تجلى دفء النبيذ في خدّيه المحمرّتين، وكجزءٍ من مماحكته المعهودة لزوجته وهو الزوج الأرستقراطي والمَرِح يقول بحركتي يديه لتصعيد المشهد الذي بدا لهما لوهلة مسرحياً: إن تأثير تلك الحركة كان عظيماً حقاً، لكنه لسببٍ ما توقّف للأسف عند باب بيتهم!

لا معرفة لمنال وأوحد بحجم تفاصيل الدفن، ولا قدرة على مدّ يد المساعدة. كان لارس بين الحين والحين يرفع الكأس ليرشف منها رشفة صغيرة وينزلها بهدوء. يدوّرها دوائر ودوائر في مكانها أمامه على شرشف الطاولة وهو يتأملها. امتدّ الزمن طويلاً في محاولة متفائلة لاستيعاب لغز الموت، وقبول المصير. لم يمتدّ، بل كان يدور في دوائر تتوالد من دوائر ذلك العمر الذي مرّ بهما معاً. ماذا لو كانت زوجته هي التي تجلس أمامها الآن، وهو الذي كان قد رحل؟ لم تكن ستختزل مشاعرها وتراقبها كما فعل. شيء صلب كحجارة يغلق البلعوم.

ينعم الميت وأهله بوقت كافٍ للوداع قبل الدفن والاستعداد التام لمرافقته بأجمل حُلّة.

خلال ذلك المساء البطيء استأذن أَوْحَد أكثر من مرة؛ من أجل النزول إلى الفناء للتنفس. ومنال أيضاً التي تذكّرت أنها تركت وجبات الغسيل في اللوندري في قبو الفندق.

حين وقفا لتوديع لارس عند الباب، عاد فجأة واستدار ليطلب من منال أن تعينه على اختيار ثوب زوجته من بين أثوابها في خزانة ملابسها.

مرة بعد مرة تحاول التقليل من أهمية ما تتذكّره من مفقودات، وتقليل

مـا تضيفه من صفات عجيبة لكل ما فـات. كانت الأبواق ومكبّرات الصوت مـن حولهمـا كأنهـا صوتٌ كونـي يصيح: هيـا، لا تُبقـوا على شـيء، افتحوا النوافـذ وألقوا بما لديكم، هذا أفضل لكم. تخلّصوا من أحمالكم. الإنسـان مـا إن يفـرغ حتى يمتلـئ. وكلُّ مَنْ غـادَرَ أقامَ له كرنفاله الخـاص في الهواء. تهاوتِ الحقائب، الكتب والصناديق والصُّرَر في الأجواء، وطارَت منها تلك الأشـياء التي تثير الحنين. سـماء مزركشـة تفوح بروائح شـتى، تتبدّد بسرعة فائقة في الأثير.

حاولـي أن تصفي لنـا رحلتكما! كانـت ممتعة. لن يتخيـل أحدهم أنهما التهمـا من الآيس كريم ما يعادل كل ما التهماه طيلة حياتهما. تَضاجعا كثيراً، ولكـن لم تفلت قطعةٌ واحدة من سـخرية المفتشـين، باختـلاف المحطات، على مرّ نقاط التفتيش. منال ضحكت أيضاً لاحقاً، وإن كان متأخراً.

نعم يا منال، نعم، ضحكتِ من أعماقكِ، حين ظننتِ أنكِ حرة، وأنك قد تحرّرتِ من كل تلك الأشياء الحميمة والمُؤذية في الوقت نفسه.

فـي أي عمر تكون فيه المـرأة متخمة وجائعة؟ ركضـتْ نصف ماراثون، حيّة ميتة، عذراء حُبلى تشـعر بالعقم، مشتعلة بالرغبة وفاقدة الشهية، حاذقة، لكنهـا بالكاد، في مسـتهلّ الوعي لحقيقـة أن ولادة كل ما حولها لا يمكن إلا أن يمـرّ عبـر وجودها. في أي عمر تقبل بكل مـا هي عليه؟ متى تكون بحاجة ماسـة إلـى قـرار فردي توفّـر عبره جهـد القرار لاثنين؛ شـقاء طريق مـرّ عليه آلاف من البشر.

6

توصّلُها إلى حقيقة انفصالها عن هذه المدينة إذن يجب أن يلحقه توضيحٌ أهمّ، ربما أكثر من توضيح، كوبنهاجن الحميراء لم تفقد إنسـانيتها، ما كفّت عـن مدّها بالأمان ومن دون حسـاب، تعشـقها في الصميـم، طبيعتها حانية، معطـاءة، أجـل، لها قلب ريفـي مُحبّ، أخضـر في قلب الخريـف، حانٍ، لا يبخل بشـيء. هل تحلميـن بمكان أفضل أيتها المتطفلة؟ مـا قاله لها أحدهم

وقد جلس أقصى الطرف في العربة من القطار الذي لم يشأ أن ينطلق وينقذها من المأزق. هل تعبتِ لكثرة ما شعرتِ بالامتنان، في إظهاره وإضماره؟ كيف يمكن أن يُردّ الدَيْن لهذه المدينة، ومتى تملك الحق في السخط عليها من ثمّ؟

هل انفصلتْ عن المدينة لأنها نضجتْ فجأة؟ قيل إن المرء لا يكبر إلا بموت والديه، فما الذي جعلها هي تكبر؟! انفصلتْ عن هذه المدينة الحانية التي لجأت إليها لأنها، المدينة ذاتها، قد أمعنتْ بقسوتها في أن تريها صور مكانها الأول. قبضتْ بيدها بقوةٍ على حنكها بين الإبهام والأصابع الأربع وأدارت وجهها إلى هناك. أثبتَتْ لها أن الخرابَ الذي حدَثَ ليس فِعْلَ مرايا. إن ما قد وقَعَ بالفعل لا رجعة فيه.

الحَدَث! تكاد تمسك بالحدث. تكاد تقبض عليه. تكاد تحدّد ذلك الورم، تحاصره لاستئصاله. حصاراً يضرب روحها ولا تدري بِمَنْ تلوذ. الشيء الذي هو على قدر من الحساسية والخصوصية. مثل أول كَسْرٍ لعهد وفاء، مثل أول بَلْع لإهانة، مثل أول خَدْش للزَّهْو. كيف تشرح شعورها بانفصالها هذا، عن كل شيء؟ إنه شعور ثلجي بمقاومته لكل ما يحدث أمامها. يأبى أن يهتزّ ويتأثر على السطح. إنها تخون حياتها في الداخل، كلها، بكل تفاصيلها بالأرض التي تحت قدميها والسماء من فوقها. جانب فيها يتشظى، يقرّ ويحنّ ويضيع ويخاف ويتصلّب، يرى الحدث بوضوح أكبر قليلاً.

بانقضاء الشتاء تتخلّص الناس من ملابسها الإسكندنافية الثقيلة، بينما هي متلكئة حتى في هذا. مرّ زمن منذ آخر رشّة ملحٍ على العتبة، ولكنها متمسكة بمعطفها الثقيل. نصحها الطبيب بأخذ جرعة إضافية من فيتامين دي. تتكرّر مرّات طلوع الشمس، وفي هذا فرح واحتفاء هادئ يعلو الوجوه ويقتحمها. العلاقة عكسية هنا بين وزن المعطف وسعره. اشترى أوحد في أول شتاء لهما هنا معطفاً مستعملاً بمقاس كبير. ضحكا كثيراً. بَدا مثل أكاكي أكاكيفيتش، كما قال لها. شبح صاحب المعطف لن يفارقكِ يا منال، كان يمزح معها مقلّداً أكاكي بنغمة صوتٍ كسير.

صار لديها بالمقابل وقت تفرّغٍ لفرز وإسكات الأصوات، الواحد يلي الآخر. يكفي. المطر بهجة. مرّ زمن طويل جدّا، ينزل أسود، غاسلاً هباب الفَحم العالق مِنْ على الجدران والستائر والأهداب. شيئاً فشيئاً تتدبّر شؤونها. تقلّ دهشة لقائها بما هو جديد أو غريب. قوةٌ ما ليست على يقين تماماً من تعريفها تدير لها أمورها.

بالإمكان الآن تأجيل الكثير من الأشياء. يبعد المتنزه مسافة معقولة كما أخبرها المسؤول. بإمكانها ممارسة رياضة المشي فيه، أو الركض إن رغبت، ذلك كلّه مجّاناً. يكبر حيز الروح. يبتعد المادي ويتضاءل حجمه. ملابسها بطبيعتها عملية مريحة وحذاؤها رياضي أيضاً، مهما كان مشوارها. ما عليها إلا أن تأخذ حماماً بعد عودتها وتقوم بشطف كل ما ترتديه ليكون جاهزاً في اليوم التالي. ليس لديها سوى طقمين للمراوحة بينهما. طقمان لهما خاصية الاستدامة. تعشق الكلمة، رغم أنها تستخدم في تدفئة الراديتور للتجفيف عند الضرورة، خلاف التعليمات التي تمنع ذلك. الاستدامة، لها رائحة معتقة وحديثة في الوقت نفسه، ودلالة تجدها في غاية الرومانسية، أن تديم الحب والمحبة والدلال، أي تتأنى بها وتطلب دوامها، إلى أمد طويل جدّاً، بمعنى أن تبقى هي كما هي من ضمن نظام يحافظ على البشر ويصونهم.

7

ما الذي حدث إذن؟ ترفض الإجابة عن الأسئلة. إنها مريضة فحسب، ومرضها ليس عِنْداً. ما الذي حدث، فهما لم يكونا ليتفقا على شيء أو يخطّطا لشيء؟ لم يكن وعيهما موجّهاً إلى كيفية عيش الحياة، أو وضع ميزانية الشهر، أو مَنْ يقوم بماذا، أو اختيار المكان الذي سينتهيان فيه عند الممات. لم يكن هناك من حديث عن هجرة وعن مستقرّ. وحده انطلاقهما مَنْ تكفّل بكل شيء. تخشى الآن أن تقول وحده القلب مَنْ تكفّل بكل شيء وأبقى كل شيء بنهايات مفتوحة.

لا ترضى بقبولهما كظلال من كل حياتهما. حياتهما ما قبل وما بعد. لما قبل وبعد هذا القرار! ولماذا يا منال، سيقولها بِكَمَد؟ أشدّ ما يعذبه في

منال هو يقينهما المشترك الذي لم يبق على حاله لديها. هل كان جزءاً من انفصالها إذن؟ لن يكتفي بعرضها لأسباب خارجة عنهما، خارج قشرتهما، لن يرضى بما أسمتْه واقعاً. كم يكره أن تقاطعه على الدوام، وكم يكره ما تظنه صحيحاً، وكم يكره العالم الذي تعرفه حق المعرفة. ينفعل، يشير بيده إلى الخارج، وهي تتبع حركة يده فيبدو لها الخارج عدوه وليس عدوها. لم يكن يخاطبها حينها إلا وهو يهدر، يوجّه نظره صوب قلبها، بينما يضرب على صدره جهة القلب بقوة مخيفة.

نضبَ اللعاب الذي كانا يلعقانه معاً، كفّت عن توسلها أن يظلّ في داخلها لفترة أطول لتنصت إلى ارتدادات النشوة في جسديهما. حلّت رغبة فورية بالابتعاد حال انتهائهما من ممارسة الحبّ.

مرّ الوقت في الركض في المتنزه. دارت حول شجرة ضخمة كانت في المنتصف، لُصِق على جذعها إعلان لكورس مسائي لتعليم فن السيراميك. ارتاحت للطين. ضاعف من صمتها، وليس مثله من يسحب اللسان ليصير جوانيّاً! لكنه أشعرها براحة عميقة بالتدريج. ورغم ما كان يخرج من بين يديها من مخلوقات غريبة عجيبة مشوهة لكنها حدّثت مسؤولَ التوظيف في مكتب العمل عنها. وبينما كان ينتظر منها ملء الاستمارة قال لها بما يشبه الاستدراك، لئلا تغفل عما يتوجّب عليها لقاء ما تحصل عليه من معونة: الفن هو حقّاً الطريقة الوحيدة التي تنتزعنا من فرديتنا، ما يجبرنا على أن نلتقي في مكان ما مشترك. ولكنه هو نفسه قد ألقى بشهادته في سلّة المهملات. هناك مواهب لدى الإنسان لا يتعدى الغرض منها غير إشباع حاجة ما. نكتشف أنها لا تكفي من أجل أن تعيننا على تدبّر حياتنا. نستسلم، نعم، ولكن ما زال هناك الكثير الذي يمكننا الاستمتاع به في حياتنا، هناك مجال لذواتنا. الأقسام في المكتب لا يفصلها إلا قواطع زجاجية واطئة. تسرقها حركات الموظفات والموظفين، وكأنّ الصوت منقطع في فضاء مكان العمل هذا. يقترب المشرف بعض الشيء ويخفض من صوته: لا ضير، لنفعلها كي ننتهي من تحكّمهم بنا. تشعر

لأول وهلة بتفهّمه لها، ثم بتعاطفه معها، ولكن الشعور لا يستمر طويلاً فتفكر أنـه كان يجاملهـا، كونهـا امـرأة غريبة، لا غربيـة، ثم فكرت لاحقـاً في أنه ولا شـك يسخر منها. ولكنها حين قطعت مسـافة في الطريق مَثُلَت صورته أمامها بوجهه الخجول، وملابسـه النظيفة المتغضنة، عينيه مـن خلف نظارته، لتتأكد بالتالـي من تهرّبه من عينيها المتشـكّكتَيْن. كانت كلماتـه بالأحرى قد حدّدت لها المجال الذي يمكنها التفكير فيه. السـقف المقرّر سـلفاً لها. تلخّص هيئته المصطلح «استسـلام»، كلُّ هيئتـه تنادي به. وأصواتهم، أمـه، مديره، محصّل الضرائب، لابد أنها كلها مجتمعة تركض من خلفه، في رأسه.

حيـن تُبلّل الطين، فإن الأفكار عوضاً عن أن تصعد في رأسـها وتتشـابك دفعـة واحـدة، تأخـذ بالدوران ببـطء على وقع إيقـاع العتلة. كأن شـيئاً يدور بيـن يديهـا ويتخلّـق، حلقـات تصعد وتصعـد، واحـدة فوق الأخـرى حتى يتشكّل. رائحة رطوبة العجين الذي دافته تفوح. ترتخي ركبتها وتبطئ قدمها أكثر وأكثر.

من بين الأشكال الغريبة يتقدّم وجه كائن، طفل صغير نحيف غريب جفّ تمامـاً. هيّا، فرصتكِ، حاولي أن تقولي له شـيئاً، تقول لنفسـها، تحاول، هيّا، تُمسِـك بـه وتقلّبه. ألم في بطنها، لكـن عناداً يركبها، فتبقـى صامتة وتوثر أن تضعه في الدور مع أشباهه بانتظار الحرق!

هل سـتبحثين له عن علَم عراقي صغير لعيد ميلاده، كجزء من زينة أعياد الميلاد الدنماركية، يقارع بهاً جزءه الثاني الضائع؟ هل سـتفعلين ما يفعلون، فتقصديـن صائغاً عراقيّـاً في أحد محال النورابرو لتشـتري له ميدالية خارطة عراقية من ذهب، يلبسـها في قلادته، كلما اشـتدّت حـرب العصابات هناك، والصحف هنا؟

بعثَ المشـرف مسؤول التوظيف إليها لاحقاً بإعلاني الوظيفتين. كانت هناك موسـيقى خافتة في الخلفية لا تدري من أين تصدر. سـحَبَتْها بالتدريج إلى المهادنة.

تبـادلا اللائقة، هي وهـذا المشـرف، تتقدّمهما في لحظة الاسـتقبال. لم يكن يعينها غير نصيحة أسـدَتْها لها مدرّسة اللغة بطريقة عابرة. ينسى البعض أن هذا الإنسـان الكامل أمامهم يشـبههم. أحياناً لا ينظر الموظف إلى عميله إلّا كرقـم. كيـف؟ هـل يرانـي، أم لا يرانـي؟ هـل يقصدنـي بما يقـول، أم لا يقصدني؟ هل هي طبيعته، أم القانون؟ هو كان قد شرح لها القليل عن فرص العمـل في المجال التطوعي. هي تحـبّ العمل التطوعي، فيما لو لَمْ تحصل علـى وظيفة. لكـن عليها أن تتذكّر أن العمل التطوعي لن يعفيها مِن أن تكون رهنَ طلب سـوق العمل، فيما لو تحصّلت على وظيفة ما، قال لها ذلك قريباً من التمتمة.

في تلك الليلة، ومثل طفلةٍ، عاشت أحد كوابيسها المخيفة لكثرة ما عاشته خلال نهارها: «كان المستشـفى العسكري الميداني الذي أخذوا وليدها إليه يقع في مكان ناءٍ جدّاً، في عمق غابة. كانوا قد سلّموها زي الراهبة وقد ارتدته فـي الحال من دون نقاش. شـرحوا لهـا ما ينبغي فعله، وأشـاروا إلى المكان الذي عليها أن تقصده. أحد الطفلين اللذين تراقبهما في أثناء خفارتها الليلية الأولى ذو سنتين من العمر، تضخمّت كليتاه جدّاً، بطنه آخذ بالتضخّم بشكل مرعـب وكان يصـرخ، يكبر وينتفـخ بمعـدل كل دقيقتين. تخشـى أن تنفجر مثل بالون، تتفلّت الأنابيب من جسـده الضئيل بسـبب كبر حجم بطنه. وهي تضغـط وتضغـط على جهاز إنذار قرب السـرير، لكنه لا يعمـل. لا تدري لم كان الزي ثقيلاً للغاية ويعيق حركتها من كرسيها، كأن أحدهم قد حذّرها من مغبة الحركة. كان المستشفى فارغاً تماماً ولم يأتِ لنجدتها أحد».

وظائف شاغرة

إعلان 1

إعلان وظيفة - مستشفى ميلاروب

مطلوب خفير ليلي لمراقبة طفلين عربيين مصابين بفشل كلوي.

مراقبة طفلين اثنين بعمر ثلاث سنوات وسنتين ليلاً. الخفارات بين الساعة 22 - 08 كل أيام الأسبوع. مطلوب خفير ليلي يقوم بمراقبة الطفلين اللذين يخضعان للغسيل الكلوي.

علاج مرض كلوي وراثي. يتسبب جهاز الديال للغسيل الكلوي غالباً في تدهور حالة الأولاد الصحية، مثل الاستيقاظ للتقيؤ. المساعدة تتلخص في:

لدى أحد الطفلين كليتان بحجمين كبيرين جدّاً (تملآن تقريباً كل بطنه)؛ الأمر الذي يؤثر على جهاز الإنذار، وهذا بدوره يؤثر في كثير من الأوقات على جهاز الديال للغسيل الكلوي إن كان الطفل ينام بوضع خاطئ في السرير. المطلوب هو المساعدة في مراقبة وتعديل وضع الطفل.

شروط المتقدم للعمل؛

يفضّل امرأة، ملتزمة، تظهر مرونة بخصوص أوقات العمل والخفارات.

اللغة؛ يفضّل العربية.

وأن يكون بإمكان المتقدم للوظيفة السهر ليلاً والبقاء يقظاً.

إعلان 2

عمل تطوعي.

مطلوب متطوعون للعمل في مأوى رعاية المحتضرين (الهوسبيس).

الشروط قلبٌ طيب دافئ، ونظرة إنسانية، واحترام للمرضى.

اتحاد الهوسبيس في الدنمارك.

الحاجة ماسة للعمل كمتطوعين في الهوسبيس، من أجل منح المحتضرين موتاً كريماً مطمئناً.

الواجبات؛

بين العمل الإداري والتنسيق إلى ضروريات الروتين اليومي في تقديم وجبات الطعام ومؤانسة المرضى، القيام بدور المضيّف في الهوسبيس للمريض وأهله وأصدقائه وفي أثناء وقت الزيارات، والخروج مع المرضى في نزهات في الهواء الطلق. الالتزام بساعات العمل الممنوحة ولا تقل عن أربع ساعات في المرة الواحدة.

فترة الإعداد؛ توفير كورسات قصيرة ومحاضرات.

العمل بدون أجر.

ميم

1

شعرتْ بعطشٍ شديد بعد العملية، رغم الاخضرار الوحشي الذي يُميِّز نيسان هذا البلد. دار لسانها ليبلل شفتيها المتيبستين. لم تحتمل فترة انتظار الطبيب للحصول على إذن بالخروج. كانت تريد العودة إلى الغرفة. سيارة التاكسي تسير بهما وهي تحفّ بحدود غابة أشجار الزان. لم تكن تلك الغابات بمثل استقبالها هذا أول وصولها. أنْفُها لم يتعرّف عليها بعد. كان الهواء والتراب والماء، مختلفة طعماً ورائحة. اشترَطَ ذلك أن تُنصتَ طويلاً، كما اقتضى القليل من الحكمة والهدوء والادعاء. زعمت أنها تعرف كل شيء، من دون أن يمسّ جسدها ما استجدّ. تمرّ سيارة التاكسي التي تشبه سفينة بسعتها، وبثقل سيرها في غابات ظليلة أليفة، أوراق يانعة انفجرت براعمها للتو، مُرتعشة تسمح للشمس، فقط لفتوتها، أن تقتحم أرض الغابة قدر ما تحبّ. النداء البليل الآن إذا ما مرّت قريباً من حدود غابة. مثل ثقبٍ أسود رحيم، مثل رحمٍ يَعِدُ دوماً بالدفء. مثل نهايةِ رحلةٍ متعبة.

– هل أنتِ متأكدة؟

جاء السؤال من قبل فريق التخدير قبل حقنها.

– نعم.

حين فاقت من تأثير المخدّر قالت له؛

- أريد أن أكون شيئاً مُقفراً، مهجوراً وناقصاً.

لاصَقَ كرسيه السرير. كانا بانتظار مرور الطبيب من أجل تصريح الخروج. حضَنَ يدها، وراح يُقبّلها بين دقيقة وأخرى. الكانيولا ما زالت على ظاهر يدها. يُدني إليها الطاولة ذات الذراع ليضع لها شراب فواكه أحمر مخفّفاً بالماء. بحلَقتْ في عينيه اللتين انقلب بياضهما، كأنهما انقضّتا على هذا الشراب الأحمر. لم تجد في نظرته ما ينقذها، بينما لاحَ التأثّر في تفاصيل وجهه المجهد.

- عليكِ أن تشربي شيئاً لتتغلبي على الغثيان.

- صدقني، طفلنا عاش معنا ضمنياً مشاق الرحلة، كان سيكرهنا.

حضر الطبيب أخيراً. قرأ الملاحظات المعلّقة عند طرف السرير على عجل. وجّه الأسئلة، وأكّد أن واجبه يقتضي التنبيه إلى أن الإجهاض عملية تُنهك الجسم.

ذلك الصباح، قبل التوجه إلى الموعد في المستشفى، أغلقت عليها باب الحمام. حضنت بطنها بكلتا يديها، جثت على الأرض وبكتْ بحرقةٍ، بكتْ خفيةً، بحرقةٍ حد الصهيل.

أبعَدَ بقدمه كرسي العجلات وحَمَلَها بنفسه، بين يديه طيلة الطريق إلى باب المستشفى.

يصل صوت الماء إلى أذنها وهي نائمة، رأسها على وسادةٍ اشترتها بمصروفها اليومي، أعادت إليها رائحةَ جسدها. شيئاً فشيئاً أخذت وسادتها شكل نومتها. تُنصت، يصعد الماء من حافة المربع المقطوع من أرض الحمّام، يفيض، تمتلئ الأرضية. تُسمع ضربات من غرفة الطابق تحتهما. زحف الماء وغرقت غرفة الفندق بأكملها. ضربات احتجاج تتسارع وتتضخّم، حفيف الممرضات البشوشات. تصحو فجأة، لكن رأسها يرتدّ

ثقيلاً إلى الخلف فتعود لتنام. الأصوات تقترب وتبتعد. يعود نشيش دفع العربات الطبية في الممرّات ثم يذوب ويذوب حتى يختفي.

غادرتِ المستشفى. دوار. تنقلب إلى الجانب الآخر على السرير. تمتد يدها إلى بطنها، لتتأكد من أن العالم عاد إلى ما كان عليه.

نامت ليوم بأكمله. تفزّ من إغفاءة واهنة. كانت يده تمسّد ذراعها. تحرّكَ ليعينها على أخذ حمّام. قشعريرة وبرودة. سرعان ما يتوقف صوتٌ مثل أزيز في رأسها، وليتآلف جسدُها مع الماء الذي كان يصبّ بدغدغة ساخنة من الدش. وقفَ إلى جانبها. حارّ. يقول لأول وهلة فقط، سيدفأ. ذلك من شأنه أن يريحَ جسدَها المتصلّب البارد. كلما تناهى صوته إلى مسامعها تملّكتها رغبة عارمة بالاعتذار. أسفها غائر. لا يمكن سحبه. لا شيء على السطح. الشاشات عالقة بذهنها. فقاعات وردية تسيح على الداخل من صفحة فخذها! لا بأس، لا مشكلة، لا تفكري بذلك. ينضو قميصه ويقترب بقسمه الأعلى العاري نحوها. تقفُ مرتجفةً مقشعرّة بطولها أمامه. صدره عريض يغطيها. لوحا الكتفين، تحت الإبط، يحمّمها، تحت الثديين، أسفل الرقبة، تحت شَعْرِها أعلى الظهر. يباعد بحذر ما بين ساقيها، يُمسِك بالدش باليمنى ليزيل الصابون عن باطن فخذيها. يُغلق الصنبور. تتعلّق برقبته، تتشبّث به، بكليتها ليرفعها، يُسراهُ تُسنِدُها. المنشفة مقذوفة على كتفه اليمنى. يخشى لو تركها لحالها أن تسقط. مِنَ الحزن.

صديقتُها الأوكرانية في مدرسة اللغة طمأنَتْها- هل سمعتِ عن أحدٍ ماتَ من الحزن؟

يرتعد جسدها لصوتِ الشفطِ للبالوعة. لحم أطفال يغور في المجاري. يجفّف جسدَها بأناة. تماسّا. يلسعها موضع إبرة الكانيولا على سطح يدها.

ظلّت كائناً شبه معطّل لفترة، تتحرك كممثلة بدور أمّ جديدةٍ مُرضِع في غرفة صغيرة. عيون سَهَرٍ منتفخة، تأكل ولا تأكل، ولا يستقر الثوب على جسدها كما اعتاد، تحنّ ولا تحنّ أمام المرآة. تذكرت كيف حضنت الرائحة في المرة الأولى وتشمّمتها. لم يكذّبها حينها أحد. فقط بالنظرة.

أخبرتها صديقتها بأن بعض وكالات تأجير الأرحام في أوكرانيا تقوم بحقن الأم الحاضنة في عياداتها، بجرعة مضاعفة من المخدّر حين يحين موعد الولادة. لا مخاض، ولا يُسمَحُ للأم الوسيطة بأن ترى الوليد بعد الولادة لكي لا تتحرك الغريزة لديها. لا تثبت منال في اللحظة. تبكي في الداخل، وأحياناً لا يمكن للغضب أن يُبقي الأمر هكذا خفياً على أحد.

يدير موسيقى في الهاتف النقّال. تهزّ رأسها نفياً. هل يبكي سِرّاً؟ ينظر إليها مُستفهماً. لا تجيبه. ثم تقول له شيئاً عن الحلم، يثبّتُ الفوطة الطبية في سروالها، ينحني ليعينها على ارتدائه، تهبّ رائحة عطره ممزوجة برائحة عَرَقِ مسامات جسده، انحناؤهما باللحظة معا فجّرَ شيئاً، تماسّهما الرقيق كَسَرَ ظهرها بغفلةٍ منها. غدد لعابها متأثرة ببعض الشيء. فمها ناشف. يرفع المنشفة عن رأسها. يسرّحُ شعرَها بالفرشاة على مهل. تتحسّس بطرف إصبعها خدّه. يبعد وجهه إلى الخلف قليلاً. صوتُها يضيع مع صوت المجفّف الذي قام بتشغيله لحظتها ليجفّف شعرها.

– كان الجوُّ خانقاً جدّاً في المستشفى، رغم رقّة تعامل كلّ من كانوا بقربي. رغم نظافة وأناقة كلِّ شيء، رغم الأبواب المفتوحة، كدتُ أهرب.

يربّتُ على يدها المستريحة في يده.

– واللغة أيضاً، لم تكن كافية.

صامت.

– إلّا منظر الدمّ. لا أعرف ما الذي يجعلني أدوخ حينها. مشهد الدمّ يسبب حتى اليوم إغمائي.

يبتسم قليلاً.

– هل تذكرْ؟ كيفَ استللتَ بيدكَ خيوط جرحي المتيبسة بالملقط، تحت القصف بعد الولادة؟

– كنتُ أكثر جرأة.

– كان كل شيء مرعباً. كابوساً. وأنتَ كنتَ كل ما لدي.

– لا أحبّ الحديث عن ذلك.

- ولكن ماذا لو أنه لم يسقط كلّه بعد؟

- سأشتري حليباً بعودتي. هل هناك ما نحتاجه غير هذا؟

- هل رأيتَ الملابس التي ألبسوني إياها في المستشفى؟

صارت تنام كثيراً وتُكثِر من الحلم لكثرة غيابه.

يقول إنه لن يتأخر، وينهض ليغادر فتمسك به.

- يدُكَ.

- ما بها؟

- أخجل أن أنظر لها وهي تتحرك، تذكّرني بفعل الحبّ.

- بقايا الحلم؟

- لم يكن لديَّ مفتاح لأجلب أغراضي. وكنتَ قد أشرتَ إلى منفَذٍ خلفي، يؤدي إلى بيتكَ، يمكنني من خلاله أن أعبر. المطر كان يهمي في الخارج في أثناء صعودي سُلّما. كنتُ دوماً في الأحلام أراه، ذلك السلّم.

- طريق يوحي بالأمل ربما!

- ولكني لا أصله، على أمل أن أصله.

- وأنا؟ أين أنا من كل هذا؟

- أنتَ بقيتَ نائماً في سريركَ حين غادرتكَ. أنا نمتُ مع مجموعة هجينة، غرباء، سائحين، جماعة كريشنا، كانت آلات رقصهم لصق صدورهم. كان ذلك تحت سقيفة تقينا من البلل، رجال ونساء، وكنا نتفرّج على رجال غليظين على مبعدة منا، كانوا يحكّون شعر عانتهم ويشعلون النار فيها، يحرقونها بطريقة عجيبة. لم يكن هناك جنس البتة. والمطر لم ينقطع للحظة.

- لن أضحك، ربما عواصف ولكن مطر!

- نعم، مطر.

- لم ينزل على تلك المدينة منذ سنوات، عليّ أن أذهب الآن.

- أين؟ ألا تبقى؟ لم أعد أراك.

- نامي الآن.

قبضت على يده بقوة خشية أن يفلتها.

- انتظرْ، ربما هي طفيليات القلق، ما أسْقَطْتُه، ضعْ يدَكَ هنا، هاتها، أجل هنا، نابتةً في جدران معدتي، قد فَرّخت مستعمرات في بطني وظنّنتها جنيناً!

2

لم يكن ذلك اليوم بعيداً بتفاصيله عن ذهنها، حين كانا سعيدين. حين قَصَدا الاحتفالية السنوية التي صادف لحسن الحظ أن تكون خالية من المطر. كان مساء سانكت هانس، وقد اقترب الغروب. السماء سماوية، غزلان تركض كالغيوم التي بدت كالقطن الناصع البياض وهي تأخذ أشكالاً مرحة في رسمة أطفال. كلمة الله في السرّ: لا أحد بإمكانه أن ينكر هذا الجمال، وفضل هذا البلد وضيافته! قال.

- لنسرع.

الموقد الكبير جاهز قرب البحيرة والأماكن العشبية كلها قد حُجِزت. قالت

- انظرْ، قد حُجِزَت بأكملها.

لم يكن لهما خيار آخر غير أن ينزويا هناك، في الركن على حافة السياج الأسمنتي الواطئ.

- يا له من منظر!

- تتداخل تيارات دافئة وباردة من الهواء. سارا بين الشمس وظلالها، كان كعادته، يجذبها برفق جانباً ليسمح بمرور زوجين وطفلتهما مع درّاجاتهم. إحدى عاداته بتوجيه مساراتها التائهة، وتغييرها المفاجئ.

- خلّاب!

- ما هو؟

- كل شيء! الهواء، العنب البري الأسود، الأمان، الألوان المائية لكل شيء من حولي... حتى إنه يذكّرني باستخدامات كمثل... تكسّرت الآمال... يضحكان.

- ألا يخطر ببالكَ شيء، استخدام آخر؟

تدرك بينما كانت تسأله أنّ الأجوبة ستكون من دون معنى.

- هل حقّاً لا مكان للحالمين في هذا العالم؟ لماذا؟ والضعفاء؟ المسكونون بالدهشة، أين يذهبون بحياتهم إذن؟
ثم تتوقف قليلاً لتسأله دفعة واحدة:
- هل قرأتَ الموضوع الذي أرسلتُه لكَ؟
- لا.
- موضوع مهم.
- لم ينفتح الرابط. بخصوص ماذا؟ ولِمَ هذه النظرة؟
- لا شيء.
- شكراً لسوء فهمِكِ.

لن ينفع أن تحدّثه بلسانها عن قرب انقراض العالم. ولا ينفع على أي حال الحديث طالما أنه لم يذكر لها عطل الرابط للموضوع. كان الأمر برمته محض مناسبة أخرى تستنجد بها لتحدّثه عن الأمر... عنادُكِ. كيف له أن يعلم بما يدور في بالها؟

- لو توقّف العالم عن الإنجاب أو حتى نسبة قليلة من سكانه، فستكون هناك فرصة لإنقاذه.
- ما هذا النحس؟
- هناك الربط بين الاحتفال بيوم القديس يوحنا، ونهاية شهر صفر لدينا. هم يحرقون العيدان اليابسة ونحن نحرق السعف في بلداننا طرداً للأرواح الشريرة.
- سيجارة؟

بدأ احمرار الشمس يتحول جزئيّاً إلى توهّج قانٍ. اللوحات المرسومة على الحشيش بقياسات غير طبيعية. نزهات في الأثير. تدبّ حشرة على كمّ قميصه تُسقِطها بظفر سبابتها.

- عجيب كيف تبتدع الناس تلك العادات بسبب شرور كل العصور المسخّمة التي مررنا بها. هل تذكرها، تقاليد كَسْر الجرار عند العتبات بطلوع صفر؟

- لا.

- لا تبدو معي.

- لا، ولكني لم أحبّ يوماً كل ما تذكرينه الآن.

- المزيد من النبيذ؟ هنا يشربون ماء النبع الصافي أيضاً بجرّة فخارية يجب كسرها للتخلص من المرض والشرور.

كان صامتاً. لحظت صعود صدره وانخفاضه بزاوية عينها. تنفسّه هادئ، تماماً كما كان الآخرون يتصورونه.

- إعطني قدحَكَ.

- لا أحبّ الشرب في هذه الأقداح البلاستيكية.

- ستُمنَع قريباً. تماماً، البيئة.

- لا فائدة.

- لا أظن.

الساحرة تتربع أعلى جبل الحطب جاهزة للحرق.

- لِمَ تنظر إلى ساعة النقّال بين الحين والحين؟

- متى يبدأ البرنامج؟

- مازال هناك متسع من الوقت.

يدنو الأطفال من الدائرة التي تسوّر الموقد، يمسكون بالحبل الذي قاموا بتسييج موقد حرق الساحرة به. ليحددوا لهم مسافة القرب منها. ترتقي أعناقهم الصغيرة المشرئبة نحو الجبل الذي أوقفوا الساحرة على قمته.

- هل هم سعداء مع تلك الأمهات المثاليات الطيبات؟

- ...

- أنا مع القوى الشريرة، مع الساحرات الملعونات، أحبّ المنبوذات المختلفات.

- أنتِ تضحكينني، الإعجاب لا يكفي لجعلكِ شريرة.

- الآن أنتَ متفوق عليّ بتعاليك هذا! هل تحاول أن تظهر لي مدى قدرتك على التحكّم بنفسك؟

- لِمَ لا تقولين مصالحتي مع هذا العالم؟!

- بتهكّمك هذا؟

- نعم، بالتحديد، علينا أن نسترخي، قد تعبت.

الركن الذي انزويا فيه لا يسمح برؤية المشهد بأكمله في المتنزه الشاسع المكتظّ بالمحتفلين. سينطلق الجوق الموسيقي بالغناء. تتعالى أصوات الدوزنة المبهجة الأليفة. تمكنا من رؤية ضبط العازفين لأوراق النوتات على حواملها. بكاء طفل رضيع. أصوات انهماك بإعداد أطعمة سريعة من حولهما على العشب. فتح قناني مياه وأنبذة وعصائر.

- أنا لا أملّ من هذا اليوم، أنسى أنه العيد الوحيد الذي أحبّه، كتبتُ عنه مراراً، ليته يمتدّ لشهر...

تصاعد الدُّخَان. كان يتلفّت، منصرفاً إلى متابعة الأجواء بعيداً عنها، ثم يعود إلى شاشة نقّاله. انتشرت النار في الهشيم. تجمّع الأطفال من كل صوب مراقبين الطقس، وقد لزموا الصمت.

3

الأسبوع الأول كان كابوساً. الأسبوع الثاني كان كابوساً. الأسبوع الثامن. في العاشر كان الليل أقصر قليلاً وقد اعتادت وحدتها في الغرفة بعض الشيء. نهضت بعد سلسلة أحلام متقطّعة مُبهَمة لتشربَ قدح ماء كاملاً وتعود إلى الفراش. كان بارداً. الخالة والعمّة والجد وصديقة الطفولة في جلسة واحدة. مناصرون للبيئة قد اعترضوا طريقها. هجمة جراد شرسة في دولة إفريقية لا تذكر اسمها. كشف عاجل عن زنزانات وأقبية رجال دين منتصف عتبة مقدسة. درسٌ جديد صعبٌ في اللغة وحيرة في تكويرة الفم للفظ ما هو

بعيد عن المكتوب. مكالمات من عيادات تخصيب تعمل استفتاءات بسرية كاملة. تظاهرات وسط مواكب عزاء. خرزة صفراء من الكهرب ضد قصور الكبد. حُلُمٌ تجريبي كُثِّفَت الأحداث المتشابكة فيه من دون ترتيب زمني.

هو مَنْ تقدّم بالطلب. حصل على غرفةٍ في الجناح البعيد من الفندق. اتفق معها على أن تكون تلك الصيغة مؤقتة لعلاقتهما.

لا تحتمل هذه المدينة الألوان المشرقة، ولا الأشكال غير الهندسية. تصميمات مفرداتها موحّدة، التناظر في كل شيء. تأثيثٌ يتسق مع روح العصر وذوقه. لا تحتمل هذه المدينة أيضاً امرأة لم يمسّ جسدها غيره. تدور باحثة عن مكان لتستريح فيه. بالإمكان هنا تمييز الغريب من لون ثيابه، حتى لو كان أبيض البشرة وغربيّاً. يدها وهي تمرّ تتحسس السطوح. تشعر كأنها في طريقها إلى الذوبان، بين انحيازها التام إلى الذائقة المعقّمة الصامتة، وبين افتقادها إلى شيء من البهجة التي تتحكّم بخزّانها نواظم مخفية. الناس هنا لا يحتملون الكثير من الفوضى، حتى في اختلافات البشر المنعكسة في ألوانهم.

لم يحتملْ قرارُها إشراكَه. لم تملك وسيلة تعبر بها عن الربكة التي سكَنَتها. لم تتمكن من الاستعانة بأحد في محنتها. كوابيس طاردتها كل تلك الفترة. هي لا تريد أيضاً أن تظهر حزناً، رغم الحفرة العملاقة التي هوت بها. لم تعِ تماماً ما كانت عليه. لقد قادَها الركض وراء تحقيق هذا الطفل إلى جنون حقيقي. تعود بذهنها إلى الوراء، حين ظَهَرَ الخطّان الغامقان. حضنت بيدها أداة الاختبار المنزلي. كانا قد فَعَلا الحب من دون نشوة ذلك الصباح.

كرهَتْ إشراكَه بمواصلة اللهاث الموجِع. أجهَضَتْه، أو أنه هو، طفلهما المُشتهى قد أجهَضَها. عرّافة باعت لها بضاعة زائفة: لا صدفة من دون مشيئة الله. كان كلاهما سيتمرمر، لو أشرَكَتْه فيما كان يدور برأسها.

كان جحيماً. لم يكن بأي حال شيئاً حياتياً.

تطيل النظر عبر النافذة قبل أن تسحبَ شِقَّي الستارة بعضهما إلى بعض. تُبقي مسافة مفتوحة للضوء. يحاكيها ما زال مثل هاتف، ذلك الضوء الخافت المنبثق بشكل هندسي من الغرف البعيدة.

تتخيلُ مخلوقات حبيسة في معتقل، يمرّ عليها زمن وهي منسية، بانتظار أن يصدر قرار بشأنها، تبني لها بيوتاً، تؤثثها مما تجده حولها بداعي اللهو وقتل الوقت. فجأة تجد نفسها في مدن، داخل معتقلاتها التي هي داخل بلدانها، لها قوانينها وأحكامها، تقاليدها وأعرافها، إنها المخيمات الطويلة الأمد!

ماذا تعني هذه الغرفة؟ تتسع لتصير عالماً بأكمله إن شاءت. البيت في داخلها، تتجول فيه بألفة. تفتح نوافذ هائلة للضوء، تنفض غبار الأثاث، الاستقرار في اللامستقر.

تركتْ كتبه وملابسه القليلة فراغات. لو كان واقفاً حذوها لتفلسفا قليلاً بشأنها و(ماتا جوعاً!). تعثر على ذكريات أكثر اتقاداً خلال لملمة أشيائهما. تضحك بسرّها. كل كوارث النزوح لا تعدو في النهاية أن تكون سوى انتقال أرستقراطي من غرفة إلى غرفة أخرى.

من فضلك، أودّ الانتقال إلى الغرفة المطلّة على البحر، لن أبيت ليلة أخرى في هذه الغرفة.

من فضلك، إن كانت لديكم غرفة أصغر شاغرة، السعر باهظ لديكم.

من فضلك، لو تقوم بتمديد الحجز لي يومين إضافيين، أرجوك.

من فضلك، الإزعاج في الغرفة المجاورة لا يطاق، إما أن تطردوا الزوجين وإما أن تجدوا لي غرفة ثانية.

من فضلك، هذه عائلتي ولا أرى مانعاً في أن نتشارك في الغرفة، لحين انتهاء مدة الحجز.

من فضلك، سأقوم بمشوار قصير قبل المغادرة، أترك حقائبي لبضع ساعات هنا.

من فضلك، تَمَعّن جيداً بالحجز، أنا لا أفهم كيف حدث ذلك، من أعطاه المفاتيح ليحتلّ غرفتي؟

من فضلك إن سأل عني أحد فلا تدلي بأي معلومات بخصوص أي شيء، إطلاقاً رقم هاتفي، ولا عن موعد مغادرتي أو قدومي.

4

رأت عبر نافذته المضاءة البعيدة ظلال انتقامه. وهو قد قالها:

- بلا حسينيات...

وهي لم تدرك حينها ما يقصد. جمعَ كل الأوراق وصفّها في ملفّها الطبي قبل مغادرته. لم يقتصد وجهه في إظهار بؤسه حين قال لها:

- كأنه لشخص غريب، كما لو لم يكن لكِ.

تركه لها على الطاولة مع مجموعة من رسائل وضبّة فواتير. صوته فجأة بدا متماسكاً، أو متهكماً بعض الشيء:

- إنه ملفّك، اقرئيه.

- وما الذي تظنّه؟ يبدو أنكَ أنتَ الذي نسيت.

خطل! تضحك بسرّها لضحكِهِ من جنونها. هل جُنّت؟ هل يظن حقّاً أنها قد جُنّت؟ تعالَ نفرش الأوراق على الطاولة. لنعمل عَصْفاً ذهنيّاً كما الدارج لكي نتبين أمورنا. لنر إن كان بإمكاننا أن نخمطَ الحقيقة بمخالبنا خمطاً.

5

تنقذف إلى هناك، إلى ما قبل بضع سنوات. تسمع تلك التلاوة الجنائزية المنطلقة من الممر في بيت أهله. خالَت الصوت لأول وهلة قادماً من المسجد الذي في رأس الشارع. انقطعت الكهرباء. لا تدري كيف انتقل جهاز المذياع إلى الغرفة، ومَنْ ذا الذي وضَعَه قريباً جدّاً من الوسادة التي نامت عليها. البيت غريب. ظلّت تلاوات القرآن تدور في رأسها وهي

ممدّدة، تنساب خيوط الماء بسهولة من عينيها؛ بسبب وضع رأسها الذي دفعته إلى أقصى حدود الوسادة حتى تدلى الجزء الأكبر منه خارجاً. كان ثقل الرأس الذي يسقط إلى الوراء يريحها طيلة زمن انتظارها.

هل تاهوا؟ لِمَ كل هذا التأخير؟

لقد عادوا من الرحلة الصعبة، وقد غَزا الشيب شَعرَهم. علاه التراب، حواجبهم وشَعْر أجفانهم. لم يكن من الممكن الاتصال فيما بينهم. كانت تنتظر الرائحة. قدومه. هل كان المشوار صحراويّاً؟ فَقْدُهم في وجوههم. سمعتْ جلبتَهم، جيش جرّار يقتحم البيت. كانوا أكثر من اثنين، ثلاثة، ربما أربعة، ومن بين أصوات الرجال كان هناك صوت امرأة لم تدخل معهم. لم يكن واضحاً ما يقولونه. كان القصف شديداً. لكنهم عادوا. دخلوا جميعاً مرة واحدة، عادوا بخبر موت وليدها، بينما كانت ممددة في فراش على الأرض. كانت مفتوحة الساقين تحت اللحاف بسبب الجرح الكبير النازف. في ليلة ولادتها ما كان هناك وقت لإكمال خياطته، صفارات الإنذار، الأوامر بإخلاء مستشفى الولادة في مركز المدينة في الحال، والأبواب التي اختصرت إلى باب واحد تدافع المرضى والموظفون عبره. تسرسحتْ مِن على سرير العمليات حالما جرّوه بجهد من عنق رحمها. ظنت أن بمقدورها السير من دون مساعدة. كانت تودّ الوصول إليه حين خارت قواها، كادت تقع لولا تلقّف المُعينتين لها في غرفة الولادة. قذيفة عاصفة هشّمت زجاج النوافذ. تشظى الزجاج وانهال مع التراب في ممرّ الخروج من المستشفى.

انقسما إلى فريقين، يهرع هو مع فريق بالوليد إلى المستشفى وفق العنوان الذي وصفوه لهم، ويعود بها الفريق الثاني من المستشفى بحضن فارغ.

جاءوا إليها بطفلها من المستشفى الميداني للطوارئ. امتنانها له لا يوصف بإصراره على العودة به إليها. لم يجرؤ أحد على سحبِه من حضنها. تترك لشَعْرِها الطويل أن يكون سِتاراً بينهما وبين العالم. تمسّد يدها جانب وجهه بينما تتقلّص اليد الأخرى على فخذه الطرية الذابلة عبر اللحاف الصغير الخفيف الذي قمّطوه به. نزل من بطنها مبكراً. لم يكن هناك من شيء جاهز.

مجرد حدث من ضمن الأحداث الطارئة التي تصنّفها الخالات والعمّات

ضمن خانة شرّ الغفلة. تنظر إلى اللحاف، لم يكن جاهزاً، نقشة لم تكن لتختارها، صنعٌ يدوي حانٍ لفّ أجساداً قبل هذا الجسد الضعيف الذي لم يقاوم. لا تذكر لمن يعود اللحاف. لمن يعود جسدها. لا يأتمر بإيعاز. ترفع رأسها، تتلفّت من حولها، مَن هو هذا الطفل، كم كان عمره! يومين، أم ثلاثة؟

فوانيس موقدة للبَهْتة من حولها، فوانيس مُدلاة من السقف، فوانيس بيد النظّارة المتلصصين عبر زجاج النوافذ التي تطلّ عليها. كأنها في معرض في الفضاء العام. حِداد من خلف زجاج.

مع توقيت دوران الحليب في صدرها عادوا به إليها ميتاً. لم يكن بالإمكان إنقاذه. اصطفّ البشر عند باب الغرفة، عينة للفحص في مختبر، دمية قديمة، يصطفون أمامها كأنهم يؤدون الصلاة في مسجد. لم ترَ وجه المرأة التي حضرت مع الرجال الأربعة، انطبق جفناها تماماً. لم تسمع بسبب القذائف المتواصلة غير شهيقها، مثل مجموعة آلات موسيقية تدفن أصوات بعضها بالتدريج وببطء شديد.

تواصلَ القصف لأيام. لم يكتبوا لها تقريراً عن سبب الوفاة. ترتفع درجة حرارتها وتتعدى الأربعين. إنذار. الثدي يصرخ بفجع البحث عن فم طفله. ولا مجال للسؤال.

باعَدَ بين ساقيها برأفة على ضوء شمعة. كان البَرد إلى جانب الظلمة بسبب انقطاع الكهرباء. لبس عويناته وقام بتعقيم الملقط بحَرق طرفيه بنار الشمعة. أدنى يده، قال: ربما سيوجعها. مَسَك بطرف الغرزة الأولى. استلّ بعدها تباعاً خيوط الغرزات المتيبسة التي صارت أشواكاً غائرة في الجلد.

تألمّت من شكّتها. الواحد بعد الآخر. لأن المستشفى حينها قد فرغ. الكلّ ركض هرباً من القصف الذي استهدف المستشفى. ممرضة كبيرة في السن عطوفة، الوحيدة التي أسْمَعَتها كلمات حانية. لم تكن ترتدي زي الممرضات الأبيض، رفعتْ كُمَّيها إلى أعلى ذراعيها، ألقت بطَرَفي فوطتها المتعاكسين إلى الوراء وقامت بخياطة جرح الولادة بغلاظة، وعلى عجل. كانت في طريقها إلى الهرب مع الباقين.

ما الذي حدث؟ لم تفهم ولكن تبين لهما لاحقاً، عبر تدوين سريع في الملف، أن كلّ الأطفال الذين أُدخلوا المستشفى العسكري قد ماتوا في ذلك الأسبوع. هذا وقد عُدَّتْ إثرها حالةُ انتظار أن يجفَّ الثديان من الحليب من ضمن عذابات البشرية.

6

الفنادق لا تأخذ من رائحة جِلْد النزيل. يسخن هاتفها النقّال ويوشك أن ينتهي الشحن فتنهض من مكانها على السرير. بإمكانها لو طلّت من النافذة أن ترصدَ حركتَهُ عبر نافذته في الجناح البعيد. أخفى الغروب المتأخر كل الأعشاش في الفناء. أعشاش كالكرات أخّاذة توزّعت بمسافات محسوبة على الأغصان. تعدّها. خمسة أو ستة، واثنان تُرِكا على حالهما. نصفا عشّين في أولهما مهجوران. يتوسّط الشجرتين الضخمتين الخطّ الوهمي المائل بين النافذتين، كأنه الضلع لمثلث متساوي الساقين. الصوت الباكي نفسه ينبعث ضعيفاً من جديد من بين الأغصان. صوت كائن ما مقيم في تلك الأشجار، يتناهى إلى سمعها مُخيفاً. يشتدّ وضوحاً ليلاً كأنه نداء. تتحرّك الأوراق، ترتعش، تصفق بعضها لتهدأ وتهجع أخيراً فتلمح أعلى تاج الكنيسة بانكشاف النور قليلاً. أكان النور خافتاً جدّاً في غرفته، أم أن شاشته كانت تلمّظ؟ حين توفي أبوه كان مصدوماً. لم يشأ أن تقام مراسيم كاملة للحداد، ولم تستطع أن تأتي بحركة وهي تحته، نام متمدّداً عليها هامداً حتى الصباح. حين توفيت من ثم أمّه تحرّكت هرمونات الأمومة بداخلها، هَدَأَ من الرضعة الأولى، وانغمارهما كان ساحقاً، كليّاً باللذة.

ولكن يحدث أن يترك أوحد ضوء المصباح على المنضدة مضاءً ويخرج، وقد يكون منهمكاً في القراءة، أو يتفرّج على قناة للأفلام الجنسية!

تمدّ بطانية إضافية على الأرض لتقوم ببعض التمارين الرياضية. تشرب قدح ماء، تتناول تفاحة، تضغط زر الغلاية لتعمل لها قدح شاي أعشاب. تلمّ

شـعرها الطويل إلى الوراء وتحبسه في مشـبكها. تقرأ الواجب لدرس اللغة. تتنـاول حقيبـة التواليت الصغيـرة من القمـاش لتلتقط مبرد الأظفـار ومزيل الطـلاء والقطن. تحـطّ يده مقطوعةً علـى فخذها، مُغيرةً، دافئـة تثير رغبتها. يفتـح الزريـن العلويين مـن القميص. تُغيّر من وضع جلوسـها فتلمّ سـاقيها. تنصـرف طويـلاً في تلـك العمليـة تحت الإضـاءة الخافتـة للضـوء المعلّق منتصـف السـقف. نزيلة بالانتظار. تعـدّ أيامها كتابةً على طريقة المسـاجين. إنها تجاوزت الآن السـنتين، الثلاث، أكثر، وهكذا في ترصّد، بعضهم غادر، الآخر حلّ للتو، وظلّ قسمٌ يتجرّع حقيقة جيرة الغرف بعضها لبعض.

بدا لها أن درفة نافذته شبه مفتوحة. من أجل أن ينادي عليها. اعتادا نزهات المسـاء المتأخرة. لربما احتاجَ كعادتِـه إلى بعض الهواء النقي الطازج، لربما صبَّ له كأسَ نبيذ، قد خَلَعَ الآن عنه قميصه والبنطلون وسيدخل فراشه.

بعيداً عن المنبت

1

يبدو فعل الكتابة باختلاف أشكاله أشبه بفعل تنازل يعقبه ندمٌ. يعني أن تترك أعضاء هنا، أخرى هناك، على امتداد الرحلة كي تعود لاحقاً لتلملمها تباعاً.

لا داعي للعجب فالدفتر هو الخيط الذي دلّها على الطير. اختبأ مرتجفاً محشوراً بين الخزانة والجدار. لم يكن من السهل زحزحة الخزانة الثقيلة، والخيط كان سيفصل قدمَهُ عن جسده النحيل إنْ سحبته. وهناك خلف الخزانة اكتشفوا الأرضة ومستعمراتها!

الحظّ! دفعهم أبعد من جديد إلى مواصلة الرحلة وقد انتهت بهم الآن بعيداً جدّاً عن المكان الذي في الخيال. الحظّ بأمله ونحسه، بوضوحه وغشاوته يخضع للفحص. وعبثاً كل محاولات تفسيرهم لأقدارهم. يتساءلون إذا ما كان بالإمكان الاكتفاء بكونهم هم من يصنعون حظّهم، لكنك ستجدهم بلحظة يستعينون بتعاويذ الخالات والعمّات.

هي تجد للنسيان إيجابياته، متعة كسرِه مثلاً، إن حسِبَته فعلاً قصديّاً. ولابد هنا من جرعة تمرّد؛ لتجرؤ وتتوغل أكثر!

كان لهم آباء كثيرون في بُرَهٍ قصيرة من الزمن. يحيطون بهم وهم صغار ويرعونهم. حصتها من هؤلاء كان أباً حانياً مخلصاً لا تتخيل أن له موهبة أخرى غير رعاية الصغار. كان شيوعيّاً، وانتهى رجلاً متديناً ملتزماً. تتذكره

مثل طفل كبير يحنّ ليكون جليس أطفال. كان مسؤولاً عن تثقيف خمسة أطفال. وهو الذي قرأ لها قصة للأطفال عن كروبسكايا؛ زوجة لينين، كيف كانت تلك الشابة قوية طموحة وثورية، قامت بتعليم العمّال الكتابة والقراءة طوعيّاً، وناضلت طيلة حياتها من أجل تحريرهم و...

كانت هي الطفلة الأشدّ لهفة من بين مجموعة الصغار للمشوار، مرة في الشهر، انطلاقاً من البصرة القديمة؟ تذكر المسافة الطويلة التي سيقطعونها مشياً، من موقف السيارات في العشّار إلى مكتبة «دار التقدم» في شارع الوطني. ما إن تلفظ الاسم حتى تستيقظ رائحة المكتبة. طقس أشبه بطقس العيد. تذكر المكان مثل نور. مصافحتها لأغلفة الكتب المعروضة عبر الزجاج، مهاجمة رائحة الكتب حال دخولهم. بين قيظ الشارع والمكان المبُرَّد. تسرق عينيها زاوية قسم الأطفال المبرقشة. حديقةُ زهورٍ بشتى الألوان، مزيّنةُ العشب والفراشات. التزامها بالتعليمات قانون. تهذيبهم كان واجباً. وإلا كانت ستصرخ فرحاً، تفلت يدَها وتركض تجاه تلك الأرفف الشهية. ويا له من انتظار ممضّ ما بين عيد وعيد.

البنات! كيف تشتدّ حمى حبّ بعضهن لبعض في تلك المرحلة؟ كنّ يتبادلن دفتر مذكرات ملوّناً، يتنافسن في إعداده أواخر كل عام. بطاقات بورود مفضضة، مسروقة أو متبادلة. وجوه نجمات سينما. دفاتر ملوّنة الأوراق، بمنزلة قِدْرِ ضغطٍ صغير له صمّام أمان. ذلك حين يحين وقت الفَصْل بين عالمي البنات والأولاد بحاجزٍ يظنّونه أمنيّاً! الأولاد لا يلجؤون إلى كتابة اليوميات. ينقذفون إلى الشارع فحسب. أو يغطسون في الأنهر، أو في مكانهم. يتأملون الجدران طويلاً، ينامون، ينامون كثيراً. الكتابة للبنات، تبطن بقدر ما تقول، كالحياكة والتطريز. الظلّ الكامن لكل البشرية.

أجساد بمختلف أعمارها ساخنة لكثرة ما ينطبخ في رأسها. أجواء تفصل ما بين الخارج والداخل، عامة وأخرى سرية، فنية سياسية. وفي فترات تسنح الفرصة فتكون شبه سرية، أو شبه متغاضى عنها. وَعْدُ كلّ الآباء ظلّ مذ كانوا

صغاراً مُعلّقاً. الشعارات المرسومة بالبال حتى اللحظة. ذلك ما اختاره والدها من بين جيله، كهوية للفنان في داخله، مندفعاً وسط الحشود الباحثة مثله عن العدالة التي لا عنوان لدارها. استثمار محض للرهافة.

محكومٌ على بلدٍ ما بغياب آبائه. وفي كل مرة يكون لذلك سبب. في النصف الثاني من سبعينيات العراق كان هناك من اختار إرسال أولاده وبناته في سن مبكرة للدراسة في إحدى دول المعسكر الاشتراكي. لا مستقر؛ بسبب ملاحقات الأنظمة الطاغية لهم. ولم يكن من السهل على وعي بعض هؤلاء الأبناء لاحقاً مقاومة زيف الأبوة، وقد ألقوا بالعتب الكبير على الأمهات اللاتي وحدهن بقين مثل أجراس تقرع طوال الوقت. مثل زوجات حرّاس البيوت الذين يحرسون عُدد البناء حتى يصعد. يلبثن في الغضب لبرهة، أو يسقط الرأس غفلة من شدّة التعب وسط النهار.

عُمرُ دفتر المذكرات عقود. اهترى وتساقط الطلاء المفضض اللمّاع من الصور وجفّ صمغها. ابنة الندّاف في الصفّ الأول من المرحلة المتوسطة من الدراسة، هي أول مَنْ أزالت بالموسى الشعر الزائد من الوجه والجسد. هي مَنْ اكتفت بكتابة الكليشيه الرصين. من سطرين فقط، مع توقيع راكز متقشّف آخر الصفحة، لا غير، شيء يشبهها، هي المخالِفة الأولى التي تبعتها الغاويات، حين كانت تتسلّل لدرس أو درسين من دون أن تشعر المدرّسات بذلك. هي مَن كانت خلف الخدش الأول للبراءة في الصفّ. بذرتها الطيبة الملعونة.

خَلَتْ صفحتها من أسى ووعود وهيام وبكاء، خلاف كل ما رسمته المراهقات من قلوب وقبلات وورود؛

إذا ذهبتْ مياه البحر تبقى الرمال، وإذا ذهبَ الإنسان تبقى الذكريات. س.م

الكتابة فعل استعادة العافية. العافية بالقدرة على تأمل اللوحة طويلاً. سماع البحر بوصف هياجه، ورعشة القارب وسط تلاطم الأمواج.

صادف أن تحصّلوا على رحلة توصلهم إلى دول المنفى. لم يكن ذلك ليخطر على بال أحد منهم. حدثَ على متن خطوط جوية، طائرتها تشبه ذلك الباص الخشبي على طريق أبي الخصيب. كان الباص في كلّ طلعة يفكر بإعلان بشرى تقاعده للركّاب لكنه يتراجع.

هي بمِرانٍ دائم من أجل النسيان. إخوتها يتفكّهون بقصصها المنقوصة. يفاخرون بالتمتع بذاكرةِ الفيلة، شَرِسَون في إثبات ضعف ذاكرتها. لها مشبك ناعم - بوسع الكائن أن يتحذلق. لا للتخوف من النعت بالعَجرفة والانتقائية. أو العبور وتمرير كل شيء. مواد العالم والحياة تنضج على نار هادئة، وبينها العَصي داخل هذا القِدْر الصغير الأمين، وبينها ما يرمى خارجاً حين لا يلقى اكتراثاً..

أية مواد وأي محتوى! لدينا ما قبل التاريخ، برج بابل، الآلهة، لدينا بعد التدوين، المسيحي والهجري، الأنبياء، ما بعد الحداثة وهتلر وموسوليني وستالين. لديها ما بعد أول دورة شهرية، ما بعد قصيدة ذات الحذاء الأحمر، ما بعد الولادة الأولى المبكرة، صدّام وما قبل حرب الخليج الأولى، ما قبل الغزو، ما بعد الانتفاضة، ما بعد الوصول إلى المنفى، البرجين، قبل السقوط، وبعد التغيير، وكل ما أتى من ملحقات. الحظ، ذاته الذي يُنجي سلطاناً ويميت فقيراً. وحين يستعينون بالإرادة في التغيير، يقعون في الخطأ الذي أودى بالمتبقي من العراق إلى خواء.

مدوّن في دفترها:

ثلاثمئة ألف جندي أمريكي، عدا آلياته.

شيطنوا الشيطان أكثر مما يمكن. كيف سيترجم الوعي الخفي ذلك؟ عند وصولكِ شواطئ البلطيق سيعيرونك كل شيء، جملة يستقبل بها المنفى قاصديه. ومدونٌ في دفترها أن عدد الغرقى قد تجاوز المئتين بعد الألف!

بعد عشرة أعوام، بعد عشرين عاماً. متى تصلها؟ أشياء خاصة لا يتذكرها أحد. حُفِظتْ هنا وهناك، بعضها في الغرفة المقفلة في بغداد. ما زالت

بالانتظار، رغم أن البيت قد تمّ بيعه بعقدٍ خفي يعود إلى رجل دين احتلّ الحي القديم برمّته.

الحقيبة تندثر تحت ركام البلدوزرات التي اختزلت قيمة ذلك البيت إلى مجرد مركز تسوّق ضخم، والصور تهمد مع ثورات الغبار المتصاعد وتتحلّل.

كمن أتمّ فترة سجنه أعماها الضوء. ضوء حنين غريب. أشياؤها بعثتْ بها اشتياقاً جديداً لا تعرفه فيها.

ترمي الناس عشرات الأشياء كل يوم، لا تبكيها. تخزّن هدايا تنسى فتحها. وفرة تعوّض مئات الأشياء، استهلاك بتكرار اقتنائها. لكن بمقدور خِرْقة وأوراق وصور شاحبة ملوثة بطبع أصابع غريبة أن تحدث خللاً في وجودها!

الدفتر المخذول وحدَه علِقَ في ذهنها، مثل سمكة ينفتح بطنها على حشوة اللوز والبصل. طبقٌ كانت تنتظره من يد والدته. وصفات سرّية لا يصلح أن يعدّها سواها. أسرار مدفونة تحت الغطاء، دفترها الذي يعلوه الغبار. رائحة بهارات خاصة. شيء ما يفوح من الرز المدفون تحت السمك المُبهّر.

بمعجزة حطّت يومياتها بين يديها. نجا الدفتر بأعجوبة. يدٌ استلّته من بين كل ما في ذلك البيت القديم في بغداد، ومن بين كل ما في ذلك السرداب، الغرفة التي تنخفض عن مستوى البيت بعمق دَرَجَتين لتكون ملاذاً للعائلة في حرّ الصيف. ليس في الحلم. ليس في الواقع. لطالما لازمنا الشعور بأننا مِلكٌ عام. قُلّبَت الصفحات وقُرئت، بل هُمِّش عليها، وجُرَّ خطٌّ بقلم الرصاص تحت بعض جُمَلِها. جملة كانت قد كتبتها بعمر السابعة عشرة عن الحبّ. مطلع أغنية أجنبية خُطَّ بقلم الرصاص تحتها. اقتباس من رواية روسية، ما الذي استوقف أحدهم لكي يضع خطّاً تحت هذه الجُمَل تحديداً؟ رهبة تعتريها. لَمْ يبدُ الأمر مجرد فضول. وليس ذلك سوى تتمة لمشهد سابق يقلب الأمور. يجعل الشرطة في خدمة الجلّاد، ورجال الأمن العدو الساهر

الأوحد. عيون مزروعة في الجدران وأعمدة الكهرباء، كأنها في الهواء، تتحين الفرصة للانقضاض على الضحية.

2

هالها ذات يوم ما رأته أول دخولها صالة بيتهم. الصالة الواسعة خالية من الأثاث، أرضيتها قد فُرِشَت بأكوام من صور العائلة، انتُزِعَتْ من زواياها الأربع في الألبومات القديمة. قُلِبَت الحقيبة الجلدية بنقشة «سنّ الكلب» بكلّ محتوياتها على الأرض. الحقيبة تلك من الآثار القليلة الشاهدة على عَصْرٍ كان يحسبه الجميع واعداً. كانت تعود أصلاً إلى أكثر الرحلات دهشة في الطفولة، حين سافرت الأم والأب للمشاركة في المهرجان العالمي للشبيبة في برلين. كان ذلك في النصف الأول من سبعينيات العراق. أنصار السلام والصداقة وضد الإمبريالية! قضايا كبرى لا يعيها غير الحالمين اليوم، ويتأكدون من استحالة تحققها. وجاءت الأم بهدايا صغيرة مفرحة لأطفالها، ومُجفّفاً للشَّعْر حَوَتْه تلك الحقيبة. وككل شيء ماضٍ في تحوّره، وبفعل نهج التدوير صارت الحقيبة صندوق صور وألبومات، يتحينون الفرص في طفولتهم للتلصّص على محتوياتها. أكداسٌ من صور بالأبيض والأسود. صور الخطوبة والزفاف وأعياد ميلاد الطفلة البكر. صور الأب يحيي حفلاته في أمكنة مختلفة، مسارح مختلفة، فرق موسيقية اعتاد عازفوها على البيت وأهله. صور الأم في كل جولاتها الرياضية. كل الأنشطة الكشفية عندما كانا طالبين، مع رابطة المرأة، والفرقة الغنائية السياسية التي أسّساها. صورهما في أثناء فترة عملهما في التدريس لأكثر من عشرين عاماً. الحفلات الحزبية في البيوت، وصور المراهقة التي تثير الضحك والضيق معاً. أخرى انتصب فيها رجال تثير ذكراهم الغثيان.

هل كان التيار الكهربائي مقطوعاً؟ أكوامٌ من عيدان الثقاب المحترقة بجانب كل كومة صور. مشهد غرائبي شغل مساحة كبيرة من الصالة الواسعة للبيت. بالإمكان أن تُعدَّ أغرب عملية سطو في التاريخ. ولِمَ فحص الصور

الدقيـق هـذا؟ أي نوع من اللصوص هؤلاء؟ هل كان لصّاً واحداً، أم عشـرة؟ رسموا حلقة كبيرة من أعواد الثقاب المحروقة، ما يكفي لموقد ملأت الصور العائلية المنتصف منها. دائرة هائلة من مساحة الصالة الواسعة.

راحـت تجمع الصور بيدين راجفتين وقلب واجـف، بينما كانت تتلفّت من حولها. ستُفاجَأ باللص يهجم عليها. لربما يكون قد اتخذ زاوية من البيت مقرّاً له. صوتُ حفيفِ النخل في ليل الحديقة، أزيز حشرات، هزهزة خفيفة للأبواب، قرعٌ على المواسير التي تحفّ جانب البيت، ونبض القلب كان بتسارع.

هنـاك، قيل، من رأى شـبحاً يتجول في أرجاء البيـت، ولكنهم لم يجدوا حلّاً للغز تلك الحادثة.

أن تغفـر هـو جـزء من النسـيان. تكويـن الكاتب برمتـه يصرّ علـى ذاكرة مهكّـرة، ليظل يكتب بدهشـة. لا بأس بمقدار من السـذاجة. قد تم غلق باب البيت. كل شيء قد تمّ على وجه السرعة لئلا تفسد خطّة الهروب من الجثث المنبوشة، الرسائل والصور المسروقة، والكتب المدفونة، البنت التي تركت الدراسـة، الشـابة التـي نامـت مـع الأب، المومـس التـي تزوجت مـن مدير الشـركة الألمانيـة، دماغ الطفل الذي لطـش بالجدار، الجنـدي الذي لن يتم تسـريحه، سـرير الطفلة الذي استمنى عليه أحدهم، الهدية المفضوضة التي أعيد تغليفها، البيت الذي صار مخزناً يؤمّن السلاح والمؤن والخيل، الورقة المنزوعـة من الدفتـر، العين الجاحظة التي يهيمن عليهـا البياض، التي تدور حول شبابيك البيت للتلصّص.

3

يَعِدُها النهار بشـيءٍ ناعم. يحاصرها نيسـان اسكندنافي في أواخره. أينما التفتـت. يُجهدهـا الإزهـار والوجـوه المتلألئة وصفـاء الجو. لـم تعد تغادر الغرفة قبل أن تتأكد من كل شـيء بعد انتقاله. اتفقا على أن يكون مؤقتاً، وهو فـي الحقيقة لم يكن اتفاقاً، إنما إنهاكاً محضاً أصاب الطرفين، حين لم يحيرا جواباً للأسئلة.

تلـمّ كل حاجياتها فـي حقيبة تقفل عليها وتعيدها إلـى الخزانة التي تقفل عليها هي الأخرى. مـذ نقلَ أغراضَه صارت المهمات الصغيرة تأخذ حجماً أكبـر. تقفل الغرفة وتلقي بكمشـة المفاتيح في حقيبتهـا. ذات مرة جرّبت أن تجمـع كل هـذه المفاتيح فـي ميدالية واحـدة، إنها المرة التي اسـتعدّت فيها لأن تكـون مثاليـة، بضبطها لكل تفاصيـل حياتها من دون عونـه، أو الرجوع إليه بسـؤال. ولكنها كانت فكرة سـيئة جدّاً. ضاعت الميدالية بكل مفاتيحها. الحـدث رغم تفاهته كان قد زلزلها. لـم تعرف ما الذي تفعله إزاء الهلع الذي أصابها. اضطر المسـؤول ذو البشرة السـوداء، العكر المزاج على الدوام إلى طمأنتهـا. كسَـرَ قفـلَ كلٍّ من باب الغرفـة والخزانة. ما تبقى هـو قفل الحقيبة الثالـث، وكان أمـره لحسـن الحظ سـهلاً. نزلت راكضـة لتشـتري مثيله من المحل القريب بسـعر زهيد. ذلك ما نصحها بـه صاحب المحل الذي كانت سـحنته أجنبية أيضاً. فرحت. من شـأنه أن خفّفَ الإحسـاس الذي اجتاحها بالخيبة لعطلها.

تضيق بفكرة تتكرر. إذا ما كان الغرب، بين مزدوجين، هو مَن تدخل وأثّر باتخـاذ كل القـرارات المصيرية فـي حياتهما معاً. وهو هلـعٌ يصيب القريب والبعيـد. الشـك يسـاورهما إزاء مـا حدث. ما الـذي يمكـن أن يقف خلف قرارهمـا بالانفصـال. لا تحب سـمة التمرّد، وهي لم تتمـرّد. التمرّد ضرورة وجوديـة، لا يمكـن قمعها. الغرب بقضّـه وقضيضه مـا كان ليتمكن من فهم الموقف. ليت الأمر لا يظهر كأن الجميع يبكي ضياع تاريخ أمة بأكملها.

قضيـة خاصـة تعمل علـى لـمّ تفاصيلها المفقـودة. ذرّات الغبـار تتجمّع على سـطح جهازها. لِمَ المطالبة بتفسير؟ حتى الرحلة التي وصفوا محطاتها بالقاسـية، لـم تكن كلهـا كذلك، حين تتذكّـر فترات منها! لـم لا يكون أبوها باختيـاره مـن يقـف خلـف كل ما مـرّت وتمـرّ بـه؟! الوفـاء بينهـم كان نقيّاً بـدت فيـه العائلـة فرداً واحـداً. وهذا الفـرد كان له حلم واحـد، رعب واحد وخَلاص واحد.

لم لا يكون ذلك هو خيارنا؟ أو لِمَ لا يكون مصيرنا، بدافع شمس حارقة،

أو ثلج لا يذوب طوال السنة؟ لم لا يكون دافع أن يهيم المرء على وجهه هو الحيـرة، مجردة من كل ما يغلّفها؟ الصحراء تدفـع لذلك، الجبال والوديان، لِمَ لا نهيم في زحام الكون العظيم إلى الأبد؟

4

لارس يشبه بلغة جسده قائد أوركسترا. حركة يديه مرنة خفيفة رشيقة لكنها أدائية، مسرحية حتى في محاولة التعبير عن حزنه. يسيل الدمع من عينيه. قام الطبيب بتأجيل عملية سحب الماء مرة ثانية، قالها لمنال من دون شكوى. كان قد دعاها إلى شقّته ليعبّر عن تضامنه معها في أزمة انتقال أَوْحَد. أظنه وجد من الصعوبة الإبقاء عليهما معاً كصديقيْن في ذات الوقت فاختارها. لا يخفي إعجابه بنفسه لتجاوزه أزمة فقدان زوجته. تدبّرَ معيشته وحيداً. ولا شك تأثرتْ حياته، يقول لها. كانا يخططان هو وزوجته لحياة مترفة معاً بعد سنوات طويلة من العمل. ولا بأس الآن، هو مشغول جدّاً بإدارة نشاطات وتنسيق لقاءات أصدقاء متقاعدين من جيله. ليسوا من الأثرياء ولكن تقاعد المحامين وتوفيرهم يتيحان لهم حضور المسرح والكونسرتات والمعارض الفنية. كان لارس يعدّ لهم حتى السفرات الثقافية للاستماع إلى أوبرا في فيينا أو برلين معاً.

قد أعدّ مائدة لاثنين لتناول الغداء. شرائح لحوم باردة وجبنة إلى جانب الخبز والقهوة. وجبة خفيفة عوّضته عن إفطار يقتصر على القهوة وقطعة الخبز الأسود المحمّصة مع الزبدة والمربى. لم يغيّر شرشف الطاولة. نظره قاصر عن ملاحظة بقع القهوة والمربى على صدر قميصه والأعلى من بنطلونه. وليس لأنه كان وحيداً، ولكن الوقت لم يكن لديهما كافياً يوماً، حتى في حياة زوجته؛ ليضعا الأولوية لتلميع البيت والصحون وكي الملابس.

وردتان صغيرتان في مزهرية صغيرة جدّاً من الخزف الصيني القديم. وبصوتٍ فَرِح، إنها من بقايا باقة وردٍ أهدَتْها إليه صديقة. يطوي جريدة اليوم ليضعها جانباً. غمزتُه فاصلة برأيها. هي إثبات قاطع على تجاوز الحزن وتهيؤ لاستقبال الضوء الذي انحسر في داخلها. في الخلف كان قد اختار

مقطوعة موسيقية تسرقه بين الحين والحين. كان يغمض عينيه، ينغمر تماماً وينفصل عما حوله وهو يؤدي فجأة حركات توزيع أوركسترالي تؤكد تفاعله مع النزول التدريجي أو الصعود، والضربات الخاتمة.

لطالما أصابها الحرج في الإجابة عن أسئلته المتتالية. كثيرة هي الجوانب التي لم تفكر بها، أو تمرّ عليها، أو تُسأل عن رأيها بشأنها، لا سيما السياسية منها التي يطرحها. يبدو لارس رجلاً لا همّ له غير الثقافة؛ الفن والأدب والموسيقى. شقّته بفوضاها عكست هويته. تتراقص العين ولا تكاد تستقر بين جوانبها. كتب وموسوعات ولوحات فنية مقتناة، منحوتات وأطقم من الفخار الصيني والفضيات. على كل جدار، فوق كل رفّ، وفي كل زاوية. كل مقتنياتهما تقف من خلفها قصة يسردها بالتفصيل ما إن تسأل. ولكن المدهش بالنسبة إليها كان إلمامه بغالب ما يخصّ بلداناً وأماكن نائية في العالم. يعرف عن أقليات لم تسمع بها، عن قصص ملوك، عن دكتاتوريين وقادة ثورات، عن أنواع أنبذة، عن أصول نباتات، عن أزمان ماضية وقبائل بعيدة كل البعد عن أوروبا.

كانت تعوّل على أوحد في تناوبهما لمجاراته والإنصات إليه. يرشح دور المعلّم في لارس الذي يتوجب أن يتوقف عند ما هو غامض ليشرحه مفصّلاً، قبل أن يتابع. ويضحك أوحد حين تشكو من صداع رأسها بعد أن يغادرهما لارس؛ للجهد الذي تبذله بخصوص اللغة والمتابعة.

في ضيافته اليوم. ألفَتْ نفسها في حصار. وحيدة معه! رغم ذلك كانت مسترخية، كأن الكون عند قدميها. رفدَها المشوار بشيء من غبطة. لا تدري لِمَ طرَقَ موضوع الاستقلالية والثقة. هل بدت له خلاف ذلك؟ هل كل الرجال هكذا؟ كانت لا تملك إلا أن تجامله فيما يحلو له الخوض فيه ولكن ليس هذا. ولحسن الحظّ تمكنت من الحديث عن رائحة الدفء الذي حوّطها في الطريق، عن خيوط الشمس التي سقطت على الطاولة، وعن نقاشات دارت عبر دروس اللغة، وأماكن التطبيق العملي التي عملت فيها. هو اليوم الأول من أيار، وقد كان من المفترض أن تلتقي مع أصدقاء لها في

الـ«فيليذباركـن»، لكنهـا لبّت دعوة لارس. هل تنبّه إلى الشـهية التي تفتحت لديهـا حيال سـماع المزيـد منه عن الحيـاة، وعن العالم مـن حولها. لم يكن اشـتراكيّاً. يضيق بالأعلام الحمر، بالمنجل والمطرقة، بالأناشـيد الحماسـية الثوريـة للعمّال والخطب السياسـية والإيديولوجيـات. يرفض تلك الأفكار التي أسـماها استشـهادية؛ فهو لا يحبّ الثورات. بينمـا هي، إن كانت تعرف حلـولاً أخرى على مرّ حياتها لتغيير الواقـع، فلا منقذ إلا الثورات. ذلك كان أول اصطدام لها بالوجه الآخر للفكر الذي كانت مخمّرة فيه. لم يكن خياراً، وقد وُلِدَت في حضنه. لذا صَعُبَ النظر إليه من الخارج. السرّ المرعب الذي كانت مُثقَلة به طيلة حياتها قبل أن تغادر، لم يعد سِـرّاً، ولكنها عادت لتخفيه مـن جديـد هنا. الزهو الخفي الذي كمَنَ فيه سـرّ عنادها تبـدّد، كأنها آخر من يكتشف حقيقته. كانت توعزُ كلَّ اختلافٍ في الرأي مع أوحد بالشأن الفكري هذا، للبيئة التي نشـأ فيها. لم تقتنع يوماً أنه كان منفصلاً عن بيئته إلا متأخراً. انقسامها على نفسها نابع من تلك الخيبة من وعيها، وذلك الإنكار لقولبتها.

لا تـدري إن كان تسلسـل أفكارها قد سـحبها إلى الداخـل ففاتها ما كان يقوله. أسـئلته حثيثة دقيقة. يسـألها عن الحركة الفنية، عن مجال نشـاط أبيها الفني. بدت حماسة تقديم قضيتهم كقضية عادلة،ساذجة. حدّثته عن هاجس المباغتة كشـرط من شـروط الحياة التي عاشـوها. تحقيق جـراء كلمةٍ ما في نص، أو تجسـس حيال حضـور كبير لبرنامج فني في مناسـبات عامة. كانت السـلطة ترى في الحراك الشـعبي تهديـداً، وحسّ العدالة بمنزلـة فكر مُهدِّد. لـم تعرف أن الحديث عما اعتبرته بديهيات كـم هو بالغ الصعوبة. أن تصف لـه الخوف النابت فـي أعماقها في ظل النظام البوليسـي الذي ترعرعت فيه. والأصعب أيضاً أن تصف له عزلة الفئة التي تنتمي إليها.

لا جديد فيما قالته. يعرفه لارس، وهو مَنْ أدخلَ مادة السِّلْمية والتسويات والمصالحة إلى كورس التقديـم للمجتمع الدنماركي في أول تعارفهما. أقرّ بـأن لُحمَـة الدنماركيين لا تغيب عن أحد ما إن يلوح خطرٌ ما. بالطبع لأنهم «شعب هوموغين»؛ لذا كان من السهل وعلى الدوام توصّلهم فيما بينهم إلى اتفـاق، مهمـا اختلف اليميـن مع اليسـار. حقيقة ليس هناك من يمين ويسـار

فـي الدنمارك بالمعنى الشـائع في العالـم، هناك وحدة وخـوف على الدولة في النهايـة تخصّ الموديل الدنماركي وحده الذي تنبّه إلى سلسـلة الثورات الدامية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين فتجنّب هذا الطريق.

لم يكن اللاجئون المشتركون في تلك الدورة مقتنعين بنموذج الدنمارك. غير ذلك فهي تعرف البعض منهم مِرْجَلاً يتحاشـى الكل الاقتراب منه. ذات يوم قاطعه أحدهم منفعلاً وصاح:

- ليكفّ الأوروبي عن الادعاء بمعرفة كل شيء. كفى.

قالهـا وغادر الصـفّ صافقـاً الباب بقوة مـن خلفه. طبيعـة تفكير لارس البراغماتي، تتيح له، وفق قناعته التي حاول أن يوضحها تفهُّم وطأة سياسات الحكومـات القامعة التي تعاقبت على بلدها. وصفَ رد فعل اللاجئ بانفعال عاطفي، وما زالت بقايا منه يلمسها في جيله.

كانـا، هـي وأوحد، يحسـبان لارس مصاباً بفوبيا العقائـد على اختلافها. وقد صاح بالفعل على حين غفلة بينما كانت تنصت إليه:

- رجال ونسـاء سـيتظاهرون اليوم، سينطلقون في مسـيرتهم وستسيل دموعهـم مـا إن يبـدؤوا بترديد مطلع أغنية العمّال الشـهيرة تلـك «حين أرى العلم الأحمر مصطفقا».

أخـذ يدنـدن اللحـن بالدنماركيـة. بيـن لحظة وأخـرى يتوقف ليسـهب لها بالشـرح وهـي تبتسـم. كان مـع الليبرالية الاشـتراكية، ضـد الاشـتراكية، وضد الشيوعية، اللتين توحّدان كل شيء. تعلو نبرة صوته المستنكرة للنهج الذي يعدم التميّز والتباين ما بين المسـتويات الاجتماعية، الأفكار والأذواق. لا يفهم كيف لا يكون هناك مكان للاختيار الفردي، للاختلاف، يراه إجراءً خانقاً للإنسان!

-اسـمعي... يدني رأسـه صوبها ليكسـر من حـدّة درجة الانفعـال لديه: كانت الأغنية تبثّ الحماسة في روح زوجته المتوفاة.

-كم أشتاق لها الآن... ثم يدندن شبه ضاحك: (*لقد رأيتُ والدي بهامةٍ مرفوعـة أمـام اصطخـاب العلَم، استمعتُ وسـمعتُ إلى خفـق القلب، في دواره الفخور الحرّ، أحببتُ لونه من صغري، حين حملتني أمي في حجرها، وأخبرتني واعظة هادئة، عن عَلمٍ ذي لونٍ أحمرَ فاقع*).

تنبّهتْ إلى اللون الباهت لثوبها. شيء منقوع بالخيبة، تحديداً في النظرات التي كانت تقابلها وتستمع من دون لمعان يُذكَر خلال النقاش، أو حيال حَميَّتِها من أجل تبرير حتى وجودها.

من أين جاءت الخيانة؟ أي خيانة؟ ما أوحَوا إليها به. وما الذي أوحوا به إليها؟ «الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق». تَصْدُر ضحكة لا يسمعها إلا هي، مُجلجلة تتصدّع لها الجدران.

لم تكن هناك ديمقراطية تُذكَر، ومن البديهي ألا تعرف منال شيئاً عن قوى المعارضة الأخرى. لم تلتق غير الشباب ضمن تلك المناخات الفنية العائلية. تذكر اندفاعهم، بل مخاطرتهم بإنهاء حياتهم لو اكتُشِفَ أمرهم. كانوا يشعّون حماسة من أجل إعداد ما تتطلّبه المناسبات. المعلَن منها، وغير المعلَن. الكراسي المخصصة للضيوف المسنّين من القادة وأعضاء المحلية في المقدمة، اللافتات المخطوطة، اللبلبي وشرائح الليمون والمنفضات، مدفوعين بهوسٍ تشبّثا بذلك الوعد. وما هو؟ في ذاك العمر كان سقفاً أعلى وكمية هواء أكبر للتنفّس فحسب. يسحبُ شابٌّ باتقّاد طالبة من القسم الداخلي لجامعة البصرة إلى وسط الفسحة الضيقة الممنوحة للرقص. البيت ضيق مكتظّ، لا يكفي للتعبير تماماً عن أحلام البنت. يرقصان. تميل على إيقاع أغاني الحزب، وما النظرات التي يشيّعها بها القادة حينها إلا سبب مُضاف لسحر اللحظة، يتسع المكان فتراه البنت فضاءً رحباً من الانفتاح والحبّ والحرية. تتلعُ عنقَها، تتثنى، وتنثر شعرها، بينما الحاضرون، بحيوية كونسرت يحييه نجوم البوب في ملعب ضخم، القريبون والناؤون في المطبخ، يرددون بانفعال شديد، بهياج عاطفي جماعي وبصوت متهدج يرافق المغني، مقاطع معروفة؛ (يا حزبي في الليل وجدناكَ مناراً، في الصبح لقيناك هَزاراً، في الظهر قرأناك شعاراً، في كل الأزمان عرفناك مداراً). تشعر البنت باندماجها الكلّي مع دواخلها، تتمايل تصعد، تتثنى كأنها في حالة وجد، يتورّد خداها وتلتمع عيناها، ويكاد يُغشى عليها.

أين ذهب كل الشقاء، كل الشباب، كل تلك الوعود؟ أين من اختفى أثرُه من بينهم، ومَنْ انزوى معقود اللسان، ومَنْ تناول المسبحة للتقرّب من الله وغسلِ ما مرّ من ذنوب؟ وأين ذهبت تلك الأغنيات التي وصفها لارس بأنها منتوج روسي؟

- أناشيد وأغانٍ شيوعية عربية، يبدو الأمر مضحكاً بالنسبة إليَّ، لا يمكنني تخيلها بنسخة شرقية.

- لكنها كانت وطنية.

تلعثمتْ. لم تعرف بِماذا تجيب أكثر من ذلك. أين راحت تلك الشابات، أولئك الشباب؟ أغصان غضّة تجاذَبَتها الريح! ليس مهمّاً لديها أن تنصت إلى فضائح السياسة وعقم الإيديولوجيات. لا يعنيها ما فعله السوفييت، وما صدر من الأمريكان. الأهم هو أين ذهب كل تاريخ السجون والدم والتشرّد والملاحقة والتضحيات والتخفي؟ استحت من عذاب أمهاتهم. استحت من أخطائهم وفوضاهم ومصائرهم. لا تملك غير أن تستحي من كل ذلك. ليس بمقدور أحد أن يدافع عما ثبتَ أنه وهم مقدّس، يشبه كل الأوهام التي سخّروا الإنسان عبرها لينفذوا خططهم الدوغمائية.

كانت قد أتت بتشكيلة قطع من الكيك من المخبز في طريقها. صبَّ لارس القهوة في الكوبين، ونهض من مكانه كأنه قد تذكّر فجأة شيئاً، متوجهاً إلى بارِهِ الصغير. استدارَ نحوها واقترح أن يقدِّم لها كأساً صغيرة من شراب الإيسبريسو مارتيني.

- سيعجبكِ وسيكون احتفالاً عمالياً حقيقياً.

أطلق ضحكة أدمعت عينيه، وقد وقف أمام الكؤوس يبحث عن المناسب ما بينها، وتابع حديثه:

- ككل نهايات الثورات، نهاية القصة فاشلة.

- ولكن لِمَ تكون فاشلة، لو كان تطبيقها صحيحاً؟

- نعم عزيزتي، هو ما يقوله كل المتدينين، والثوريين. الأهم من هذا، حاذري أن تتغذي مثلهم على الأحزان!

5

حـدَثَ عبر نشـاطٍ أدبي للعراقيين في كوبنهاجن. حفلٌ موسـيقي، أحيت برنامجه فرقة تحترف أغاني التراث العراقي.

لهـذا السـبب وحده قد حَضَرَ هذا الشـاب. لا شـأن له بالثقافـة، أَوضَحَ لها لاحقاً، لا ليؤكد أنه بريء من الثقافة بقدر ما يوضح أنه مفلس! انزوى في أقصى الصالة الضيقة، قريباً من الفتحة المؤدية إلى التواليتات في المقهى. هي زاويتها المفضلـة أيضاً، تجتمع فيها كل خفايا المدينة ونزواتها. الأمكنة من هذا الطابع قليلة إن لم تكن نادرة. مشـاريع ثقافية كثيرة لم تستمر. مشاريع ترقى إلى درجة الحلـم بخلـق مناخ غربي شـرقي، فيـه الموسـيقى مدمجة لتسـتمتع بعزف وتر عـود دافـئ، وربما تتناول طبقاً شـامياً خفيفاً أصيلاً. يُحدِث وئاماً في اسـتراحة قصيـرة مـن أهوال اليـوم ومعاركـه. أن يكون الـروّاد من الجنسـيات المختلفة مهذّبيـن ومتذوقيـن للبرامج التي تُعدّ فـي المكان. ربما كان ذلـك آخر عهدها بهـذا المكان. كان يكفيها على الـدوام التفرّج على الملصقـات الدنماركية في المقاهي، في تأمّل أقدمها وأحدثها. كانت دائماً كأنها تحاول اللحاق بالحروف اللاتينية، تقطّعها، تصفّها، لتفهم الكلمات الطويلة الملصوقة ببعضها وما يقف خلفها. ليس سهلاً أن تقف هنا، ولكنها نقطة تنطلق منها للتركيز.

هو الذي بادَرَ بالسـؤال بينما كانت سـتعبره في تلك الأمسـية. نَهَض من مكانـه، نحيفاً متوسـط الطـول، بـرزت عضلتا ذراعيـه من أكمام التيشيـرت القصيرة والمترهلة.

– إذا ممكن عندي سؤال.

لـه وجهٌ حـادّ المعاني وعظمتا خدّين بارزتان، شَـعْرٌ أسـود حليق تقريباً، ونظرة لا تخلو من بعض زوغان، مُرتَخٍ ضاحك.

– تفضلْ، لِمَ تضحك؟

ضاحـكٌ من نفسِـه على الأكثـر، كأنه وَجَد نفسَـهُ في مـكانٍ لا يمتّ إليه بِصِلة، ولكنه قَبَض على نفسِه مستمتعاً في داخله.

بدا غريباً عن الوسط، وحيداً، يداه في جيبَيْ بنطلونه الجينز، كتفاه ترتفعان وتنزلان لتعيناه فيما يود التعبير عنه. يرفع يديه عالياً:

- أعزلُ بين المثقفين، أحمي ظهري بالجدار.
- لاجئ؟
- لاجئون، مغتربون، منفيون، مهاجرون، ما تحبين، غير مهم عندي.

بـدفءٍ ولهجةٍ جنوبية هجينة سـأَلَ إذا ما كان هنـاك المزيد من الحفلات من هذا النوع في القادم من الأيام. هي لا تعرف. طارئة مثله. ولكن ستسـأل عن البرنامج. ليس له في الثقافة، بالكاد يتهجأ الحروف، ولكنه الغناء، يُدمّره.

- تعرفين! بروح أمي لا يبكيني إلا هذا.
- أنت حديث هنا؟
- أنا أقدم من ناظم الغزالي.

قولـه العفـوي يفجّر في اللحظة عاطفـة كبرى فيها. تتحرك بقع اسـتقبال الملامسة في أطراف أصابعها. تمتدّ يدها تلامس كتفه، لتسأله في الحال عن مدى رغبتِه في إجراء مقابلة معه. حيثما يريد، الأسماء ستبقى مجهولة. أطلق ضحكة شاركتْه إياها لتطمئنه، معوّلة على نظرة عينيها في عينيه. مَسَح جبهته بإصبعه بحركةٍ تمثيلية.

- لاااا، ظننته لقاءً تلفزيونيّاً! تصورت أن الحظّ قد لعب معي لعبته أخيراً وسأحصل على دور.
- التقريـر يخصّ المعرّضيـن للتعذيب وعوائلهم فـي الأنظمة الدك.... تاتورية،

قاطعها.

- مَنْ أنتم؟

فزّ وفزّت من البتر. الجو الذي تخلّق بينهما قبل دقيقة.

- مركز دراسـات وبحـوث تابع لجامعة دنماركية. أنا متطوعة. دراسـة حول الحروب.

داري خجـلاً، رأته طبيعيّاً فيه. اسـتردا الثقة التي اسـتهلا بها اللقاء. عالَجَ وهـو يدسُّ يده ليخرج شـيئاً ما من جيب بنطلونه. كانـت لديه بطاقة تعريفية. ناولها إياها وانصرف في الحال.

كان عنـوان محل تصليح الدرّاجات الهوائية، وفي زاوية منه اسـمه ورقم هاتفه.

- حسـناً، انقذفنـا على الحدود في عـام 1979 بين العـراق وإيران. طاقة الغضـب التـي كانت لـديّ رهيبة. تكفـي لارتكاب جرائم كبـرى. أمي ظنت أنـي مخبـول. دخلـتُ تنظيم حـزب الدعـوة في إيـران. ثلاثة أشـهر كورس إيديولوجي لقوات بدر. غسل وتشحيم.

قلبي يتابع ضحكاته، يميّز نغمته السـاخرة. جلستُ في الطرف من أريكة طويلة تلتقي في الزاوية بمقعد عريض سحَبَه صوبي ليقترب أكثر.

- اسمعي، أمي، اتضح أنها أصلاً من البلوش. لم أكن أعرف هذا، أقسم لك، البلوش يملؤون البصرة ولا أحد يعرف عنهم شيئاً، أو يسأل. فهمتُ لِمَ نحن غرباء، وحيدون، غير مرئيين.

هـي لا تظهرُ له غير وجـه صنمي ليتابع. لهجته غريبة جـدّاً، بصرية مبرية مائعة لها ذؤابات فارسية.

نصـف سـيجارة مطفـأة تظل بين أصابعه. سـرعان ما سيسـتقطع لـه وقتاً ليطلع إلى الشرفة.

- الحيـاة مهازل. عمري 18 سـنة حين زوّجونـي كي ينصلح أمري. كان عمرهـا 16 سـنة، وهَلَكْنـا الجنس. هـي كان لديها نفس المقـدار من الطاقة، شـيء مذهل، خرافي، كنا في فقر مدقع، لـم يكن في متناول أيدينا غيره، فقد كان ببساطة مجاناً وحلالاً.

ضحك وجهه وهو يمصّ سيجارة مطفأة.

- أنجبنا ذكوراً وإناثاً من دون استراحات.

كان صوت الخلاّط الكهربائي من بعيد يعلو بين حين وحين. ينادي على بَهار التي كانت تتحرك في المطبخ المفتوح على الصالة حيث نجلس. يطلب منها أن تترك ما بيدها لتلتحق بنا. تجيبه بصخب أنها قادمة.

- بقينا سنوات في إيران. سلاح وأعمال سخرة، ملابس مهترئة وطعام حقيـر. انتهـت الحـرب العراقيـة -الإيرانيـة فأحسسـت فجـأة بالخوف من

نفسي، من طاقة العنف والغضب التي كانت تتعاظم. لم يكن أحد ليجرؤ على التقرّب مني. أمي تدعو لي بالهداية، ولكني كنت أملك وجهاً إجرامياً مخيفاً، بذاءة بالكلام، شراسة بالتحرّش والتعدي على الآخرين وفي الدفاع عن نفسي. كان لديّ نهم للافتراس ونهم أن يفترسني شيء.

يرفع كمّ قميصه ليشير إلى جرح غائر بخطٍّ مائل في ذراعه. يضحك.

- دخلت سجوناً ليس لها مثيل في طرق التعذيب. ازداد سخطي على كل شيء. أهلي. زوجتي، أولادي. شعرت بأن كل شي كان مغشوشاً في حياتي، كل شيء، أنا، والدي ووالدتي، وكلُّ السوق الذي اشتغلت في كل مجال فيه. قاع هذا السوق المغشوش الذي عشت وساخته كان محور حياتي. اشتغلت بالحشيش، العملة، ابتززت بناتٍ ورجالاً، زجّوني في العلاقات المشبوهة وغير المشبوهة. يهزّ الغضب كلَّ بدني، غضب هائل مزلزل، وبالأخص على آية الله الخميني؛ لأن الحرب انتهت، ولم يسقط صدام.

كانت تنصت إليه، مسمّرة في مكانها وعيناها في عينيه. هدوء وجهه الذي انطبع بمخيلتها في أول لقاء اختفى في هذه اللحظة.

- هزيمة إيران المدوية! صارت مشكلتي من المشاكل الكبرى، مع العالم كله. نحن في إيران محتقَرون، ونحن أيضاً أصلاً من المغضوب عليهم. أين نذهب، وكيف سنعيش؟ عُرِضَت عليّ مهمات حقيرة، مهمات انتحارية، عمليات اغتيال وتخريب داخل أراضي مدينتي التي كنت مطروداً منها، لا أعرف إن كان دقيقاً أن أسميها مدينتي وأسميه وطني! باختصار أنا أخرجتُ نفسي من قاع قذر، من شوربة حامضة رائبة معفّنة لو تعرفين.

دخلتْ بَهار بعصير فواكه طازج. بهار كما لو أنها تعرف القصة، قاطعته بحركة مستأذنة من رأسها لتشرح على عجل مكونات الكوكتيل.

- كيوي، موز، عسل وحليب اللوز بدل الحليب العادي.

تفلتُ نغمةً خاصة كردية في أثناء النطق لبعض الكلمات.

- انسجنتُ. لكني تدبّرت أمر الطلعة بعدها وحصلت على لجوء، حين وصلتُ إلى هنا جننتُ، صدقاً. آه كم أحبّ أن أسترجع فترة الاستحمار تلك لأضحك من نفسي.

بهار تجلس على حافة مقعده. كأنها تعلن عن حضور مؤقت. تُدني الكأس منه، وهي تبتسم له. تتناول كأسها وتدعوهما لتذوّقه. يتناول الثلاثة جرعة.

- سلمت الأيادي حبيبتي.

تلتفّ يده حول جذعها تطبطب على جانب فخذها. كان لها جذع ممتلئ. ارتدت الجينز الذي لم يُخفِ حافة سروالها الداخلي من الخلف.

- شكراً بهار. مذاقه طيب ومنعش.

- هذا العقل المقفول على الجهل.

يضرب على رأسه الحليق ويضحك.

- لم أستطع البقاء هنا أكثر من سنة، وفي هذه الفترة التي بقيتها فكرتُ خلالها، ما هذا العالم؟ هل تُعقل هذه الحياة؟ كانت تشبه الحلم، لا لجمالها، لا، أبداً بالنسبة إليّ، جئتُ غراباً ضخماً أعتاش على قمامة الفكر. لم أعرف أن أعيش هنا، أنام، وأفكر. من حقي الآن أن أغفر لنفسي لما شعرتُ به، إن واحداً مثلي قاموا بقذفه من أعلى جبل وأخذوا يراقبون كيف سيتدبّر أمره. وقد نَجا!

تنهض بهار. تداعب جانب وجهه وتمسح شعر رأسه النابت، مستأذنة بحركة من رأسها لتتركنا.

- كتّفوني، قمّطوني، كمّموني بالقوانين هنا. لم يكن بإمكاني فعل شيء. فكرت أن الصح الذي أعرفه لا داعيَ لتغييره، وأنا لم أستطع أن أقرر شيئاً لنفسي. قدّمتُ على طلب من أجل الحصول على دعم لأشتري ساتلايت كدواء. أقفلتُ على نفسي باب الغرفة. بقيت سنة أتابع برامج دينية ومسلسلات عربية وإيرانية. لم أغادر الغرفة. القوانين، البلدية، الجيران، الدعايات، كلها كانت اختراقاً وتجاوزاً عليّ، ولحياتنا الخاصة، كانت دماراً. فكرت كيف لو حصلت على لم الشمل بأولادي وبناتي وزوجتي، لو جئت بهم إلى هنا. الباص يقتحمني ويشقّ جسمي نصفين بالإعلانات الملصقة عليه، امرأة مستلقية على طوله بقطعتين صغيرتين على جسدها. كيف سترى بناتي كل هذا، رجعتُ، أنا الأثْوَل، إلى طهران بعد سنة.

كانت تشفط كل ما يقوله. توقّف ونهض بخفة. اعتذر. ودّ فقط أن يدخّن نصف السيجارة ليعود ويكمل. غيّر اتجاهه فجأة وذهب إلى المطبخ. ملأ إبريق ماء وأتى بقدحين وضعهما على الطاولة الصغيرة أمامها وخرج إلى الشرفة.

لم تكن لديها رغبة في المقاطعة. كانت هناك نبتة ظلٍّ عالية أمامها عند النافذة الواسعة المطلة على الشرفة. أغصانها طيّعة، أوراقها تشبه أوراق أشجار الزيتون، لكنها كانت تتحرك بفعل تيار هواء خفي، كما لو أنها تود أن تنفصل وتسقط، أو تطير. بزغت الشمس فجأة وغمَرت المكان. هناك ألفة عجيبة وانسجام ما بين قطع الأثاث التي بدت كلها بلون برتقالي، المخدات والأشكال الزجاجية المجموعة على الطاولة والسجادة والضوء البندولي عند رأسها. أشياء جرى انتقاؤها لتضفي طابع الزهد، كما لو أن كل شيء هنا كان يتنفس مرة واحدة، يأخذ شهيقاً ويزفر مرة واحدة. الأمر الذي جعلها تعود بظهرها إلى الوراء لترتخي قدر المستطاع.

- هذه المرة كنت أرتعش من الغضب الماحق الذي سيطر عليّ، ليس على السيستم، ولا من نفسي، وإنما وبالأخص على زوجتي اللعينة، وعلى أولادي وعلى خيانتهم لي وغدرهم بي، إذا اختاروا طريقاً غير الطريق الذي أختاره لهم. أوقفتُ معاملة لمّ الشمل.

كانت تنظر إلى لائحة الأسئلة التي عليها الالتزام بها. لم يكن الوقت كافياً. لاحظ ذلك فقفز إلى الأرض ليجلس قريباً منها؛

- هل تعرفين أنّ الحقيقة مختلفة؟ المعرفة الدينية ليست الدين، والصراط المستقيم، اتضح أن لكل الأديان، كلّها، صراطاً مستقيماً. الحقّ ليس في الإسلام وحده. حين عدت وعشت بشكل غير شرعي بين طهران والبصرة حتى تم القبض عليّ، وسجنت من جديد. كما ترين «أثول» بامتياز. حين دخلت السجن من جديد، انظري رجفة يدي. تمزّقت تماماً، انشطرت، ولكن بشكل مختلف ورائع. جاء دور رجل دين في السجن وكان من أتباع الرومي، ليعرّفني بكاتب معروف مُلاحق. الاثنان أخرجاني من المكان الذي كنتُ مسجوناً فيه، انتشلاني من الحفرة التي كنت غاطساً فيها. أقسم لكِ، مثلما دمّرني الدين كان عينه مَنْ أنقذني!

يضرب جبهته بالأرض كما لو أنه يركع.

- هـذه المرة كان كفاحي هو أن أعود، مع زوجتي التي انفصلت عني، وأولادي، نجحتُ بذلك بعد خمس سـنوات، جئت بهم لأنقذهم من جحيم الديـن المزيف، لأغتسـل من دبـق النفاق والفقـر الذي غلّفنـي، ومطاردات رجال الدين لي. أنا أقرأ اليوم كل شيء، بودي لو أعرف كل شيء.

كانت تحاول إلى جانب التسجيل أن تدوّن شيئاً عن انفعالات وجهه:

- وكأن الله أراد بفيضه هذه المرة أن يثبت لي معافاتي من عَماي فرأيتها.

يشير إلى حيث توارت بهار في الممر.

- بهار!

يصيح عالياً بصوت ضاحك منادياً عليها. تدخل مبتسمة، بدت متابِعة لما كان يدور في الصالة، بقولها:

- - أُقسِم ما كان يشوفني. كنت قربه، لصقه من دون أن يتنبّه لشيء، أياماً وشـهوراً وسنوات. بدا ميتاً من الجوع أول مرة، له وجهُ مدمنِ حبوبٍ، أصفر شاحب، ومن دون تركيز.

تفلت بضع كلمات دنماركية تطعّم صياغاتها.

كلاهما يضحك. كلاهما على مسـافة من الأشياء تثير الإعجاب. كلاهما كما لو أن الحديث في الموضوع صار أمراً بعيداً.

- كنـت مريضة أنا أيضاً، مصابة بكآبة شـديدة. كان يقـول لي، كأني نبية تطلب عزلة في غار لفهم نفسها. الأعراض ما زالت تروح وتجيء.

كان منسـجماً مـع تداعـي بهـار فـي الحديـث، بتفاعـلٍ هـادئ ينطـوي على مهادنة.

- أسـلوبه كان جارحـاً وقاسـياً معـي. أسـلوب الآمر، وواجـب الطاعة إلخ...، أضيفي إليها أدوارنا المحيّرة في العلاقة. رفَعَ يدَه عليّ أكثر من مرة، وقذَفْتُه بتلك المنفضة. لستُ ملاكاً كما يقول.

تشير إلـى المنفضـة الزجاجيـة الكبيـرة المموّجـة اللـون علـى الطاولة وتضحك بخجل.

- واجهنا أمراضنا، ملخص الحديث، بتحدٍّ. ذلك ما قالته لنا اختصاصية

بالعلاقات العائلية. أذكر أني كنت أمشي مثل التائهة في شوارع كوبنهاجن، أبكي القوة القادمة، لا أعرف كيف أصفها لك، شيء كان يهزّ كل جسمي.

جلست إلى جانبي على الأريكة. قذفت نعالها بحركة من قدميها وصعدت بساقيها لتجلس وهي تطويهما تحتها. كان يبتسم منصتاً مطرقاً برأسه وهو ينظر في الأرض. تتناهى إلى الأسماع حركة في مصعد العمارة خارج الشقة. أصوات أطفال في مدرسة في الجوار.

نهض ليغلق باب الشرفة مؤيداً لكلامها بهزّات إيجاب برأسه:

- إنه إيمان خاص بنا، نبترد به، يثلج قلوبنا، كان الله في تلك القوة العجيبة التي أضاءت لي داخلي، شيء ساطع مسح الهباء الذي كان فيّ. الله الذي أشعرني بالسكينة، لا بجهنم التي يوقد القوّادون فيها الحطب إلى الأبد لتظل مستعرَة.

بهار مؤيدة:

- صدقيني، كل ما في الحياة له توقيته، الصدفة التي التقى في السجن في طهران بذلك الرجل، والصدفة التي التقيتُه عبرها ما كانت لتخطر ببالي. كلانا كان على الحافة فإما الانكسار إلى الأبد وإما النجاة. كنتُ أعرف أني في طور تحوّل، بدُوار التحول، إن كان بالإمكان تسميته هكذا. التغيّر. كنتُ أرقب بفرح مخلوط بألم كبير كل جزءٍ بي وهو يتهيأ للتكيّف. حتى لصدّه وإبعاده عن حياتي. صدقيني حينها بدأتُ أفهم.

يقاطعها؛

- حبيبتي ذلك؛ لأنكِ كنتِ تتوحمين.

- لا، كانت خيانتكَ.

يقاطعها؛

- كنتُ جائعاً نسواناً وكُتباً، أبحث عن براهين.

- هل تصدقينه؟

الوجه الذي بدا متمسكاً بواقعيته ومقاومته يتغير. تقولها بعينين مفتوحتين ضاحكتين ممتنّتين. فجأة؛

- حين دخلتُ كورساً عادياً لتعلّم اللغة قلتُ له: لا تضحك مني أو لا تهزأ، ولكن مع هذا العِلم الذي أتلقاه كل يوم، كأني سأحصل على الدكتوراه! كان من حقنا فجأة أن نكون نحن وأن نعيش.

قاطعها خجلاً، ربما لتغيير مسار الحديث، بطريقة مسرحية:

- والصوت الثالث كان لمولانا الرومي؛ وأنقذَنا الحب!

كان الامتنان في الوجه مقروءاً. لا تكتّم على شيء ولا أسرار خلف النظرة والعيون.

ما سبق كان في أثناء زيارة حدثت لاحقاً. كانت منال في فترة، تصطادها خلالها كل الكائنات الضاحكة، المتفائلة بالحياة، لترخي كتفيها قليلاً بينما تمشي، وتواصل. كما لو أن فرقة إنقاذ قد تشكلت لغرض أن تُشعِرَها بجمال وجودها في هذا الكون.

6

الحبّ؟ أن تدقّ، تطرق، تطوي ضميرك بقسوةٍ تحت اللهب، مواصلة دؤوبة تشعّ سخونةً. شَررٌ يتطاير من روحك التي تتوهج حتى تبيضّ، حدّ أن يصير ما بين ثناياك نصلاً دقيقاً ليناً حادّاً، ولكنك ستنهش لكَ لحمةً من جسد الآخر لترتق بها ثوبَك!

قد يكون الزوجان تطاولا كثيراً في محاولة فكّ اللبس، الاعتراض والنقّ على الأقدار، وها هي الآلهة تظهر اعتراضها في لحظة غضب! تستحي من الحبّ المعطى كهدية، وهو يُتَوَّجُ هكذا بالبتر!

هذا ما لم يكن من الممكن أن يحدُث في مخاضات سابقة. لكنه ليس تاج الشجرة العالية التي كانت تصعد وتصعد إلى فوق، كان شقّاً طوليّاً للجذع، ما سيبقى ويُذْكَر.

هل كان فِعْلاً من أفعال الآلهة، وليكن اسمها إلهة الرحمة؟ كان يتهمها بتشتيته على الدوام. تخرج في مشاداتهما عن سياق الحديث فتذكر شيئاً عن

توحّش العالم. تعلن زعلها عَلَناً من المدن الماضية في نسيان ناسها، بينما تريه اختبار التبويض. زعلها من البلد المراهق الذي يريد أن يظهر بمظهر الفاهم فيمدّ بعمر التافهين. وهو على حق، فهي لا تستطيع أن تلمّ بالمشهد بكامله. تستغله في مناسبات حزينة لتفرّغ جزءاً من سخطها. ما الذي بإمكانه فعله؟

تعال انظر، خطٌّ غامق وخط فاتح.

كان يقف فاغر الفم أمامها. يسميه شريط عاداتها السيئة، والأقنعة الرخيصة التي اشترتها. أن تديرَ له ظهرها وتنام من دون ختام للحديث، أو العراك. مثلها يفقد حينها الصوت، وتنزوي اللغة بعيداً، رفضاً للمساعدة. يجهل ما ينتقصه، من أجل أن يجرّها إلى التحدّث عن ذلك الشيء الذي تنتقصه. وستصعد كل آلام معدته وتشتدّ الحرقة. ينتقد طفوليّتها. صِفي انفعالاتكِ. قولي شيئاً. تتغير درجة الصوت. تُجمّد رأسَها وجسدَها. لا تتراجع. تودّ بشدة لو يتنازل وينقذ الموقف، وتعلم في الوقت نفسه أنه سيتوجّه إلى علبة الأحذية التي اتخذاها صيدلية، وجمَعا فيها نتائج فحوصات مختبرية قديمة.

تستعيده كلّه. هذه ليست ذاكرة، إنها صور تمثل أمامها، تطالب بالتأمل فيها. وهي في السرير كانت تسمع الحبّة المفلطحة الفوّارة وهي تسقط في قعر قدح الماء وتتحول إلى فقاعات تصعد وتصعد وتنكش وجهه بدغدغة حين يأتي على الكأس كلّها. يجفّف فمه. يضرب كعب الكأس على سطح الخزانة بطريقة يُسمع عبرها احتدامه. صارت تخشى حركاته العصبية. تظل متنصّتة طيلة دقائق، قابضة على حافة اللحاف بيديها حتى تحين اللحظة.

لن يقشطَ لها رجلٌ نفورَها، إلى جانب هذا الخوف الذي صار يكبر فيعطّل تفكيرها.

كانا يخرجان في نزهات صحية مشياً على الأقدام. ضوء النهار يلوّن الراكد المتمايل من أشنات على سطح الماء. كانا يدوران حول البحيرات. يجلسان على مصطبة متباعديْن بعض الشيء. يعبر المتريضون بهما، أزواجاً، أو أفراداً، صامتين أيضاً. يمرّ وقت طويل بين جملة وجملة في حواراتهما.

- سورن كيرغورد كان يتمشى مع ريجينا هنا حول هذه البحيرات، ليطيّب خاطرها ويروّح عنها.
- ما بها؟
- مرت بانتكاسة.
- اطمئن.
- كانت مربوطة باللحظة، فسْخ الخطوبة، هو مَنْ اتخذ القرار، أراد للخطوبة أن تكون أبدية بفسخها.

لم تكن تشعر بالهدوء الذي ينصحون به. ازداد عُري الغرفة الفقيرة العالية السقف. امتلأت ببقع مطليةٍ بانَ تقشّر طلائها. كانا بانتظار تمديد الإقامة. وقد انتهى عقد العمل الذي حصل عليه. وهي قد حصلت على مشرف مسؤول جديد في مكتب التوظيف. الهوية المعلّقة تتمّم المشهد؛ هو يكوي قميصاً، وهي متمددة تحلم بسيجارة.

تعرف أنهما كانا مُدركيْن لما يدور بينهما. كانا يتحايلان على نفسيهما مُتشبثَيْن بامتلائهما الغريب ببعضهما. مثله لا تعرف معدن هذا الحب الذي انطمر تحت ركام الطوارئ والأولويات المتلاحقة. تعرف كيف يظهر. وتعرف أن الاتفاق من دون اتفاق كان اللارحمة. هذا الحبّ، الشيء العادي السخيف التافه كَبُرَ معناه وتأسطر. وسعتْ سلطتُه أيضاً فصار أباً حازماً صارماً يملك أن ينتقم. لن يفلتا منه لأدنى تقصير أو زلّة. لعل العالم يتصور أن كل أزماته ستنتهي بمجرد أن يحدث انفلات شامل للأخلاق والقيم.
ترى الناس وحيدين عبر النوافذ، يتحركون داخل غرفهم، وقد غادرتهم أذرعهم وسيقانهم. ترى ستائر مسدلة. ترى ثماراً غريبة في الفناء الخلفي تتساقط من أغصان الأشجار. مصّاصات أطفال مدلّاة ورسائل شكر، رسومات وأكياس حلوى.

ما الذي سيفعلانه الآن، بين أن تتمنى أن يكون قد آن الأوان لينعما بالهدوء، وبين أن تطعنه بسكين لأنه أخرجها هكذا من حياته؟

- كل الخباثة لن تصف قرارِكِ الفردي وحجم الجريمة.
قالها هذه المرة من دون مراعاة، بنفور وفتور.

لم يعد التفكير معقولاً.
- كيف تجرؤ، هل تعنيها حقّاً؟ وبهذه الطريقة؟
- ليس هناك من طريقة أخرى. أو ربما ليس لديّ من طريقة أخرى. لطالما شعرتُ بأن قرار انفصالنا مؤجل من قبلنا.
- كلانا؟
- نعم.
- تقولها ببرود، من أين جاءتكَ هذه القسوة؟
- شيء ما بيننا، ندّعي أننا لا نراه، وهو واضح أمامنا.
- هذا يعني أن بالإمكان تجاوزه، هذا الشيء.
- إنه جبننا!
- من هذه اللحظة نشرع بالحل. يمكن الاستعانة باختصاصي.
- لا، الحل بنسيان كل شيء. أنا مقتنع. أنا مقتنع بأن علينا الهروب من كل تاريخنا كحلٍّ للمعضلة.

تتشقق شفتها السفلى الناشفة. تلحس الدم. تتوهّج رغبتها به. بسبب شيء صغير أحياناً، يكاد يكون لاشيء. شَكّةُ إبرةٍ تظنها خوصةَ نخلة، طعمُ لذعةٍ ما تردّها إلى صدأ شبكةٍ معدنية متهرئة من إحدى نوافذ البيت العتيق بأطُرِها الخشبية. وخزة جرح بين الساقين ما زال بسبب خياطته الخاطئة يمنعها من الجلوس براحة. الذاكرة تتقافز من دون تسلسل زمني. لمجرد أن ينصفق باب في البعيد تتوقع حدثاً عاديّاً. لمجرد أن يُترَكَ باب النافذة مفتوحاً ينتمي الزمن إلى فترة كانت خاليةً من خوف. متى كان هذا؟

حين دارت الأرض بها في جولتها الصباحية في المتنزه قبل فترة، أدركت أنها ستغيب عن الوعي. هرع الكلّ لنجدتها. لم يتجاوز تطبيق عدّ الخطوات في هاتفها النقّال خمسة آلاف بعد جولة الركض. عليها ألا تنشغل في اليوم

الواحد بأكثر من خبر أو مهمة. النصيحة في عيون الطبيب الذي فحصها، بعد أن نُقلت في سيارة الإسعاف.

هـل كان بسـبب خوفها من ضيـاع تلك المفاتيـح، أم قرارهـا ذلك اليوم أن تصنع حظّها، أن تنهي خصامها مع نفسـها، أن تتماسـك وتواصل وتشـدّد لنفسـها على ضرورة وضع تنظيم لكل شيء بنفسها، شأن باقي البشر؟ عليها ألا تبالـغ كلمـا اتفقت مع نفسـها. عليهـا أن تخفف من الغلو الذي تشـعر به يسـطع في طبقات صوتها. المضحـك أنها بتقليدها لكل البشـر انتهت امرأةً اكتشـفت آخر يومها المزحوم، بدهشـة غير مبالغ فيهـا، أن ضبّة المفاتيح قد سقطت سهواً في كيس التسوق البلاستيكي!

هي لا تريد شيئاً. لا تقول شيئاً. تدير له الضوء كلَّه لو شاء، الثراء في الضوء. الفكرة تجعلها تغصّ باللقمة التي التصقت في لهاة حلقها مثل حبّةِ تمر.

– انفصال؟

– نعم، لأننا لم نمتلك الجرأة على رؤية الشيء بالأحرى.

– ولكنه يتخلّق بمجرد الإشارة إليه، هل تعبتَ؟

– لا.

لماذا قالها إذاً؟ لو لَمْ يقلْها! كانت قبلاً تواظب على القول في سِرّها متى يكبران وينضجان ليتحدثا معاً براحة، من دون عبودية الأدوار التي اسـتلماها مـن العالم. ها هو يكبـر مرة واحدة فجأة ويقذفها إلـى الزاوية من الغرفة. لمْ يشـركْها في القرار. يبدو في أوج سَـلامِه. بينما هي تحاول الدفاع عن خطئها الفـادح، وهي تدركه لحظتها. اللحظـة برعبها الخاص لا يمكن وصفها. هل لأنه كان مدركاً له. دفعة واحدة!

– ولكن مهلاً، ما الذي حدث، لا قدرة عندي على رؤية شيء حاليّاً؟

التروي، ستتشكّل الصور لاحقاً بتفاصيلها. ملايين من الأصوات تحتشد في حنجرتيهما.

- لِمَ التأجيل؟
- تأجيل ماذا؟
- المواجهة؟
- لقد واجهناه. إنكَ تتحدّث عن شيء لا تعرف أبعاده، أنتَ لا تعرف ما تقوله. أنت لا تعرف ما فقدتُه، ما فقدناه. لم تقدّر كل ما واجهناه. لا تعرف ما بي.
- وهل تعرفين أنتِ؟ كم عليّ أن أنتظر لتعرفّيني به. لماذا لا تقولينه إذن؟
- كان سيموت... (صاحت أخيراً بألم) لم يكن ليعيش... أعرف ذلك.

تنخرط بالبكاء.
- لماذا؟

طلعتْ من فمه صرخة متهدجة، وهي جامدة في مكانها تحاذر الإتيان بحركة.
- لأنه أنا. ألا تفهم. وكنتُ سأفقدكَ أنت أيضاً، كنتَ ستموت ألماً بحملِكَ إياه من جديد، وبحثكَ عن مكان هنا لدفنِهِ.

يتردد صدى صيحته المدوية الحزينة الأخيرة في أذنيها.
- إذن، أنتِ أخذتِ دوركِ بالقرار، وقد جاء دوري.

من هي؟ ذلك يشبه الحلم! أو الإلحاح على أن تشبه الأخريات. حين أغمي عليها، كان ذلك في أول زواجهما، قبل مغادرتهما البلد. قرارها تناول ذلك الدواء المحفز على الخصوبة، كان الرغبة في الانتماء إلى العالم. الحذو حذوه. مَقَتَ عاديتها، رَفَضَ ما قالته عن حاجة الكائن البشري الأساسية، رَفَضَ حقدها على تلك الفوارق ما بينهما، وبين الباقين والباقيات. رَفَضَ أن تحيله عنوة إلى صفوف الآخرين من الذكور.

الحبّ، ذلك البركان الذي تفجّر. ولكي يثبت لها ما يقوله أمسكَ بعبوة الحبوب وهوى بها على الأرض بانفعال وغضب كبيرين.

لا شيء على حاله. لا شيء. يحقّ لها أن تغيّر أقوالها، أن تناقضَ نفسها،

أن تكون فظّة وقحة، سيئة وقليلة التربية. أن تمسك بمسدس وتنزل مندفعة بجنونها لتقتل كل من يصادفها. حسناً ستتراجع. نادمة. يحق له أن يقسو، أن يغيّر طبعه، أن يلغي نصف وفائه. آسفة، ستلقي بنفسها باللحظة من النافذة لتعاقبه. لكنها لا تريد أن تسكت. تنهض، تدور من حوله. بطرف إصبعها تمسّ ما ظَهَرَ من أعلى رقبته بين الياقة وشعره. يتململ في مكانه. مَن يكون؟ وجهُه غريب مُجهَد، وجه محارب منهك قد نَجا، معافى من الأوبئة والحروب ومخلّفات الدمار. منكّس الرأس صوب الطاولة. جاء ليقول كلمته وسيمشي. يبعد يدها بحركةٍ من ذراعه إلى الخلف وهو جالس.

يا له من دَيْنٍ ثقيل. محاولة إنقاذ مضاعفة، ولا مجال للتراجع إن أصابَتْه انتكاسة. لن تَقْبَلَه بوجهه الآخر أيضاً. صورته الآن لا ترضى بأدنى صدع. اعترتها حالة غريبة. كانت تريد أن تقبّله. لم تدرِ مَن هو الأشدّ ضعفاً.

تخطر ببالها أشياء خطرة. يا محراثي، أنا من خلفكَ أطشّ بذاري، ولكنها... الأرض. على وشك أن تضحك لخطورة ما هما فيه.

- ما معدن الحب؟ يدي تتوق لِفَرْكِه.

- لا أعرف. سؤالك مسرحي، ولكنه شيء يستحق الفحص حقّاً.

الهذيان ما تبقى لهما، الرطانة. فرغت الآن تماماً، ولم يعد عويلها يخرج منها. إنه صراخ امرأة غائبة. هل قال لها ضاعَ. بِعْناه. انسرَقَ! ما قيمة الأشياء الآن؟ إذا ما كان خلف المأزق وطن، منفى، عقيدة أو طفل، بيئة ومناخ، أو امرأة أخرى ستحلّ محلها.

تجول روحياً بين الأحلام والخيال. بوصيةٍ من الريح تمكنت من رؤية وجه الآلهة أخيراً. لونُ بشرتها مزيج بين النحاسي والذهبي، وجهٌ مستدق وعينان مكحلتان. بدت مستقيلة، تطبّعت بالتدريج بطباع البشر، لا يظهر أنها تأبه لما يدور على الأرض كثيراً، والأمر سواء لدى الآلهة حتى لو كان نهاية الكون. رمَتْها بنظرة كانت حادّة كالسهم في روحها، ولكنها خلّفَت مثل قُبلةٍ هدوءاً عميقاً غَلّفها.

تومـض أنهـار ضوئية في تلـك الخارطة وهي ترسـم لها حـدود الكون، تطمئنها وسط تلك الظلمة التي تغرق نفسها فيها. تترك شقّاً صغيراً في الستارة بمنزلة سـاعة جداريـة بتوقيته. تدير الراديو بلغة البلـد. قيل من الضروري أن تعتاد الأذن على سماعها، وهي تنفّذ كل ما من شأنه أن يسهّل من سير حياتها الجديدة الآن!

ذلك الذي تخلّق في بطنها كان الإشارة الأولى لفصل جسدها حينها عنه. وكان سيموت، وستفشل ثانية في الحفاظ عليهما كليهما.

ليس عنوةً يا منال! الغريزة، اللذة وثمارها، الديمومة والخصب.



مانفيستو الحُجرة

الأطفال الذين لم نأتِ بهم إلى العالم سعداء حيث هم.

الأطفال الذين لم نأتِ بهم الى العالم، أينما كانوا، بعيدون عن أحلامنا التي غالباً ما نحمّلهم مسؤولية عدم تحققها.

الأطفال الذين لم نأتِ بهم إلى العالم هُمْ وعدُ العالم الرجراج بالسعادة، يطفح ويفيض ويجعل البشر، والأشجار والمياه تؤمن بالأمل.

الأطفال الذين لم آتِ بهم إلى العالم جعلوني أُصاب بمرض تحسّس البطن ككل امرأة مُنتظرة. تثقلُ روحي بجرعةِ اشتياق تفوق طاقة تحمّلي، تتحول بالتدريج إلى حسرة، ثم جفاف مؤلم، ثم كراهية تُنفرني، فحقدٍ يصعدُ حارقاً في رأسي، ينتهي برغبةٍ بالانتقام من الكُل، وتدمير كل شيء.

الأطفال الذين لا يأتون إلى العالم؛ لأنهم ينتظرون، إما أن ينالوا كامل حقوقهم في هذه الحياة وإما لا؛ فقد عجِزنا عن حمايتهم.

الأطفال الذين أجهضتهم كبروا في مكان خارج هذا العالم. كانوا أكثر وعياً منا. شنّفوا الآذان بالنداء. سحَبَهم كوكبٌ آخر إليه، أنقذَهم من غَرق محتّم إلى أعماق البحر. أنقذَهم من التفسّخ على شاطئ، أو الوقوع عبيداً بيد آخر سفينة فرّ العبيد بها، تاهت في بحثها عن يابسة، ظلت سنين تدور بين البحار حتى وصلت شاطئاً وأعادت تاريخاً ما مورس ضدها: أطفال كبروا واستعبدوا بعضهم بعضاً، أنشأوا مستعمراتهم التي جهزت لتصدير العبيد من جديد.

الأطفال الذين نأتي بهم إلى العالم ليسوا سوى تأويلٍ لتجميل الحياة، يكبرون ويرون بشاعة ما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان.

الأطفال الذين أجْهَضْتُهُمْ احترتُ في الأرض التي أدفنهم فيها. سمحتُ للغرباء بتدبّر أمر واحد منهم، بدلاً من إضافة سلاسل أخرى تربطني بالمكان الذي كان سيرقد فيه. سيكون كلٌّ منا حرّاً من ارتباطه، كلانا من فكرة الوطن الصغير ووَهْم التجذّر في مكان آخر.

الأطفال الذين لم ألدهم كاملين، يستنشقون الآن هواءً نقيّاً في رحمٍ آخر، غير محقون وملوث بزمن الأسلحة والأوبئة. رَفَضوا الثبات في رحمي، جنتي المضيّعة، عطفاً عليّ!

الأطفال الذين... لأسباب قوية قتَلَتهم أمهاتهم؛ واحدة بدسّ السم بالطعام، ثانية بقطع وريدهم، ثالثة بإغراقهم قبل أن تشنق نفسها.

الأطفال الذين لم نأتِ بهم إلى العالم لهم دخلٌ بمصير الحبّ الذي يربط أو سيربط اثنين. الحبّ في تحوّل مساره. الحب الذي يثمر طفلاً. الحبّ الذي ينتهي بمجيء طفلٍ.

الأطفال الذين لم ألِدهُم... إنما بدافع أنانيتكِ، لتبقَيْ لكِ وحدكِ، لا ينافسكِ أحد ولا يقيدكِ!

الأطفال الذين... لهم لون بشرة مختومة.

الأطفال الذين... عالقون في بطني، حيث غفلت وكالات تحقيق الأحلام عن أمر مهم، حين ثبّتت حقوقي كأمّ وسيطة وضمنت حقَّ المحرومين من الأطفال بالسعادة، يدفعون ثمنَ ترميم بيتي، مقابل تأجير رحمي، ولكن فاتَهُم عامل الحرب الذي لم يكن منصوصاً عليه في العقد!

الأطفال الذين... كنتِ ستتركينهم وتجرين من خلفه، الأولوية له على الدوام، أينما كان!

الأطفال الذين أجهضناهم بسبب رحم مغتصب بأوامر عسكرية وغير عسكرية.

الأطفال الذين... أسقطوه قسراً في المستشفى، أعاروني مشدّ صدرٍ ضيق، ثم ناولوني حبّتين لتجفيف الحليب في صدري.

المحتويات


مكتبة ياسمين